

القسم الثالث

إيران

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

دول متقابلة

أخذت تنشأ في إيران منذ القرن الثالث الهجري دول متقابلة ، كانت أولاها دولة الطاهريين بخراسان التي أنشأها طاهر بن الحسين قائد المأمون ، وخلفه عليها أبناؤه حتى سنة ٢٥٩ للهجرة ، وكانوا تابعين للخلافة ببغداد ، فكانوا يرسلون لها بالجبايات والضرائب . وفي سنة ٢٤٧ أقام يعقوب بن الليث الصفار الدولة الصفارية في إقليم بلوخستان شرقي إيران ، ومدد حدودها حتى شملت كرمان جنوبي إيران ، وأفغانستان ، واستولى على خراسان التي كانت بيد الطاهريين . وخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٦ إذ قضى عليه السامانيون قضاء مبرماً . ويغلب الحسن بن زيد العلوي على طبرستان منذ سنة ٢٥٠ ويقم بها دولة علوية يخلفها عليها أخوه محمد لسنة ٢٧٠ حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ هاجمه السامانيون ولم يلبثوا أن أسروه على أبواب جرجان ، وبذلك أجهزوا على تلك الدولة العلوية ، كما أجهزوا من قبل على الدولة الصفارية . وكُتب للسامانيين أن تظل دولتهم قائمة حتى سنة ٣٨٩ وبذلك تشغل شطراً من العصر العباسي الثاني إذ بدأت في سنة ٢٦١ وظلت فترة طويلة في عصر الدول والإمارات ، متقابلة مع الدولة البويهية التي سيطرت منذ فواتح هذا العصر على الأقاليم الجنوبية والجنوبية الغربية من إيران ، ومدت ذراعها إلى بغداد فسيطرت عليها وعلى العراق . وكانت تقابلها الدولة الزيرية التي سيطرت على طبرستان بعد زوال الدولة العلوية منها ، وقد مدت سلطانها أحياناً على جرجان وبلاد الجبل . ولا يكاد القرن الرابع ينتهي حتى يبرز نجم الدولة الغزنوية . وبذلك كانت تتقابل في أوائل عصر الدول والإمارات دول السامانيين والبويهيين والزريارين والغزنويين .

الدولة السامانية^(١)

يرجع نسب السامانيين - فيما يذكر البيروني وغيره - إلى بهرام جوبين الذي كان مَرزُبَانًا لِخَشْرُو أَبَرُويز (٥٩٠ - ٦٢٧ م) على ولاية أذربيجان الفارسية ، وقد أسلم جدهم سامان خواده أي سيد قرية سامان الواقعة في إقليم بَلخ بخراسان زمن خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٤ هـ) . ولم يلبث اسمه أن لمح بين أصحاب أبي مسلم الخراساني حين نهض بالدعوة للعباسيين في أواخر العصر الأموي ، وتوفّي ، فحلّ ابنه أسد مكانه في خدمة العباسيين حتى توفّي لعصر الرشيد . ويصطنع المأمون أبناءه ، ويأمر عبد الله بن طاهر أمير خراسان أن يوليهم على ما وراء النهر ، فيولّي أحمد فرغانة ونوحا سمرقند ويحيى الشاش وأشروسة ، كما يولي أخاه إلياس هراة في أفغانستان . ويغلب أحمد على أخويه نوح ويحيى ويصبح له أمر ما وراء النهر جميعه . ويتوفّي سنة ٢٦١ ويخلفه ابنه نصر على ما بيده ، ويفزع إليه أهل بخارى ، فيُرسل إليهم أخاه إسماعيل . ويصبح نائباً له عليها . وتفسد الأمور بين الأخوين ، وتكون الغلبة لإسماعيل ، فيجرد أخاه من كل سلطان . وهز يُعَدُّ المؤسس الحقيقي للدولة السامانية .

وتلتقي جيوش إسماعيل في سنة ٢٨٦ للهجرة مع جيوش عمرو بن الليث الصفار صاحب كَرْمَان والرّي وبلوخستان ، وتدور الدوائر على عمرو ، ويصير ما بيده من البلدان إلى إسماعيل ، ويُرسَل إليه الخليفة المعتضد بجمعة السلطنة . ولا يكاد يدور عام حتى تنشب الحرب بين إسماعيل ومحمد بن زيد العلوي صاحب طبرستان ، ويؤمر محمد بعد أن أصابته ضربات قاتلة ، ويموت متأثراً بجراحه . ويستولى إسماعيل على إمارته . وبذلك تتسع الدولة السامانية سعة كبيرة ، مما جعل السامانيين يقيمون على ولاياتها نُواباً عديدين ، وبينما كانوا يقيمون في بخارى حاضرتهم كان قائد جيشهم يقيم في نيسابور حاضرة الدولة الطاهرية القديمة . وتكَلَّل انتصارات إسماعيل بانتصار حاسم له على الترك سنة ٢٩١ للهجرة فقد زحفوا في جيش جرار ، فنادى إسماعيل في خراسان وبقية إمارته

(١) العربية طبع القاهرة) ص ٥٢ وتاريخ الأدب العباسي لنيكلسن ترجمة صفاء خلوصي (طبع بغداد) ص ٣٥ والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم مينة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٤ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكهان (نشر دار النعم للمطابع بيروت) ص ٢٦٢ .

(١) انظر في الدولة السامانية الآثار الباقية للبيروني ونجارب الأنم لابن مسكويه وابن الأثير وابن تيمية بردى و مواضع متفرقة وتاريخ ابن خلدون (طبع دار الكتاب اللبناني) ٧١٢/٤ وكتاب تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي وإيران ماضيها وحاضرها للدكتور وليد (الترجمة

بالنفير ، وجاءت الجنود من كل فجٍّ ، وهجم بهم على الترك في السَّحَر ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفكر الباقون لا يَلُوبون . وإسماعيل أعظم أمراء هذه الدولة ، فهو الذي نظَّم علاقتها بالخلافة العباسية في بغداد ، فلم يكن يؤدِّي لها ضرائب مالية ، بل كان يكتب بإرسال بعض الهدايا ، ويقال إن هديته لسنة ٢٩٢ اشتملت على ثلثائة بعير كانت تحمل صناديق المسك والعنبر والنياب وتحفاً كثيرة . وقد منحه الخليفة حقَّ ذكر اسمه معه في خطبة الجمعة وحقَّ نقش اسمه على الدنانير . وظل ذلك تقليداً للأمراء السامانيين ، وهو رمز واضح لاستقلالهم السياسي عن الخلافة ، ومع ذلك كانوا يفتقرون دائماً إلى عهود تولية من الخلفاء العباسيين حتى يكون حكمهم شرعياً ، وكانوا تبعاً لذلك سنين مما جعلهم دائماً خصوصاً للشيعة .

وخلف إسماعيل ابنه أحمد (٢٩٥-٣٠١ هـ) . وكان شجاعاً ، فاستولى على سيجستان ، غير أن غلمانه لم يلبثوا أن قتلوه ، فولى بعده ابنه نصر (٣٠١-٣٣٢ هـ) . ومنه افتتح مرداويج الزبيري طبرستان سنة ٣١٦ وأنهم باعنتاه للمذهب الإسماعيلي الشيعي ، فاضطره حرسه إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح (٣٣٢-٣٤٣ هـ) . وهو أول سلاطين الدولة في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت فيه شدة وعنف ، فلما خرج عليه أخواه وعمه إبراهيم سَمَلَ عيونهم جميعاً . وخلفه ابنه عبد الملك (٣٤٣-٣٥٠ هـ) . وكان ضعيفاً . وولى بعده أخوه منصور (٣٥٠-٣٦٦ هـ) . وأرسل إليه الخليفة المطيع لله بالخلع والتقليد . وأخذ البويهيون منذ ظهورهم يقتطعون من السامانيين كثيراً من أطراف دولتهم في إيران ، فاستولوا على كرمان . غير أن خراسان ظلت في أيدي السامانيين هي وما وراء النهر ، وظل سلطانهم قويا فيها حتى عهد منصور . وكانوا يمتازون بنشر العدل والأمن في ربوع بلادهم . ويحكى ذلك ابن حوقل قائلاً : « ليس بأرض المشرق ملك أمنع جانباً ، ولا أوفر عُدَّةً ، ولا أكمل عُدَّةً ، ولا أنظم أسبأباً ، ولا أكثر أعطيةً ، ولا أدرُّ طعاماً ، ولا أدومَ حسن نيات من السامانيين ، مع قلة جباياتهم ونزور أخرجتهم ، وقلة الأموال في خزائهم ، وذلك أن جباية خراسان وما وراء النهر لأني صالح منصور بن نوح في وقتنا هذا ، لكل خراج يُقبَضُ وضمان يُحمَلُ في كل ستة أشهر ، عشرون ألف ألف درهم . وعليه أربعة أطعمة في كل ستة دارةً ، غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وكل طعم منها في رأس تسعين يوماً ، يُخرَجُ منه إلى غلمانه وقواده ولسائر المتصرفين خمسة آلاف ألف درهم ، وتستوعب أطعمتهم نصف جباياته المذكورة ، وهي عشرون ألف ألف درهم ، عن نفس طيبة ومسرة ظاهرة ، وغبطة بقيام المعدلة فيهم تامة . . ولهذا الحال أعمالهم مشحونة

بالقضاة والجبّة والكفاة والولاية متزكّين على أرزاق تتساوى ، وأحوال في المراتب تتداني ، وذلك أن رزق القاضي وصاحب البريد والعامل على جباية الأموال من البنادر (المدن) ووالى الصلاة والمعونة وراتبهم واحد بقدر كل ناحية وحسب كل كورة ، وليس يتقص بعضهم عن بعض . « وهى شهادة قيمة من شاهد عيان غير متحيز ، إذ كان ابن حوقل شيعيا إسماعيليا ، وكان السامانيون سنيين ، خصوصا لشيعته ، ومع ذلك يشهد لهم شهادة صدق بالعدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، كما يشهد لهم بحسن الإدارة وتنظيم الدولة وتسويتهم بين موظفيها فى الأرزاق والرواتب ، مما جمعهم لهم على الإخلاص والتفانى فى خدمتهم .

وخلف منصور ابنه نوح الثانى (٣٦٦-٣٨٧ هـ) . وكان صغيرا لا يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة ، وكأما كان ذلك نذيرا بتضعف شئون الدولة ، فقد أخذ القرخانيون حكام الترك بين فرغانة وحدود الصين ينازلون السامانيين فى وراء النهر ، وكانوا قد أبلوا فى حربهم قبل ذاك طويلا ، وبنوا على حدودهم معهم رُبُطاً كثيرة ، حتى إذا ولى نوح وهو غلام استفحل خطر الترك وأخذوا يكثرون من الإغارة على السامانيين ، وكان عبد الملك أبوه قد ولى ألبتكين قائد جيوشه أمر غزوة ، فاستعان بمملوكه سبكيكين ، ولم يلبث أن خلفه على ولايته وأدارها إدارة حسنة ، فولّى نوح الثانى ابنه محمود الغزنوى خراسان ، وتوفى نوح ، واضطربت الأمور بعد وفاته ، بين ابنه منصور وعبد الملك ، وعلت كفة الأخير ، غير أن إيلك خان حاكم الترك القرخانيين أغار على بخارى وأخذ عبد الملك أسيرا ، فخلا الجو لمحمود الغزنوى ، وضم خراسان إلى مملكاته سنة ٣٨٩ وبذلك انتهت الدولة السامانية .

الدولة البويهية^(١)

لما خرج فرسان الديلم وبعض قوادهم لامتلاك البلاد لم يخرجوا إلى جنوبى بحر قزوين موطنهم فقط ، بل تغلغلوا فى إيران ، وكان فى مقدمة من خرجوا على بن بويه وأخواه الحسن وأحمد ، وعملوا أولا - كما مر بنا فى قسم العراق - مع القائد الديلمى ماكان بن كاكى ، حتى إذا هزمه مرداويج الزيارى حاكم طبرستان وجرجان تركوه إلى خصمه قائلين له - كما روى ابن مسكويه - «الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخفف عنك ثمتنا ، ويقع كلنا (عبثنا) على غيرك ، فإذا تمكنت عاودناك» . ووقع على بن بويه من مرداويج موقعا حسنا

(١) انظر فى الدولة البويهية المصاغر المذكورة فى الفصل

الأول من قسم العراق

فولاه على الكرج إلى الجنوب الشرق من همدان سنة ٣٢٠ للهجرة ، ولم يلبث أن استولى في السنة التالية على أَرَجَان وفي تاليها على فارس . وقُتل مرداويح في سنة ٣٢٣ فانتَهز على وأخوه الحسن الفرصة واستوليا على أصفهان والرّي اللتين كانتا بيده . وكان أخوها - كما مرّ بنا في قسم العراق - قد استولى على كَرَمَان جنوبي إيران في سنة ٣٢٢ ومنها استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ وتآمر معه عامل واسط على اقتحامه بغداد ، وكانت تعاني من فوضى شديدة ، فدخل أحمد - كما مر بنا في قسم العراق - بغداد دون مقاومة سنة ٣٣٤ وخلع عليه الخليفة المستكني ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه عليا صاحب فارس عماد الدولة ولقب أخاهما الحسن صاحب بلدان الجبل والرّي ركن الدولة .

وبذلك أصبح الشطر الأكبر من إيران والعراق في قبضة البويهيين ، وأخذوا يزعمون أنهم من سلالة الملوك الساسانيين ، ويذكر البيروني أنهم انتسبوا إلى الملك الساساني بهرام جور ، بينما ينسبهم ابن الجوزي في كتابه المنتظم إلى سابور بن أردشير . ويروى أن بويه أباهم كان صيادا يائسا على بحر قزوين لا يكاد يجد ما يتلغ به . ويغلب أن يكون هذا النسب الشريف صنعه لهم بعض التملقين من المؤرخين إرضاء لهم . وبلغ الإخوة الثلاثة من السلطان مبلغا عظيما ، حتى كانت السكّة تُضربُ بأسمائهم ، وحتى كانت أسماءهم تُذكرُ مع الخليفة في خطبة الجمعة .

وكانوا شيعة ويذهب ابن حَسُول إلى أنهم كانوا يعتقدون المذهب الزيدي^(١) ، ولعله تأثر في هذا الحكم بأن أصلهم من الديلم وكان المذهب الزيدي قد شاع هناك منذ خروج الحسن بن زيد في أواسط القرن الثالث بتلك الديار ، ونمى المذهب بعده هناك أخوه محمد ، ثم الحسن الأطروش . والحق أن البويهيين كانوا إمامية اثني عشرية على نحو ما سنوضح ذلك في حديثنا عن التشيع ويقال إن معز الدولة فكر في نقل الخلافة إلى العلويين ، فحَوَّفه بعض أصحابه مغبة ذلك قائلا له : « متى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه » فانصرف عما كان عزم عليه . وظل الخلفاء العباسيون في يده وأبدى البويهيين بعده كأنهم أُسرى .

وكانت رياسة البيت البويهي للأخ الأكبر عماد الدولة ، فلما توفي سنة ٣٣٨ للهجرة ولم يترك عقبا انتقلت الرياسة إلى أخيه ركن الدولة ، كما انتقلت إليه ولاية عماد الدولة على فارس ، وجعلها ركن الدولة لابنه عضد الدولة ، حتى إذا حانت وفاته سنة ٣٦٥ قسم

(١) تفضيل الأتراك على سائر الأجناد لابن حَسُول (طبعة إستانبول) ص ٣٢ .

ملكه بين أولاده ، فجعل - كما مرّ بنا في قسم العراق - لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرجان ولأخيه مؤيد الدولة الرى وأصفهان ولأخيها فخر الدولة همدان والديتور . وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه ، وصدعا لأمره ، فكانا لا يجلسان في حضرته ويقبلان الأرض بين يديه على عادة الديلمة ، ويخدمانه بالريحان . ولم تلبث الأمور أن فسدت بين عضد الدولة وبين ابن عمه بختبار بن معز الدولة صاحب بغداد والعراق . ونشبت بينهما الحرب وسقط في ميادينها بختيار ، فاستولى عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧ . ووضع في سنة ٣٧١ أخوه فخر الدولة يده في يد قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان ضده ، فوجه إليها أخاه مؤيد الدولة فاستولى على بلادهما .

ومرّ بنا في قسم العراق أن عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أعظم الحكام البيهيين ، فقد اتسعت دولته حتى شملت كرمان وإقليم فارس والأهواز وبغداد والعراق وطبرستان ، وأنه أول من خوطب بالملك شاهنشاه (ملك الملوك) في الإسلام . وبلغ من شعوره بأجماده واعتداده بنفسه أن فكر يوما في أن يتقلد خلافة المسلمين ، فقد ذكر ابن حزم في كتابه «نقط العروس في تواريخ الخلفاء» أنه أمر لذلك الحسن بن علي البصرى المعروف باسم الجعل أن يؤلف كتابا في تقليد الخلافة في غير قريش أملا منه في أن يتسمّى بها ، وألّف الجعل الكتاب ، وانتشر الخبر إلى خراسان . فصاح الناس في مجالس الفقهاء : وإسلاماه ! وإسماءه ! . وبلغ ذلك عضد الدولة . فحسنى الثورة عليه ، وسمّ الجعل في وقنع الناس بموته وسكن الأمر^(١) . وكانت فيه قسوة شديدة جعلت قائده المطهر بن عبد الله يقتل نفسه حين هزمه بعض الثوار خوفا ورعبا . وبلغ من قسوته أنه خشى على ماله من تدهله بفتاة . فأمر بتغريقها في غير شفقة ولا رحمة . وكان يضبط أمور دولته ضبطا دقيقا ، فظهر الطرق من اللصوص - كما مرّ بنا في قسم العراق - ورفع الجباية عن قوافل الحجاج ، واحترف لهم الآبار في الطريق إلى الحرمين . وبنى كثيرا من المساجد الجامعة في مملكته وعنى بالعمران وزرع البساتين عناية واسعة .

ويتوفى ويخلفه - كما مرّ بنا في قسم العراق - ابنه صمصام الدولة ، وتتوالى الأحداث ، فيتوفى سنة ٣٧٣ مؤيد الدولة دون عقب ، فيستدعى وزيره الصاحب بن عباد أخاه فخر الدولة من نيسابور ، ويسلمه أمور الجبل وطبرستان وكل مقاليد دولة مؤيد الدولة وبلاده . ويخرج في سنة ٣٧٦ على صمصام الدولة أخوه شرف الدولة ، ويصبح له الأمر

(١) انظر نشرتنا لنقط العروس في مجلة كلية الآداب

ديسمبر ١٩٥١ ص ٧٦ .

بجامعة القاهرة الجزء الثاني من المجلد الثالث عشر ، عدد

من دونه حتى يتوفى سنة ٣٧٩ فيخلفه أخوه أبو نصر الملقب بهاء الدولة وضياء الملة (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ). وكان البويهيون يستكثرون من الألقاب ، ولم يكتفوا بتلقب أنفسهم ، فقد أكثروا من تلقب وزراءهم بمثل كافي الكفاة وأوحد الكفاة إلى غير ذلك . ومعروف أن السامانيين لم يكونوا يعنون بتلقب أنفسهم ، ولكنهم تفتنوا في تلقب قواد جيوشهم . وبلغ من شيوخ ذلك بين حكام إيران أن نجد بغراخان التركي حين يثور على الدولة في سنة ٣٨٢ يلقب نفسه شهاب الدولة .

وكان بهاء الدولة - كما مر بنا في قسم العراق - ظلماً سفاكاً للدماء ، وهو أقبح ملوك بني بويه سيرة . وولى بعده ابنه سلطان الدولة (٤٠٣ - ٤١٥ هـ) . وانتزع الملك منه أخوه مشرف الدولة صاحب كرمّان إلى أن توفي سنة ٤١٦ فخلفه أخوه جلال الدولة (٤١٦ - ٤٣٥ هـ) . ولا يلبث محمود الغزنوي أن يستولى من يد مجد الدولة بن فخر الدولة على الريّ وأصفهان وبلاد الجبل . وتعظم الفوضى في عهد جلال الدولة ، ويخلفه أبوكاليجار محيي الدولة (٤٣٥ - ٤٤٠ هـ) . ويعظم في عصره شأن السلاجقة ، ويستولون على كثير من إيران . ويتوفى أبوكاليجار غمّاً . ويخلفه الملك الرحيم . ويدخل طغرلبيك بغداد سنة ٤٤٧ للهجرة . كما مرّ بنا في قسم العراق . وبذلك يتقوّض سلطان البويهيين في العراق وإيران نهائياً .

الدولة الزيارية^(١)

زعم البيروني في كتابه الآثار الباقية أن هذه الدولة تُنسبُ إلى الملك الساساني قباد الذي حكم من سنة ٤٤٨ إلى سنة ٥٣١ للميلاد . وسواء أكان هذا النسب صحيحاً أو غير صحيح . فإنها ترجع إلى أصل إيراني ، وكان مؤسسها مرداويج بن زيار الديلمي (٣١٦ - ٣٢٣ هـ) أحد قواد الجبل الذين ظهروا في شمالي إيران لذلك العهد ، وقد انتظم في سلك القواد الذين عملوا تحت لواء أسفار بن شيرويه الديلمي المتغلب على قزوین وديارها ، ولم يلبث أن وثب على أسفار وقتله . ومملك البلاد . مؤسساً لأسرته إماراة في طبرستان وخرججان جنوبي بحر قزوین أو كما يسمى بحر الخزر . ومدّ أطراف إمارته

(١) راجع في الدولة الزيارية الآثار الباقية للبيروني (الأندلس بيروت) ٨٢/٤ وما بعدها . وإيران ماضيها وحاضرها ص ٥٣ وآدم ميتز ص ٢٦ وبراون في مواضع متفرقة من كتابه : تاريخ الأدب في إيران من العردوسي إلى السعدي ترجمة الشواربي .

(١) راجع في الدولة الزيارية الآثار الباقية للبيروني وتكملة تاريخ الطبري لفهمداني (طبع بيروت) وتاريخ ابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون وابن تقي بردي في مواضع متفرقة ومروج ذهب للمسعودي (طبعة دار

جنوباً وغرباً ، حتى الرىّ وأصفهان وهمدان وأرمينية وأذربيجان وخوزستان ، واتخذ أصفهان حاضرة لإمارته . وكان فيه عتو شديد ، وكان شعوبياً شديداً الكراهية للعروبة ، فرغم - فيما زعم - أنه سيستعيد مجد دولة العجم ويبطل دولة العرب فلا تقوم لها قائمة ، ووعد شيعته بالمسير إلى بغداد والقبض على الخليفة وتوليتهم ديار الإسلام ومدنه . وسأل عن تيجان الفرس فثقلت له هيئتها ، فاختر هبة تاج كسرى أنوشروان ، وأمر بأن يصنع له على مثاله تاج من الذهب محلىّ بالجواهر ، ووضّع له عرش من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة . وكان يبطن المجوسية ، ولعله من أجل ذلك كان يحتفل بأعيادها احتفالات عظيمة ، واشتهر احتفال له بعيد ليلة الوقود المسمى بعيد السّدق ، وفيها كانوا يوقدون ناراً كثيرة . وقد أمر في تلك الليلة بأن تُجمّع الأحطاب من أنحاء إمارته إلى حضرته أصفهان ، ونصّبها على التلال والجبال حولها وأشعلها وأشعل معها شموعاً عظيمة أتخذت لها تماثيل وأساطين ضخمة . وتمادى في بغيه وعتوه تمادياً شديداً ، حتى أوغر صدور بعض غلمانه ، ففتكوا به في الحمام سنة ٣٢٣ للهجرة ، ونهبوا خزائنه وأمواله . ويقال إن الديلم حزنوا عليه حزناً شديداً ، جعلهم يمشون حفاة أربعة فراسخ وراء تابوته .

ومرّ بنا في حديثنا عن الدولة البويهية أن قائده على بن بويه استولى عقب وفاته على أصفهان والرى وأن بلدانا كثيرة أخذت تسقط في يده ويد أخويه إلا ما كان من طبرستان وجرّجان ، فإنها ظلّتا في يد خلفاء مرداويج الزياريين . وقد خلفه أخوه وشمكير (٣٢٣ - ٣٥٦ هـ) . ويقال إنه ركب فرساً وشبّ وهو غافل عنه ، فسقط ميتاً . وخلفه ابنه قابوس (٣٥٦ - ٤٠٣ هـ) . وكان كاتباً وشاعراً ، وما زال البويهيون يُغيرون عليه حتى قرّر من إمارته عام ٣٧١ إلى السامانيين ، وعاش عندهم مكرّماً حتى عام ٣٨٨ وفيه استرد ملكه . ويقال إنه عتّى وبغى ، واشتد بغيه وعتوه ، فأجمعت حاشيته على خلعها ، واضطرت ابنه منوچهر (٤٠٣ - ٤٢٦ هـ) أن ينزل على إرادتها ، وحُجس قابوس في إحدى القلاع حتى مات من شدة البرد . وظل منوچهر يرسل بالأموال إلى محمود الغزنوى استرضاء له ، وطلبه سنة ٤٢٠ فأوغل في البلاد متحصناً منه بجبال وعرة ، وتركه محمود ولم يلبث أن توفي فخلفه ابنه أنوشروان (٤٢٦ - ٤٣٠ هـ) . ومن يده استولى مسعود بن محمود الغزنوى على الإمارة ، كأن لم تكن شيئاً مذكوراً .

الدولة الغزنوية (١)

كانت الدولة السامانية تستعين في جيوشها بكثير من الترك وبذلك هيأت لهم - كما هيأ العباسيون من قبل - أن يصبح كثير من الوظائف المدنية بأيديهم ، وأن يصلوا إلى رتب القيادة في الجيش ، وأن يقوّضوها نهائيا بحيث تصبح أثرا بعد عين . وكان من آثار ذلك قيام الدولة الغزنوية ، فإن عبد الملك بن نوح الساماني (٣٤٣-٣٥٠ هـ) كان قد عين مملوكه التركي : ألبتكين قائدا عاما ، حتى إذا توفى عبد الملك مضى إلى غزنة بأفغانستان ، وأعلن نفسه أميرا عليها ، وعاجلته المنية ، فخلفه ابنه إسحق ، غير أنه لم يلبث أن توفى فقام عليها مملوك أبيه سُبُكْتِكِين (٣٦٦-٣٨٧ هـ) . وهو المؤسس الأول للدولة الغزنوية ، وقد بدأ أعماله بالاستيلاء على مدينة بُسْت في أفغانستان بمنطقة سِجِسْتَان القديمة ، وغنم فيها غنم منها الكتاب الفذّ أبا الفتح البستي ، وكان يكتب لأمرها المغلوب ، فأصبح كاتباً للدولة الجديدة . وأخذ سُبُكْتِكِين يغزو الهند . وسقط كثير من قلاعها في يده ، وجرّد حملتين كبيرتين للحرب ملك البنجاب المسمى جِيَال ، وأرغمه على الطاعة والصلح على أموال طائلة ، وأن يتخلّى له عن إقليم كابل في شرق أفغانستان ، وكان يُشرف على الطرق المؤدية إلى السهل الهندي الخصب . واستعاث به نوح بن منصور في سنة ٣٨٤ ضد الثائرين عليه ، فنكّل بهم ، مما جعله يلقبه بناصر الدولة ، ويولى ابنه محمودا على خراسان ويلقبه بسيف الدولة .

وتوفى سُبُكْتِكِين ، فخلفه ابنه إسماعيل بعهد منه ، وكان ضعيفا ، فطلب إليه أخوه محمود أن يتنازل له عن الحكم لتلك الدولة المترامية الأطراف ، وكان محمود لا يزال واليا للسامانيين على خراسان ، وأبى إسماعيل ذلك إباء شديدا ، فسار محمود على رأس جيش إلى غزنة وهزم أخاه واضطره إلى إعلان تنازله . ومحمود الغزنوي (٣٨٧-٤٢١ هـ) أكبر أمراء هذه الدولة وأبعدهم صيتا لمدّة أطنابها شرقا وغربا وشمالا ، ولنهضته بالعلوم والآداب في عصره نهضة واسعة . وكان مثل أبيه وأسرته والأترك جميعا سنيّا ، ولعل ذلك ما جعله يضطهد الشيعة ، وخاصة الغلاة منهم ، واضطهد أيضا المعتزلة لأنه كان

الفردوسي إلى السعدي ليراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي في أماكن متعددة وإيران ماضيها وحاضرها ص ٥٤ ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٦٦ .

(١) انظر في الدولة الغزنوية الآثار الباقية للبيروني وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون وابن تغري بردي وكتاب تاريخ الجبني للعتبي مع شرح المشي (طبعة القاهرة) في مواضع متفرقة وكذلك تاريخ الأدب في إيران من

على مذهب أهل السنة^(١) . وكان الأمير منصور بن نوح الثاني الساماني قد انتَهز فرصة مبارحته لخراسان لحرب أخيه ، فولَّى عليها أحد أتباعه ، وتطورت الأمور ، كما مرَّ بنا في حديثنا عن السامانيين ، بسقوطهم واستيلاء محمود على ديارهم ، واعترف محمود اعترافاً كاملاً بالسلطة الروحية للخليفة العباسي ، مما جعله يخلع عليه لقب : « يمين الدولة وأمين الملة » . ويذهب براون إلى أنه لقب نفسه بلقب « ظل الله في أرضه » وكان يتلقب بلقب السلطان وهو أول من تلقب بهذا اللقب في الإسلام . واتسع سلطانه حتى شمل إمارة خوارزم الصغرى والكُرج (جورجيا) وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية غير مبق للبوهميين سوى كُرمَان وفارس .

ويشتهر محمود بكثرة حروبه وفتوحه في الهند وتمكينه للدين الحنيف في ديارها . وهو يُعدُّ فاتحها الحقيقي ، أما فتح محمد بن القاسم الثقفي لها في عهد الوليد بن عبد الملك فيُعدُّ غزواً أكثر منه فتحاً حقيقياً ، ومما فتحه في الهند المُلتان وكشمير والبُنجاب . وكان يتبغى بفتوحه هناك نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله لا طلب المغنم ، كما يزعم بعض المستشرقين . واستغل أموال هذه الفتوح الطائلة في عمارة غزنة ومدن سلطته وبناء المساجد الفخمة وفي إحداث نهضة كبيرة علمية وأدبية ، وفيه يقول الفردوسي مصوراً استثنائه بقلوب شعبه وعظمة شأنه وملكه : « عند ما يُقْطَم الصبي ويتوقف جريان لبن أمه على شفثيه يكون أول ما ينطق به ويمجى على الشفتين لفظ محمود . إنه كالقيل بجسده ومثل جبريل بروحه ، أما كفه فزن هاضل ، وأما قلبه فنهز الليل بجرياته . إنه السلطان والملك الكبير الشأن ، الذي جعل الشاة تنهل مع الذئب من حوض واحد في أمان » .

وعهد محمود من بعده لابنه محمد . وكان ابنه الأكبر مسعود غائباً بأصفهان ، فأحفظه هذا العهد بعد وفاة أبيه ، واشتبك مع أخيه في حروب كُتب له فيها النصر ، وأصبح هو صاحب الدولة (٤٢١ - ٤٣٢ هـ) . وفتح - كما مرَّ بنا - جُرجان وصَبْرستان ، وقضى على الدولة الزيارية . وكانت أمواج السلاجقة بدأت في مدّها ، ولم يستطع وقفها ، فقد هُزم أمامها في عام ٤٣١ مما جعل رجال الدولة يعزلونه ويولون أخاه محمداً مكانه ثانية ، وسرعان ما قتلوه وولوا مسعوداً مكانه . وقتلوه بدوره ، وولوا مكانه ابنه مودوداً . ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى هزمه في إثرها السلاجقة بخراسان هزيمة ساحقة فتركها لهم ولقائدهم « طغرلُوك » . وأخذ نجم هذه الدولة في الأفول ، فانسحب سلاطينها من إيران مكثفين بغزنة وبما وراءها من ديار الهند ، ومن أهمهم إبراهيم المتوفى سنة ٤٩٣ وكان حازماً

(١) في المتظم ٤٠/٨ أنه أمر بحرق كتب المعتزلة والفلاسفة والروافض .

عادلا بعيد الهمة ، وخلفه ابنه مسعود الثالث (٤٩٣-٥٠٨ هـ .) وتولى بعده ثلاثة من أولاده متعاقبين هم شيرزاد المتوفى سنة ٥٠٩ وأرسلان المتوفى سنة ٥١٢ وبهرامشاه (٥١٢-٥٤٧ هـ .) واضطره السلطان السلجوق سنجر سنة ٥٣٠ إلى الدخول في طاعته ، ودفع إتاوة له صاغرا . وفي سنة ٥٤٢ رأى بهرامشاه بسوء تدبيره أن يقتل صهره الأمير الغوري قطب الدين محمد ، وكان ذلك نذير شؤم باندلاع الحروب بين الغوريين والدولة الغزنوية ، ومازالوا يعصفون بهم حتى اضطروهم في سنة ٥٥٧ إلى الانسحاب نهائيا إلى عاصمتهم في الهند «لاهور» وتعقبوهم هناك حتى قضوا عليهم بتلك الديار سنة ٥٨٢ للهجرة .

٢

دول متعاقبة

انتهى حوالى منتصف القرن الخامس للهجرة عصر الدول المتعاقبة في إيران التي كانت تتوزعها فيما بينها والتي كثيرا ما تحاربت وعاشت في خصام ، وقد أخذت تحمل محلها دول متعاقبة ، كانت كل منها تجمع شمل إيران وتنتشر على بلدانها لواءً واحداً . وكان لكل دولة من هذه الدول عصرها التاريخي ، وجدير بنا أن نلم بها في إيجاز .

دولة السلاجقة^(١)

السلاجقة طائفة من قبائل الترك المعروفين باسم الأوغوز ، ويسميه مؤرخو العرب الغز تخفيفا ، ونرى اسمهم يتردد بين هؤلاء المؤرخين منذ أواخر القرن الرابع الهجري ، وهم ينسبون إلى رئيسهم سلجوق وقد نزل بهم قريبا من بحر الخزر (بحر قزوين) في الهضاب المتصلة بنهرى سيجون وجيجون متخذة مدينة «جند» حاضرة له . وأخذت بعض جموعه تنزل فيما وراء النهر وتمتد إلى القرب من بخارى في خراسان . وكانوا يعتقدون المذهب السني ، وكانوا بدؤا فاعتمدوا على الوزراء في حكمهم ، وأخذ شأنهم يعظم ، مما جعل محمودا الغزنوي يتنبه لهم ، خوفا من استيلائهم على بعض دياره في خراسان . وكان سلجوق قد توفى وخلفه ابنه إسرائيل ، فكاتبه محمود وزين له أن يقدم عليه . وما كاد يلقاه حتى قبض عليه وزجَّ به في غياهب السجون ، وظل سجينا بإحدى قلاع الهند حتى

(١) انظر في السلاجقة المصادر المذكورة في الفصل الأول من قسم العراق .

توفي سنة ٤٢٢ . وكان محمود قد توفي قبله ، وصمم السلاجقة بقيادة طغرل بك على الانتقام ، فاشتبكوا مع مسعود الغزنوي في سلسلة حروب انتهت باستيلائهم على خراسان في سنة ٤٢٩ وحاول مسعود أن يسترجعها ، ولكنه هُزم هزائم متوالية في الستين التاليين ، وأعلن طغرل بك نفسه ملكا على البلاد ، كما مرَّ في قسم العراق . ومضى يستولى على ما كان بيد الغزنويين من إيران الوسطى والجنوبية ، واستولى على طبرستان وجرجان وبلاد الجبل . واعترف الخليفة « القائم بأمر الله » بتلك الدولة السنية الناشئة وأمر بأن يذكر اسم طغرل بك في الخطبة وأن يُضرب اسمه على النقود . وقضى طغرل بك على البويهيين نهائيا - كما مر بنا في قسم العراق - ودخل بغداد في سنة ٤٤٧ في موكب رسمي ، وأجلسه الخليفة معه على العرش - كما مر بنا - وخلع عليه الخلع السنية وكان يقوم بالترجمة بينهما وزير طغرل بك محمد بن منصور الكندري . واتخذ طغرل بك مدينة الري حاضرة له ، وولى على البلدان إخوته وأبناءهم ، ودانت له العراق كما دانت له إيران ، وكان وزيره الكندري هو الذي يصرف الأمور في دولته الواسعة وكان أدبيا شاعرا ، وكان يظهر التسنن غير أنه كان في حقيقته معتزليا .

وتوفي طغرل بك سنة ٤٥٥ وخلفه - كما مر بنا في قسم العراق - ابن أخيه « ألب أرسلان » وكان له أخ يسمى سليمان ، حاول الوزير الكندري أن ينصبه على العرش من دونه ، فلما استولى ألب أرسلان على صولجان السلطنة قبض على الكندري ، وأرسل به إلى مرو ، واستبقاه بها سنة ثم أمر بقتله . وكان ألب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ) بطلا مغوار قضى على كل من ثاروا عليه ، سواء في هراة أو فيما وراء النهر أو في فارس وكرمان . وخصَّد شوكة الفاطميين مستوليا منهم على حلب ودمشق ومكة والمدينة . وأعد الروم له جيشا كثيفا قوامه مائتا ألف رجل يتقدمهم الإمبراطور البيزنطي « ديوجينيس رومانوس » فأسرع إليهم في خمسة عشر ألفا من صفوة جنوده ، والتقى بهم بالقرب من مدينة خلاط في أرمينية ، وعصفت جنوده - كما مرَّ بنا في قسم العراق - بهذا الجيش الضخم مُتزلة به هزيمة ساحقة ، استسلم على إثرها الإمبراطور خاسئا ذليلا ، ونزل على الشروط التي طلبها ألب أرسلان ومنها أداء مليون دينار فدية لنفسه وعقد معاهدة لمدة خمسين عاما يتعهد فيها الإمبراطور أن تكون جيوشه على استعداد دائم لمعونة ألب أرسلان وأن يجرم جميع أسرى المسلمين . وبينما كان يحارب الترك عند نهري جيحون منزلا بهم هزائم متوالية وافتاء القدر . وكان يدبرُّ له هذه السلطنة المترامية الأطراف وزيره نظام الملك ، وكان من أعظم رجال الإدارة والسياسة ، وكان عدوا للرافضة والإسماعيلية سني العقيدة ، واشتهر - كما مرَّ

بنا في قسم العراق - بتأسيسه للمدرسة النظامية ببغداد التي أحدثت بها نهضة علمية واسعة ، وأسس على غرارها مدارس اشتهرت باسمها في أصفهان ومرو ونيسابور وبلخ وهرة وطبرستان ، وعمل على تشجيع الشعراء والأدباء وألغى كثيرا من الضرائب التي كانت ترهق الشعب ، وكان أشعريا شافعيا ، فازدهر المذهبان الشافعي والأشعري لعهدده . وخلف ألب أرسلان - كما مر في قسم العراق - ابنه ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) وكان في الثامنة عشرة من عمره فأدار له دولته الوزير نظام الملك إدارة حسنة ، وكان ملكشاه يُعجب بأصفهان ويقيم فيها أكثر أيامه ، وخرج عليه بعض أقربائه ، ولكنه انتصر عليهم جميعا . وأمر في سنة ٤٦٧ ببناء المرصد العظيم الذي وضع فيه عمر الخيام وجاعة من العلماء التويم الجلالي ويرجع تاريخه إلى عيد النيروز في سنة ٤٧٢ . وكانت جيوشه ماتى غادية راتحة ، واستولت على كثير من مدن ما وراء النهر وفي مقدمتها سمرقند ، وبلغ من خوف إمبراطور بيزنطة منه أن أرسل إليه وهو في مدينة « كاشغر » النائية الجزية المفروضة على بلاده . ومما يدل على ما وصلت إليه إمبراطوريته الواسعة من علو الشأن أن أصحاب السفن الصغيرة الذين عبروا به وبجيشه إلى الضفة المقابلة لهم من نهري جيحون أخذوا أجرتهم صكوكا تدفع لهم في أنطاكية بديار الشام حتى يروا مدى اتساع السلطنة . ويقال إنه ركب جواده على شاطئ اللاذقية ، وخاض به البحر شاكرًا ربّه على ما أنعم به عليه من هذا الملك الواسع الذي امتد من بلاد التتار والصين إلى ديار الشام على البحر المتوسط ، وعنى بحفر الآبار في طريق الحجاج وتخفيف الضرائب عنهم . ودسّ خصوم نظام الملك له عنده ، فأعقاه من الوزارة ، ولم تلبث أن امتدت إليه يد أحد الإسماعيليين أعدائه في الظلام ، فطعمته طعنة نجلاء كانت سببا في وفاته سنة ٤٨٥ . ولم يلبث ملكشاه أن توفي بعده بشهر واحد . وبذلك ينتهي - كما مر بنا في قسم العراق - عهد السلاجقة العظام .

وقام بالسلطنة بعد ملكشاه ابنه بركياروق أكبر أولاده (٤٨٥ - ٤٩٨ هـ) . ولقب بركن الدولة ، وخالفه عمه تئش صاحب دمشق وأخوه محمد صاحب أذربيجان ، وله معها وقائع كُتب له فيها النصر ، وكان يتعقب الباطنية الإسماعيلية - كما أسلفنا في قسم العراق - وقتل منهم في بعض السنوات مئات ، وخلفه أخوه محمد (٤٩٨ - ٥١١ هـ) . ومضى مثله يتعقب الإسماعيلية ويستولى على حصونهم ، وتولى السلطنة بعده ابنه محمود (٥١١ - ٥٢٥ هـ) . وكان شديد الحمق ، فحارب عمه سينجر أمير خراسان المغوار ودارت عليه الدوائر ، غير أن عمه عفا عنه وولاه العراق . وامتد حكم سنجر أربعين سنة (٥١٣ - ٥٥١ هـ) . واستقل عنه في سنة ٥٣٥ ملك خوارزم أتميز ، وحاربه الترك في سنة

٥٣٦ واستولوا منه على مرو ونيسابور وسرخس ، وحاربه العز في سنة ٥٤٨ وأسروه ، وظل في أيديهم إلى أن هرب سنة ٥٥١ ولم يلبث أن قضى نحبه . واشتهر في هذه الدولة أربعة من سلاجقة كرمان هم توران شاه المتوفى سنة ٤٩١ وابنه إيران شاه المتوفى سنة ٤٩٥ وأرسلان شاه المتوفى سنة ٥٣٧ وابنه مغيث الدين محمد المتوفى سنة ٥٥١ وقد تجزأت الإمبراطورية السلجوقية في سرعة شديدة ، حتى فقد الأمراء سلطانهم ، وحتى استبد بهم في كل بلد نوابهم المسمون باسم الأتابكة .

الدولة الخوارزمية^(١)

مؤسس هذه الدولة أحد ممالك السلطان ملكشاه . وهو أنوشتكين ، حين جعله هذا السلطان واليا على خوارزم سنة ٤٧٠ فأسس بها دولة ملوك خوارزم أو خوارزمشاه ، واستطاع خلفاؤه أن يتخلصوا من كل صلة تربطهم بالسلاجقة ، ومن أهم ملوكهم أنبزر (٥٢١ - ٥٥١ هـ .) وله وقائع مع سنجر السلجوقي ، وتمكن أحيانا من الاستيلاء على مرو ونيسابور ، ويقترن باسمه كاتبه المشهور رشيد الدين الوطواط . وقد تمكن من جاءوا بعده من القضاء على سلطان السلاجقة في إيران وفرض سيطرتهم عليها ، وخاصة الأجزاء الشمالية ، وكان آخرهم جلال الدين منكبرتي الذي صمد صمودا باهرا للغزو التتاري من سنة ٦١٧ إلى سنة ٦٢٩ حين استسلم ولكن بعد نضال عظيم .

الدولة المغولية

المغول قبائل رحل كانت تنزل في قلب آسيا على حدود الصين في الإقليم المسمى منغوليا ، وكانت تعيش على الرعي والصيد ، واستطاع جنكيزخان أن يجمع شمل هذه القبائل ويفتح بها بلاد الصين - كما مر في القسم الخاص بالعراق - ثم يغيرها على مملكة خوارزم ويقبض هذه المملكة ، كما أغار بها على خراسان ، وامتدت سيولها تجرف كل ما أمامها حتى الرى وهمدان ، منزلة فظائع وحشية ، وحق يقول ابن الأثير في حوادث سنة ٦١٧ إن فتوح التتار في بلاد الإسلام أعظم مصيبة حلت بالعالم . وامتدت أيام جنكيزخان في إيران

العصر العباسي الأخير للدكتور بدرى محمد فهد (طبع بغداد) والشرق الإسلامي قبيل العرو المعوق لحافظ حمدى (طبع القاهرة) وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون

(١) انظر في الدولة الخوارزمية ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لاسن تفرى بردى وريدة البصرة للبدارى (مختصر تاريخ دولة آل سلجوق للعلاء الأصبهاني) وذيل الروضتين لأبى شامة في مواضع متفرقة وسيرة السلطان حلال الدين منكبرتي للنسوى . وراجع تاريخ العراق في

من سنة ٦١٦ إلى سنة ٦٢٥ وهى السنة التى قضى نخبه فيها بالصين بعد أن حكم المغول اثنين وعشرين عاما . واجتمع أمراء المغول بعد وفاته من البلاد الشاسعة التى افتتحوها فى الصين وما وراء النهر وخراسان وإيران وخوازم ، واتفقوا جميعا على أن يتولى بعده ابنته أوكدى (أوكتاى) (٦٢٥ - ٦٣٩ هـ) . واتخذت عاصمة له قراقورم وأخضع لحكمه - كما مررنا فى قسم العراق - أوروبا الشرقية : روسيا وبولندا ، ونكلت جيوشه بالناس فيها تنكيلا شديداً على نحو ما نكلت جيوش أبيه بالإيرانيين والصينيين ، ويقال إن آذان ضحاياها فى بولنده بلغت مائتين وسبعين ألفا . وحين توفى خلفه ابنه كيوك وظل يدير هذه الدولة المترامية الأطراف حتى وفاته سنة ٦٤٦ وخلفه ابن عمه منكو سنة ٦٤٩ فأرسل أخاه هولاكو إلى إيران فعمل على الاستقلال بها مع تبعيته لأخيه هو وأبنائه ، وأخذ يوطد حكمه بها منذ سنة ٦٥٤ بادئا باستنزال الإسماعيلية الملقبين بالحشاشين من معانهم فى «ألموت» وغيرها والقضاء عليهم قضاء نهائيا . ولم يلبث أن أرسل إنذارا إلى الخليفة «المستعصم بالله» أن يسلم نفسه إليه ويعطيه مفاتيح مدينة بغداد . وتقدم إليها فى سنة ٦٥٦ فاكسحها كما مررنا فى الحديث عن العراق ، بعد حصار دام نحو شهر وقتل فيه هو وجنوده - كما يقول المؤرخون - نحو مليون من سكانها ، وقتلوا الخليفة وأكثر أهله - كما مررنا فى قسم العراق - وحرقوا قصوره . ونهبت البلدة وما كان بها من الكتب ، وكان ذلك إيذانا بدمار الحركة العلمية فيها وأقول نَجْمُهَا .

الدلة المغولية^(١) الأيلخانية

اتخذ هولاكو لقب إيل خان (تابع الخان) وهو اللقب الذى ورثه عنه خلفاؤه من بيته على إيران والعراق مما جعل دولتهم فيها - تسمى دولة الأيلخانيين ، وأرسل فى سنة ٦٥٨ جيشا كثيفا للاستيلاء على سوريا ومصر - كما مررنا فى قسم العراق - واستولى على أكثر البلاد السورية ، غير أن جيش مصر الباسل بقيادة قُطْرُ والظاهر بيبرس تصدى للمغول فى عين جالوت بفلسطين وهزمهم هزيمة ساحقة ، وتعقبهم فى سوريا حتى ردهم عنها إلى العراق وما وراءه . وتوفى هولاكو فى عام ٦٦٤ للهجرة ، فخلفه ابنه أبغا (٦٦٦ - ٦٨٠ هـ) . وقد وجه إلى سوريا حملات باءت كلها بالإخفاق الذريع أمام الجيوش المصرية . إذ كانت دائما تنزل بها ضربات قاصمة . وأخذت من حينئذ تنقسم الصلوات التى كانت تربط الأيلخانيين فى إيران بأباطرة المغول فى (قراقورم) . وبموت أبغا ينتهى العهد الوثنى للمغول

(١) راجع فى الدولة المغولية الأيلخانية المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق .

وحكامهم فإن خلفه بوكدار أخاه اعتنق الدين الحنيف ، ولم يُمضَ في الحكم سوى عام واحد ، إذ قتلته يد آئمة . وولى بعده أخوه أرغون (٦٨١ - ٦٩٢) وفي عهده حظى المسيحيون النسطوريون بعطف واسع ، وخلفه أخوه كيختوُلدة سنتين ، ثم يَدُو وقُتل مريعا . وولى بعده - كما مر في قسم العراق - غازان (٦٩٣ - ٧٠٣) الذي أتاح لدولة الإيلخانيين في إيران والعراق عهدا ذهبيا عظيما ، إذ اعتنق الإسلام وعمل على نشره بين المغول نشرا واسعا ، وعُني بأن تصبح تبريز عاصمته من أجمل المدن الإسلامية ، وقد بنى فيها رباطا وبهارستانا ومدارس دينية ومرصدا كبيرا ومكتبة فخمة ، وأقام لأصحاب العلوم والفنون ضاحية مؤلفة من ثلاثين ألف بيت لعلماء الدين والفقهاء والمحدثين والقراء والأساتذة والطلاب . وخلفه أخوه خُدايَندا سنة ٧٠٣ واهتم مثله بنهضة العلوم والفنون ، واتخذ عاصمة له مدينة بناها بالقرب من قزوین سماها السلطانية ، واحتفل في بنائها والاهتمام بها احتفالا واسعا . وتوفي سنة ٧١٦ وتولى بعده ابنه بوسعيد حتى سنة ٧٣٦ للهجرة ، وكان في الثانية عشرة من عمره ، فلم يستطع ضبط البلاد ، وأخذ أبناء عمومته يتناحرون على الولايات والبلدان ، وكونوا دويلات صغيرة ، كان من أقواها الدولة المظفرية في كرمان التي استطاعت أن تبسط نفوذها على فارس والجزء الجنوبي من إيران . وتظل البلاد في فوضى نحو نصف قرن من الزمان ، إلى أن يغزو تيمورلنك إيران والبلاد العربية .

الدولة المغولية التيمورية^(١) وما تلاها من الدول

مؤسس هذه الدولة تيمورلنك المولود - كما مر في قسم العراق - في كَش من أعمال ما وراء النهر بالقرب من سَمَرَقند سنة ٧٣٦ للهجرة ، وهو من سلالة جنكيزخان ، كان أبوه واليا لكش ونواحيها ، واستطاع تيمورلنك بذكائه وشجاعته أن يستميل حكام ما وراء النهر ، فيقربوه منهم ويستوزروه في بعض الأحيان . وما زال يعمل على أن يجمع زمام السلطة في يده - كما مر في قسم العراق - حتى غدا الحاكم الوحيد لإقليم ما وراء النهر جميعه سنة ٧٧١ للهجرة ، ومدَّ سلطانه إلى خراسان في سنة ٧٨٢ واستولى على مازندران وسجستان وجرجان في سنة ٧٨٤ ولم يلبث في سنة ٧٨٨ - كما مر في قسم العراق - أن استولى على فارس وأذربيجان . وبدأ منذ سنة ٧٩٥ ما يعرف بحرب السنوات الخمس ، فأغار على

(١) ٨٢٥/٢ إيران ماضيها وحاضرها للدونالد ولر ص ٧٦

وما بعدها .

(٢) انظر في الدولة المغولية التيمورية المصادر المذكورة

في الفصل الأول من قسم العراق . وانظر في الدول التالية

تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٢٠ وفيليب حتى

أقاليم الخزر وآسية الصغرى واستولى على الرها وتكرت وآمد وحاصر بغداد - كما مر في قسم العراق - سنة ٧٩٥ هـ ، وسار في سنة ٨٠١ إلى الهند وعبر نهر السند واستولى على دلهي . ثم اتجه شرقا في سنة ٨٠٣ فاستولى على سيواس وملطية في آسية الصغرى ، ودخل ديار الشام ، واستولى على حلب وحماة وحمص وبعليك ودمشق . ولم يفكر في متابعة حملاته إلى الجنوب حتى مصر ، وكان ذكرى هزيمة أسلافه التتار في عين جالوت أمام المصريين كانت لاتزال ماثلة نصب عينيه ، ويستولى على بغداد . ويتجه إلى آسية الصغرى في سنة ٨٠٤ وتدور رحى حرب طاحنة بينه وبين العثمانيين بقيادة بايزيد ويهزمون هزيمة ساحقة . ويعود تيمورلنك إلى عاصمته سمرقند سنة ٨٠٧ ويعدّ حملة كبيرة على الصين ، وتسير الحملة في وجهتها ، غير أن أجله يوافيه . فيتوفى عن واحد وسبعين عاما بعد أن حكم هذه الإمبراطورية الضخمة سنا وثلاثين سنة . وقد ملأ سمرقند بالعائر الفخمة ، وضرىحه فيها آية من آيات العارة الرائعة . وكانت فتوحاته أقل بقاء وأقصر عمرا من فتوحات جنكيزخان وخلفائه ، فمجرد أن مات رجعت سوريا وآسية الصغرى إلى حكامها الأصليين .

وتوزع ابناه : شاه رخ وميران شاه إمبراطوريته - كما مر في قسم العراق - فكان شرطها الشرق الشامل لإيران من نصيب شاه رخ ، بينما كانت العراق وأذربيجان والقوقاز من نصيب ميران شاه . وتوفى سنة ٨١٠ فضم نصيبه شاه رخ إلى سلطانه . وكان يتخذ هراة بأفغانستان عاصمة له إلى أن توفى سنة ٨٥١ للهجرة . وخلفه ابنه ألغ بك (٨٥١ - ٨٥٣ هـ) . وكان راعيا كبيرا للفن والأدب الفارسيين . وولى بعده بوسعيد (٨٥٤ - ٨٧٤ هـ) . وكان سلطانه وطيدا في دياره إلى حدود الهند . وأعقبه حسين بايقرا (٨٧٤ - ٩٠٢ هـ) وفي عهده أصبحت سمرقند مركزا مهما من مراكز الثقافة الإسلامية . ولم تلبث هذه النهضة أن توقفت فإن قبيلة أوربك التركمانية بقيادة زعيمها شيباني قضت على التيموريين في الشرق ، وفر آخر حكامهم سنة ٩٠٦ إلى الهند وأسس هناك دولة المغول العظام . وكانت قبيلة قرايوسف التركمانية قد استولت على غربي إيران ، واتخذت تبريز عاصمة لها . ولم يلبث قرايوسف أن استولى على العراق سنة ٨١٣ وظل التركان يحكمونه هو وغربي إيران كما مر بنا في قسم العراق حتى ظهر إسماعيل الصفوي (٩٠٧ - ٩٣٠ هـ) واستولى على إيران جميعها وأسس بها دولة جديدة هي الدولة الصفوية . وفي قسم العراق حديث عنه وعن دولته أكثر تفصيلاً ، وكانت تمتد شرقاً إلى هراة وغرباً حتى شملت العراق جميعه . وجعل دولته دولة إيرانية قومية ، متخذة العقيدة الإمامية الشيعية عقيدتها الرسمية ، مما دفعه هو وخلفاؤه إلى الاشتباك في حروب متوالية مع الترك العثمانيين الستين . وظل حكم الدولة

الصفوية في إيران نحو مائة وأربعين عاماً ، وخلفهم عليها الأفغانيون ، وجاء في إثرهم الأفشاريون ثم الزنديون ، وخلفهم القاجاريون في أواخر القرن الثاني عشر وظلوا نحو مائة وثلاثين عاماً وفي كل هذه الحقب وخاصة منذ حكم الصفويين خمد النشاط الأدبي العربي في إيران خموداً تاماً .

٣

المجتمع

كان يتكون المجتمع الإيراني في هذا العصر من ثلاث طبقات : طبقة عليا ، تتضمن الأمراء الحكّام والوزراء والقادة والولاة على البلدان وكبار رجال الدولة والإقطاعيين ، وطبقة وسطى تتضمن موظفي الدواوين وأوساط التجار والصناع ورجال الحسبة والقضاء ، وطبقة دنيا تتضمن العامة من أصحاب الحرف ومن الزراعة والحدم والرقيق ، ويدخل أهل الذمة في الطبقتين الأخيرتين بحسب أعمالهم .

وكانت الطبقة الأولى منعمة مترفة ترفاً واسعاً ، وكان في أعلى درجاتها الأمراء الحكام الذين دانت لهم رقاب العباد ، وصُبَّتْ الأموال التي تُعَدُّ بالملايين في خزائنها ، وكانت مصادرها متعددة ، إذ كانوا يجمعون الضرائب من الناس : ضرائب الأرض ، وكان لها نظام خاص هو نظام الزكاة الإسلامي . وكان لها في كل مدينة ديوان هو ديوان الخراج ، وهو بمثابة خزانة مالية للدولة أو الإمارة ، وكانت أعطيات الجند ونفقات البلدة تؤخذ منه ، ويُحْمَلُ ما يتبقّى إلى ديوان الخراج أو بيت المال في حاضرة الدولة ، وهناك ينفقه الأمير على الجيش وحاجات الإمارة . وما بقي منه يصبح رهن حياته المترفة في القصر دون رقيب . ويجانب ضرائب الأرض كانت هناك ضرائب كثيرة على الصادرات وعلى بعض الواردات من الرقيق ومن عروض التجارة . ولا بد أن نلاحظ كثرة الحروب في العصر وأن إمارات بحالها كانت تنكسح أحياناً وتدخل في سلطان هذا الحاكم البويهي مثلاً أو الحاكم الغزنوي أو الساماني أو السلجوقي ، وحينئذ تكتظ خزائن هذا المحارب المنتصر بالأموال الطائلة . وظل ذلك طوال العصر بل تفاقم في عهد التتار ومن تلاهم . وكان يتبع الإمارة عادة كثير من الضياع وكانت ثمارها جميعها تعود إلى الأمير وخزائنه . وكثرت في تلك العصور مصادرة أموال الوزراء حين يُعزَّلون أو يموتون ، وكذلك الكتاب والعمال ، فكانت أموالهم وإقطاعاتهم وضياعهم تصبح ملكاً للدولة .

ولعل في ذلك ما يوضح كيف أن الأموال في خزائن الأمراء أو على الأقل في خزائن

بعضهم كانت تُكّال كيلاً ، وأيضاً ما يوضح النصوص التي نقرأها في كتب التاريخ عن تركات بعض هؤلاء الأمراء وما أنفقوه أحياناً في أعراسهم أو أعراس أبنائهم وفي بناء قصورهم ، فمن ذلك ما يُروى عن فخر الدولة البويهى صاحب همدان والجبل والدينور وجرجان من أنه خلّف حين مات مليونى دينار وثمانمائة وخمسة وسبعين ألفاً ومائتين وأربعة وثمانين ، كما خلف من الجواهر واليواقيت واللاّلى ما قيمته ثلاثة ملايين دينار ، ومن الفضة ما وزنه ثلاثة ملايين . ومن الثياب ثلاثة آلاف حمل^(١) . أما أخوه مؤيد الدولة فيروى أنه أنفق في عرس زواجه من ابنة عمه معز الدولة السيدة زبيدة سبعمائة ألف دينار^(٢) . أموال كانت تسيل إلى خزائنه من إمارته الإيرانية في الرى وأصفهان لا يعرف لها قيمة ، ولذلك يندرها ويتلفها حسب هواه . وعظم شأن أخيها عضد الدولة ، فخضعت لسلطانه البلاد الممتدة من بحر قزوين إلى جنوبي إيران وحتى العراق وعمان مما جعله يتلقب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة في الإسلام ، وكان دخله - فيما يُروى - ثلاثمائة وخمسة وعشرين مليوناً من الدراهم ، وقيل بل كان اثنين وثلاثين مليوناً من الدينار ومائة ألف درهم^(٣) . وكان عضد الدولة بدوره ينفق الملايين على بدّخه ، وخير ما يصور ذلك قصره الذى بناه بشيراز ، فقد رآه المقدسى بعد موته بفترة قليلة ، وبُعث حين رآه ، وفي ذلك يقول : «بنى عضد الدولة بشيراز داراً لم أر في شرق ولا غرب مثلها ، ما دخلها عامى إلا افتتن بها ، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها . شقّ فيها الأنهار ونصب عليها القباب ، وأحاطها بالبساتين والأشجار ، وحفر فيها الحياض ، وجمع فيها المرافق والعدد . وسمعت رئيس الفراشين يقول : فيها ثلاثمائة وستون حجرة ، كان مجلسه كل يوم في واحدة إلى الحول . . وطُفّت فيها ورأيت الأنهار تطرد في البيوت والأروقة . وأظنه بناها على ما سمع من أخبار الجنة ، ويان بوّناً بعيداً وصلّ ضلالاً ميبناً»^(٤) .

وهذا القصر صورة من صور الترف المفرط ، فالأمير لا يريد أن يجلس بيته في حجرة مهيأة لجلوسه كل يوم ، بل يريد أن تتغير ، بحيث لا يعود إليها إلا في عام تال ، وكأن الحجر في القصر أصبحت كأزيائه ، فهو يبدّلها كل يوم ، وطبعاً لا يهيمه الشعب الكادح وراء هذا القصر ولا تهمة مصالحه ، وإن كان عضد الدولة قد اشتهر بضبطه الأمن والنظام في ربوع إمارته الواسعة ، كما اشتهر بعنايته بالثقافة والعلم والعلماء ، ولكن لاشك أنه كان

(١) النجوم الزاهرة ٤/١٩٧ وتلنظم ٧/١٩٨ . (٤) أحسن التقاسيم للمقدسى (طبع ليدن) ص ٤٤٩ .

(٢) المتلنظم ٧/١٢٢ . ونظر في قصر بناء فخر الدولة بمرجان اليتيمة ٣/٢٧١ .

(٣) المتلنظم ٧/١١٦ .

يُفرق نفسه في الترف والنعيم .

وعلى شاكلة هؤلاء الأمراء البويهيين كان الأمراء السامانيون والزياريون ، فقد كان الأمير دائماً يعدُّ الإمارة ضيعةً له ، ولعل أميراً لم يحز من الأموال ما حازه محمود الغزنوي من غنائمه في الهند ، فقد ظل ينازل الهنود مدة أربع وعشرين سنة ، وهو يمدُّ حدود إمارته حتى شملت كشمير والشمال الغربي من الهند ، وفي أثناء ذلك غنم غنائم لا تحصى . ويكفي أن نذكر من غنائمه ما أخذه من معبد سومنات الذي كان يحج إليه الهنود الوثنيون ، وسومنات اسم الصنم الكبير فيه وكان مرصعاً بالجواهر والحجارة الكريمة ، وكان إلى جواره ست وخمسون سارية صفائحها من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة ، وكان يحيط بهيكله ألوف من التماثيل الذهبية والفضية . ويُحصى العُتبي في كتابه اليميني هذه الذخائر وما بماثلها مما يخرج عن طوق الخيال ^(١) . وقد أتاحت لمحمود أن يشيد جامعه العظيم بغزنة وأن يحدث نهضة علمية وأدبية في إمارته النائية ، كما أتاحت له ولأبنائه وأحفاده ثروة هائلة توارثتها الأجيال ، غير ما كان يُجسبي لهم سنويا من تلك الديار .

وبالمثل كان السلاجقة يمتلكون في خزائهم الأموال الطائلة ، وقد اتسعت مملكتهم اتساعاً كبيراً ، حتى لقد كانت تمتد في عهد ألب أرسلان من أقصى حدود ما وراء النهر إلى أقصى حدود الشام ، وكانت له حروب وفتوحات كثيرة غنم منها مغام شتى ، من أهمها حروبه مع البيزنطيين في آسيا الصغرى وقد وقع بإحدى المعارك في أسره إمبراطورهم «ديوجينيس رومانوس» وافتدى نفسه بمليون دينار - كما مر بنا - ودفع له الجزية صاغراً . ويذكر ابن الأثير أنه زوّج ابنته من الخليفة المتقي وهو لا يزال ولي عهد وأنه نثر على الناس ليلة زفافها جواهر كريمة كانوا يلتقطونها في دهشة وعجب كبير ^(٢) . ويقال إن خراج خلفه ملكشاه بلغ عشرين مليون دينار ^(٣) . ويُروى أنه حين غلب سنجر السلجوقي صاحب خراسان على غزنة عام ٥٠٨ وقعت في أيديه وأيدي أصحابه أموال لا تعد ولا تحصى وكان في جملة ما استولى عليه خمسة تيجان قيمة الواحد منها تزيد على مليونين من الدنانير ، واستولى أيضاً على ألف وثلاثمائة قطعة مصاغ مرصعة وسبعة عشر سريراً من الذهب والفضة ^(٤) . وكان السلطان محمود السلجوقي مبدراً متلفاً . وأتلف فيما أتلفه ما ورثه من

(١) اليميني للعتبي ٩٩/٢ وانظر في غنائمه من البويهيين البهيات مائة ألف دينار (ابن الأثير ١٠٥/٩ المتظم ٤٠/٨) .

(٢) ابن الأثير (تحقيق إحسان عباس - طبع دار صادر المتظم ٧/٩) .

(٣) (٤) ابن الأثير ١٠٥/٧٠ - ٧١ وكان صدقات الأميرات بيروا) .

أموال كانت محفوظة بجزائن الدولة ، وكانت ثمانية عشر مليوناً من الدينار^(١) . واحترقت له دار في سنة ٥١٥ واحترق فيها لزوجته «ملاحد له من الجواهر والحلي والفرش والثياب ، وأقيم الغسالون يخلّصون الذهب ما أمكن تخليصه ، وهلك الجوهر جميعه إلا الياقوت الأحمر^(٢)» .

وهذه أخبار متناثرة في كتب التاريخ تدل بوضوح على معيشة الأمراء الذين كانوا يحكمون إيران وكيف أنهم كانوا يفرقون إلى آذانهم في الترف والنعيم ، غير حاسبين للشعب حساباً . ومثلهم كان الوزراء وقد تعلقوا في هذا العصر بالألقاب وتعددها منذ أوائله حتى لنجد أبا بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ يشكو من ذلك شكوى مرة^(٣) . وكان الوزير يتولى الإشراف على مالية الإمارة ووجوه جمعها وإنفاقها ، وكان يقود الجيوش بنفسه ، على نحو ما كان وزيراً بئى بويه : ابن العميد والصاحب بن عباد ووزير السلاجقة نظام الملك ، واتخذ عضد الدولة البويهى وزيرين أحدهما كان نصرانياً هو نصر بن هرون وكان له النظر في شئون فارس . وكان الوزير يتقاضى مرتباً ضخماً ، جعله يحيط نفسه بمظاهر الفخامة الثامة ، متخذاً لنفسه حرساً كبيراً كان يُعدُّ بالعشرات وأحياناً بالآلاف^(٤) ، فكان إذا سار برز للناس في موكب باهر من الحراس . وكان أمراؤهم لا يكتفون بما يعطونهم من مرتبات جزيلة فقد كانوا يضيفون إليها كثيراً من الضياع والإقطاعات ، بحيث يعظم دخل الوزير ويعيش في ترف بالغ . وهياهم ذلك لينوا القصور الباذخة ، على نحو ما يحدثنا الثعالبي في كتابه البيّمة عن قصر بناه ابن العميد^(٥) ، وقصر آخر بناه الصاحب بن عباد في أصبهان تبارى شعراؤه في وصفه بالقصائد الطوال^(٦) ، وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليلى رمضان من ألف نفس تُقَطَّرُ فيها ، وكانت صلواته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يُطْلَقُ منها في جميع شهور السنة^(٧) . وكان الوزراء يتأنقون في ملابسهم ، ولم يقف تأنقهم عند أنفسهم ، فقد كانوا يطلبونه في خدمتهم وحواشيهم وكل ما يتصل بهم من ملابس ومطاعم ، ومن طريف ما يروى من ذلك ما ذكره الثعالبي عن الصاحب بن عباد من أنه كان يعجبه الخبز (الحرير) ويأمر بالاستكثار منه في داره ، وألمَّ به

- (١) زبدة النصرة للبندارى مختصر تاريخ دولة آل (٤) ابن الأثير ١٠/١٣١ .
 سلحوق للعاد الأصهباني (طبع ليدن) ص ١٤٦ . (٥) البيّمة ٣/١٥٨ .
 (٢) ابن الأثير ١٠/٥٩٤ . (٦) البيّمة ٣/٢٠٣ وانظر وصفهم لقصر آخر له في
 (٣) البيّمة للثعالبي (طبعة محمد محي الدين حرجان البيّمة ٤/٣٦ .
 عبد الحميد) ٤/٢٣٠ . (٧) البيّمة ٣/١٩٣ .

أبو القاسم الرعفراني الشاعر يوماً ، فرأى جميع من حوله من الخدم والحاشية يلبسون الخبز الفاخرة الملونة ، فأشده على البديهة (١) .

كسوتَ المقيمين والزائرين كسَى لم يُحَلِّ مثلها ممكنا
وحاشيةُ الدار يمشون في ضروبٍ من الخبزِ إلا أنا

وكان صاحب يكثر من إهداء الخلع إلى زواره ، كما يشير أبو القاسم فما إن سمع بقوله . حتى أمر له من الخبزِ بجةً وقيص ودُرَاعَة وسراويل وعمامة ومنديل ومُطْرَف (ثوب) ورداء وجورب . وكان الولاة مثل الوزراء يحيطون أنفسهم بهذا الجو المترف ، فكانوا يبنون القصور ذات الأواوين الضخمة ، ويروى أن أبا جعفر والى سجستان تأتق في قصر بناه لنفسه كان مكتوباً في صدر إيوانه (٢) :

من سرّه أن يرى الفردوس عاجلةً فليُنظِرِ اليوم في بُنيانِ إيوانِ
أوسرّه أن يرى رِضوانٍ عن كُتُبٍ بملء عينيه فليُنظِرِ إلى الباني

وبالمثل كان كبار الموظفين في الدواوين وغير الدواوين يعيشون معيشة مترفة كلها زينة وأناقة ، سواء أكانوا متصلين بأعمال الخراج وأموال الدولة أو غير متصلين . ويبدو أن الكتاب كانوا من أكثر هؤلاء الموظفين عناية بأناقتهم . ويلاحظ ذلك على كتاب السامانيين العبدونيُّ الشاعر فينشد (٣) :

أُكْتَابَ دِيوانِ الرِسايلِ ما لكم تجمَلْتُمُ بل مُتَمُّ بالتجملِ
وكان كبار القضاة يدخلون في هذه الطبقة لما يتقاضون من رواتب عالية ومثلهم أصحاب المظالم . وكان للقواد مكانة كبيرة ، وكأنا كانوا يشركون الأمراء في إماراتهم فأوسعوا عليهم في الرواتب والأرزاق . ونستطيع أن نقول بصفة عامة إن كل المتصرفين في أعمال الدولة كانوا يعيشون معيشة بذخ على حساب الشعب الكادح ، فلهم القصور ولديهم الأموال والخلع التي يهبونها للشعراء والناس . وكان كثير منهم يشعر باستعلاء على أبناء الأمة ناسياً أنه يعيش من عرق جيبيهم ، ويشكو شاعر من هذا الاستعلاء البغيض قائلاً (٤) :

أَكُلُّ مَنْ كان له نعمةٌ أوسعُ من نعمةِ إخوانِهِ
أم كلُّ من كان له جوسقٌ مشرفٌ شيد بأركانِهِ (٥)

(١) بيمة ١٩١/٣ .

(٢) الجوسق : القصر .

(٣) بيمة ١٩١/٣ .

(٤) بيمة ٣٣٨/٤ .

(٥) بيمة ٧٧/٤ .

أم كلُّ من كان له كسوةٌ يبدؤها في بعض أحيائه
يُرى بها مستكبراً تائباً على أدانيه وخالئاً

ويلحق بهذه الطبقة بل يأتي في مقدمتها الإقطاعيون أصحاب الإقطاعات الواسعة التي كان يُعقدونها الأمراء على الحواشي من الوزراء والقواد والقضاة والولاة وغيرهم من أفراد الأمة . وكان النظام الإقطاعي معروفاً في إيران قبل الإسلام ، وبما ساعد عليه اختلاف أصقاعها وبتباعها بين قلاع صحرية وصحار وسهول . وأخذ هذا النظام يعود منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كنا في هذا العصر نفاقم أمره . حتى ليقول المقدسي في القرن الرابع إن أكثر الضياع بفارس مقطعة ^(١) . وظل ذلك بعد عصر بني بويه . بل لقد اتسع في عصر السلاجقة وأيام نظام الملك وزيرهم . فإنه لما اتسعت مملكة السلاجقة رأى أن يسلم القرى إلى مجموعة من الإقطاعيين : قرية أو أكثر أو أقل ، كل على قدر إقطاعه ^(٢) . وعُرف بجانب الإقطاع في هذا العصر نظام الضمان ، وأعدَّ بدوره لظهور طبقة أخرى من الرأسماليين ، إذ كان يضمن خراج الضياع وأحياناً القرى . بل أحياناً الولايات ، شخص يفرض على نفسه ما لا يؤديه عنها . ويأخذ لنفسه أضعافه . وكثيراً ما كان هؤلاء الضامنون أصحاب الخراج أنفسهم ، إذ تحولوا بدورهم إلى إقطاعيين وأصحاب ضياع واسعة . وكل ذلك معناه أنه كانت هناك طبقة كبيرة تملك الإقطاعات والضياع الكثيرة معتصرة دماء الشعب ، وكان حسبُ الشخص ضبعة واحدة ليكون ثريا ، وصور ذلك المعاني بن هزيم شاعر أبيورد قائلاً ^(٣) .

كفنتي ضبعتي مدح العبادِ وطفناً في البلاد بغير زادِ
غدتُ سكتي وخادمي وطرثري وفيها أسرقى وبها تِلادى
صديقُ المرء ضبعتهُ وكم من صديقي في الصداقة مستزادِ
يخونك في المودة من تواخي ومالك لا يخونك في الودادِ

وكان الأبناء يتوارثون عن آبائهم هذه الضياع والإقطاعات ، مما أعدَّ لنشوء طبقة أرستقراطية واسعة ، كانت تفق عن سعة . وكان كثير منها جواداً مدحاً ، ويلقانا ذلك

(١) أحسن التقاسيم للمقدسي ص ٤٢١ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي (طبعة محمود الطنحلي) وعبد الفتاح الحلو نشر مكتبة عيسى البابي الحلبي

(٣) ٣١٧/٤ وبلغ من ثراء بعض الإقطاعيين في العصر السلجوقي أن ترى في همدان زيدا الحسني العنوي يدفع إلى

السلطان محمد لسجوق سبعمائة ألف دينار دون أن يبيع من أجلها ملكاً أو يستدين ديناراً (ابن الأثير ٤٧٤/١٠) .

(٣) بتيمة ١٣٢/٤ والظفر: الرضعة .

بوضوح في كتب تراجم الشعراء مثل البيهقي ودمية القصر والخريدة ، إذ نجد عشرات الأسماء المجهولة تُمدَّحُ أمداحاً كثيرة ، وحقا قال بشار :

يسقط الظيرُ حيث يَنْتثرُ الحَبُّ وتُعشى منازلُ الكرماءِ

وكان ذلك سبباً في أن نلتقي بكثيرين من رعاة الشعر والشعراء في كل بلدة .

وكانت الطبقة الوسطى تتألف من عناصر كثيرة ، في مقدمتها القضاة والفقهاء وعلماء العربية وكان لكثيرين منهم رواتب يُقدِّرها الأمراء أو وزراءؤهم . ويدخل في هذه الطبقة عمال الحسبة والبريد ودواوين الجيش والشهود الذين كان القضاة يقيمونهم للشهادة ، فقد أصبح مثلهم مثل العمال الثابتين ، وكانوا دائماً موضعاً للشكوى وفيهم يقول أبو عبد الله الخوزي ^(١) :

وَيْلٌ لِمَنْ عَدَّه القاضى واللَّهُ عنه ليس بالراضى

تَمْضَى القضايا بشهادته وهو إلى النار عَدَاً ماضى

ويتنظم في هذه الطبقة الصناع وأوساط التجار أما كبارهم فكانوا ذوى رءوس أموالٍ ضخمة ، وعدادهم لذلك في الطبقة السابقة . ومن العناصر المهمة في هذه الطبقة الشعراء الذين كان يُقدق عليهم أفراد الطبقة الرفيعة الأموال والعطايا ، ومثلهم المغنون والمغنيات ، ودائماً نلقاهم في كل بلاط وفي كل قصر ، فقد كان الشعب من كبيره إلى صغيره مولعاً بالغناء .

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية ، وهي التي كانت تعمل في الصناعات والتجارات الصغيرة وفي خدمة أرباب القصور ، وكانت أشبه بالعبيد وخاصة من كان منها يعمل في فلاحة الأرض إذ لا يكاد يجد ما يسدُّه رفق ، وليست هناك مهنة إلا عملت فيها هذه الطبقة حتى أحقر المهن . وكانت حياتها كلها عرقاً وعنتاً ومشقة لكي تملأ الطبقة العليا في الإمارات بطونها وتكتظ قصورها بأدوات الترف واللهو والطرب .

وكان وراء تلك الطبقات أهل الذمة من المجوس والنصارى واليهود ، وكان المجوس في أوائل هذا العصر كثيرين في إيران وخاصة في قلاعها البعيدة ، ويروى أنه وقعت في شيراز لسنة ٣٦٩ للهجرة فتنه بينهم وبين المسلمين ^(٢) ، ولم تكن الحكومات تتدخل في شعائرهم ولا في شعائر النصارى واليهود ، وكان لهم محاكمهم الخاصة التي تفصل بينهم في خصوماتهم ، وكانوا يدفعون، نظير ما يتمتعون به من تسامح واسع ، الجزية ، وكانت أشبه بضريبة للدفاع الوطني إذ لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، ولم تكن تؤديها

(٢) ابن الأثير في سنة ٣٦٩ .

(١) بيهقي ٤٢١/٣ .

النساء ولا الرهبان ولا ذوو العاهات ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس . وكانت لا تتجاوز الدينار لعامتهم ودينارين لمتوسطى الثراء وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء الطائل ، وكانت تبلغ قيمة الدينار نحو اثني عشر درهماً . وكانت أبواب العمل لهم مفتوحة ، وكان أكثر الأطباء وكثير من الكتبة نصارى . وكان علي بن بويه ركن الدولة يستخدم كاتباً نصرانياً^(١) ، بل لقد اتخذ عضد الدولة كما قدمنا وزيراً نصرانياً ، وكان اليهود يعملون في أحقر المهن ، فكان منهم الصباغون والأساكفة والحزازون . وكانت تفتن الطبقتان العليا والوسطى في المنبس والمطعم ، فكانوا يلبسون الدراريح وهي ثياب مشقوفة من الصدر كما كانوا يلبسون الأقيية والسراويل والخلل المطرزة . وكانوا يلبسون الخنز صيفاً والفرء والصوف شتاء كما كانوا يلبسون الجوارب القطنية والصوفية والحريرية . وكانت النساء حرائر وجوارى أكثر تفتناً في أناقتهن ، فكان يلبس الإستبرق والسُّدس والوشى ، وكن يتحلين بالجواهر النفيسة من كل صنف ، وكن يتعطرن بأنواع الطيب والمسك والغالية .

ومضوا يتفنون في المطاعم ، فكانوا يصنعون منها ألواناً كثيرة وخاصة في بيوت الأمراء والوزراء ، مما جعل كثيرين يُعنون بالتأليف في كتب الأطعمة ، مثل ابن مسكويه ، الذى أحكم كتابه فيها غاية الإحكام وأتى منه بكل غريب حسن^(٢) ، ومثل ابن خلاد القاضى الذى أهدى إلى ابن العميد كتاباً فى الأطعمة ، فأجابه بقصيدة طويلة عدّد فيها كثيراً من أنواعها التى ذكرها فى كتابه^(٣) . وعرفوا حينئذ توالى ألوان الطعام على المائدة بين وضع ورفع . وكانت تقدم أحياناً قبل الطعام وأحياناً بعده الفاكهة والحلوى من كل صنف . وكانوا يكتثون بعد الطعام للسمر والشراب وسماع الغناء ، وكانوا يستطيعون ذكر الفكاهات والنوادر والحكايات الدالة على اللباقة فى أثناء سمرهم ومنادمتهم على الشراب . ومن قديم تفتن الخمر بالغناء فى إيران ، حتى ليروى صاحب الشهنامة فى تربية قورش الملك الإيرانى القديم صورة مجلس شراب وغناء كان قورش يشترك فيه بنفسه ساقياً ، وكانما كانت الخمر والغناء إحدى شعائر الفرس منذ أقدم العصور^(٤) ، وطبعى أن يظل ذلك ديدنهم حتى هذا العصر ، بحيث يشترك فى المتاع بهما الأمراء من مثل فخر الدولة^(٥)

(١) فارس (الترجمة العربية) ص ٢٦٣ .

(١) ابن مسكويه ٤٦٤/٥ .

(٥) ابن مسكويه ٣٨٦/٦ وانظر فى عضد الدولة

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ٣٣٢ .

ومجالس شرابه البيهية ٢١٨/١ وابن الأثير (طبعة دار

(٣) بيهية ١٦٨/٣ .

صادر - بيروت) ٢٠/٩ .

(٤) انظر الشاهنامه نشر د. عزام ٣١٣/١ وترات

والوزراء من مثل أبي الفتح بن العميد^(١) والقضاة من مثل القاضي أبي أحمد منصور الهروي^(٢) . وكانوا ينثرون الورود في قاعات الشراب^(٣) . وكان يجيئ بعضهم بعضاً بالورود والرياحين والفواكه في أثناء الشرب ، يقول عبّدان الأصبهاني^(٤) :

سَقَيْتُ وفي كَفِّ الحَيِيَّةِ وردةً وَأُترَجَةٌ تُغْرِى النفسَ بِصَوْنِهَا
مُدَاماً فلما قابلتني بوجهها شربتُ فحيتني بلونى ولونها

ويبلغ من تفضي الغناء والرقص في فارس أن نجد عضد الدولة يفرض ضريبة فيها على المغنيات والراقصات^(٥) . وأكبر الظن أن إيران جميعها كان يشيع فيها ذلك بصورة مختلفة ، وكانت أكبر فرصة تتاح لناس كى يقصفوا ويمجنوا ما شاء لهم الجون والقصف هي الاحتفالات بالأعياد^(٦) المسيحية من مثل عيد الميلاد وعيد الزيتونة وعيد الشعانين ، وفي العيد الأخير يقول أحمد بن المثلث مشيراً إلى ما كان فيه من لهو وموسيقى وغناء^(٧) :

سَقِيّاً لدهرٍ مضى إذ نحن في شُغْلٍ بالعَرَفِ والقَصْفِ عن شُغْلِ السَّلَاطِينِ
إذ يومنا يومٌ عيدٍ طول مدتنا وَلَيْلِنَا كُنْهَ لَيْلِ الشَّعَانِينِ

وكانوا يُطلقون لأنفسهم العنان في الأعياد الموسوية من مثل عيد السّدق . وهو عيد لاشتعال النيران ، وكان يقع في شهر يناير من كل عام ، ويصور البيهقي في تاريخه الاحتفال به في سنة ٤٢٦ . فيقول : « اقترِب عيد السّدق . فأخذوا يجمعون له الطّرفاء وعيدان الحطب ، حتى تراكمت وأصبحت كالقنعة . وأقاموا عرائس من الخشب صارت كالجلجل ارتفاعاً ، وأتوا بكثير من المعدادات والطيور ومايلزم هذا العيد من الحاجيات ، وحلّ العيد وجلس السلطان في مخيم له ، وجاء الندماء والمطربون وأشعلوا النيران ، وكانت تُرى على بعد عشرة فراسخ ، وأطلقوا الطيور المبللة بالنفط وكذلك الوحوش ، فكانت تجرى وقد علقَت بها النيران^(٨) . وكان أهم من هذا العيد عيد الثّوروز في أول الربيع ، وكان موسماً كبيراً للمجون والشراب . ومثله عيد المهرجان في السادس والعشرين من أكتوبر كل عام . ويقول البيهقي : « كان السلطان يجلس له صباحاً للمعايدة . . ويجمع أعيان الدولة

- (١) ابن الأثير ٦٧٦، ٨
(٢) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربي بالقاهرة)
(٣) البيهقي ص ٢٧٩
(٤) البيهقي ص ٢١٥
(٥) البيهقي ص ٢٤٤، ٣
(٦) البيهقي ص ٢٤٤، ٣
(٧) البيهقي ص ٢٤٤، ٣
(٨) تاريخ البيهقي (الترجمة العربية - نشر مكتبة
(٥) مقدسي ص ٤٤١ وتحقيق مالهد من مقولة الأجلو ص ٤٧٠ - ٤٧١

والأمراء ومجلس الندماء ، ويبادرون إلى اللهو ، وتدور أقذاح الشراب ، وتعزف آلات الطرب ، ويأخذ المغنون في الغناء»^(١) .

وكانوا يخرجون مواكب وفرادى للصيد والطرده ، وكان فخر الدولة البويهى مولعاً بالصيد^(٢) . ومثله ملكشاه السلجوقى ، ويقال إن صيده بلغ فى بعض الأيام سبعين غزالاً^(٣) . وكان من أحب هواياتهم إليهم النعب بالثرد والشطرنج ، وكانوا يشغفون بلعب الصولجان والكرة وبسماع الغناء . ومما يدل على انتشار كل هذه الملاهى فى خراسان وإيران عامة أن نجد كيكائوس فى القرن الخامس الهجرى يفرده فى كتابه : «قابوسنامه»^(٤) «فصولاً مختلفة لكل هذه الألعاب والملاهى ، وظل ذلك ديدنهم طوال العصور التالية .

٤

الشيعة^(٥)

يقوم التشيع - كما مر بنا فى قسم العراق - على أساس نظرية يؤمن أصحابها بالوراثة الشرعية لولاية الحكم على المسلمين أوعبارة أخرى للخلافة ، فهى ليست مفوضة للأمة ، بل هى خاصة بمن اختارهم الله من آل البيت ، من الأئمة ، ويسمى كل منهم إماماً تفرقه بينه وبين اسم الخليفة للدلالة على مكانته الدينية . وتتفق الشيعة على أن الرسول ﷺ أوصى العلى بن أبى طالب بالخلافة بالقرب من غدیرخُجَم بين مكة والمدنية . وهم فرق كثيرة ، أهمها ثلاثة : الزيدية والإمامية الاثنا عشرية والإسماعيلية .

والزيدية - كما مر بنا فى قسم العراق - أقربهم إلى أهل السنة . وهم ينتسبون إلى إمامهم زيد بن على بن زين العابدين بن الحسين ، وكانوا يُقَرَّبون ولاية الخلفاء من غير العلويين أخذاً بمبدئهم القائل بأنه تجوز ولاية المفضول على المسلمين مع وجود العلوى الأفضل ، وبذلك لم يطعنوا فى الصحابين الجليلين : أبى بكر وعمر ولا فى ولايتها أمور الأمة . وكانوا لا يأخذون بنظرية الإمام المحتفى مثل الإمامية الاثني عشرية ، ولا بنظرية

(١) النيبى فى سنة ٤٢٧ ص ٥٣٩ .

(٢) ابن مسكويه ٦/٣٨٦ .

(٣) براون (ترجمة الشواربى) ص ٢٢٨ .

(٤) ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونشرته مكتبة الأجلو (الإسماعيلية) للعرالى واعتقادات فرق المسلمين والمشرىكين

للعصر الرازى وبراون (ترجمة لشواربى) فى مواضع

(٥) بنجاب مصادر التشيع المذكورة فى الفصل الأول من متفرقة .

الإمام المستور مثل الإسماعيلية ، وهم لا يأخذون بفكرة العصمة في الإمام ولا بفكرة العلم الباطن ولا بفكرة أن الإمامة مقصورة على فرع الحسين وحده من العلويين دون فرع الحسن . وبذلك كانت الزيدية فرقة شيعية معتدلة .

ومرّ بنا في قسم العراق حديث مفصّل عن فرقة الإمامية الاثني عشرية وأنها تجعل الإمامة مقصورة على أبناء الحسين . وترى أنها تتابعت بعد علي في الحسن ثم الحسين وذريته بادئة بابنه علي زين العابدين ، فابنه محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق . وتفترق بعد هذا الإمام السادس فرقة الإمامية عن فرقة الإسماعيلية كما مرّ بنا في العراق ، إذ ترى أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم ، وتوالت بعده في أبنائه وأحفاده : علي الرضا ، فمحمد الجواد ، فعلي الهادي . فالحسن العسكري ، فمحمد المهدي الذي اختفى ، وهو الإمام الثاني عشر ولذلك يسمون الاثني عشرية ، ويؤمن الإمامية حتى اليوم بأنه سيعود ويملا الأرض عدلاً وعلماً ، وهو بذلك الإمام المنتظر صاحب الزمان .

وعنصر أساسي ثان في عقيدة الإمامية عرضنا له في قسم العراق وهو ما يعتقدونه من أن الإمام معصوم ، وهي عصمة ترفعه درجات عن الطبيعة البشرية في اعتقادهم إذ يجعله نقياً من الذنوب بريئاً من العيوب . لا يعتره خطأ . وعنصر أساسي ثالث هو علمه لا العلم الظاهر محسب ، كما يؤمن الزيدية ، بل العلم الباطني الإلهي الذي يتوارثه الأئمة عن النبي والذي ينتقل فيهم من إمام إلى إمام ، بحيث يصبحون هم وحدهم العالمين بالمعاني الحقيقية للقرآن الكريم ، وهو ما فسح عند الإمامية والإسماعيلية أيضاً للتأويل الواسع في آيات الذكر الحكيم .

والإسماعيلية تختتم سلسلة أئمتها الظاهرين بالإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفى قبل أبيه فعدلت عنه الإمامية الاثنا عشرية إلى أخيه موسى الكاظم ، أما الإسماعيلية فتمسكت به لأنه الابن الأكبر لجعفر الصادق وعندهم أن النص على الإمام لا يتغير ، بل يرثه عنه ابنه الأكبر ، حتى لو توفى في حياة أبيه كما توفى إسماعيل ، وتبعه خلفاؤه في سلسلة متصلة ، وهم مستترون مخفون ، حتى آتت الدعوة السرية ثمرتها ، فظهر الإمام في شخص عبید الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا .

وتسمى هذه الفرقة باسم السبعية تمييزاً لها من الإمامية الاثني عشرية ، لأنها تجعل أئمتها يتوالون في حلقات أو أدوار سبعة ، والسابع أعلاهم درجة إذ هو الإمام الناطق المبعوث برسالة تفوق كل رسالة سبقها ، حتى رسالة الرسول ﷺ ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم . وعندهم أن الإمام هو التجلي الأعظم للعقل الكلي ، وفي ذلك ما يؤكد نفوذ

الفلسفة الأفلاطونية إليهم وما يتصل بها من نظريتها المعروفة في الفيض ، وهي النظرية التي بنى عليها إخوان الصفا البصريون فلسفتهم الدينية في موسوعتهم المشهورة . ومن تممة نظريتهم أن العقل الكلي الذي يتجلى في أئمتهم نجلى منذ آدم في الأنبيا ، وهو الذي يسر الكون ويدبره ، وهو ما جعل الحاكم الخليفة الفاطمي الإسماعيلي يعتقد أن التجسد الإلهي تمثّل فيه وأنه خليق بعبادته . ومات مقتولاً ، فادّعى بعض الإسماعيلية حين ذاك أنه يعيش متخفياً ، وأنه سيرجع . وكأن نظرية الرجعة عند الإمامية الاثني عشرية وجدت طريقها إلى الفرقة الإسماعيلية في شخص الحاكم . وكان القرامطة إحدى شعب الإسماعيلية ظنوا من قبل أن محمد بن الإمام السابع إسماعيل سيرجع بعد موته ، وأنه الإمام العائب المنتظر . وواضح أن الإسماعيلية غلت في تشيعها غلواً بعيداً إذ رفعت الأئمة إلى مراتب الآلهة ، حتى لنجد كثيرين من علماء الإسلام ومفكره يسمونهم دهرية زنادقة ، وقد حمل عليهم الغزالي حملات عنيفة في كتابه « فضائح الباطنية » الذي سجل عليهم فيه ضلالهم وخروجهم عن جادة الإسلام ، ولا بد أن نشير إلى أن تابعي هذه الفرقة كانوا يصعدون في سبع مراتب : مرتبة للعامّة ، ثم تعلوها مراتب حتى المرتبة السابعة ، وصاحبها خليق عندهم بأن يكون من الدعاة . ومن حق الإسماعيلي والإمامي جميعاً أن يُخفيا عقيدتهما في البلد الذي يسود فيه خصومها وهو المذهب المعروف عندهما باسم التقيّة ، وقد طبع دعوتها في حقب وأماكن كثيرة بطابع السرية .

وهذه الفرق الشيعية المختلفة كانت على صلة وطيدة منذ أول الأمر بالاعتزال والمعتزلة ، فقد كان زيد بن علي مؤسس فرقة الزيدية تلميذاً لواصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال . وتعاقت منذ العصر العباسي الأول مذهب الإمامية مع الاعتزال في أثناء الجدل الذي كان دائراً بين أعلامها حتى لنجد النظم المعتزلي المشهور يؤمن بنظرية الإمامية الخاصة بعصمة الإمام ، وكان يعاصره ثمامة بن أشرس الذي لعب دوراً كبيراً لعهد المأمون في حمله على أن يكتب إلى الآفاق بتفضيل علي بن أبي طالب على أبي بكر وعمر وجميع الصحابة . ومن يرجع إلى مصنفات الشيعة في عقيدتهم يجدهم يفردون فصولاً طوالاً للحديث عن التوحيد والعدالة ، على غرار ما يصنع المعتزلة . وفي رأينا أن هذه الصلة الوثيقة بين الاعتزال والشيعة هي التي جعلت أهل السنة في العصر ينفرون منه ، ويعتقون المذهب الأشعري .

وكانت إيران في هذا العصر تُعدّ أكبر مركز للتشيع ، وقد مرّت بنا في كتاب العصر العباسي الثاني حركة زيدية قوية غلبت على طبرستان وبلاد الديلم ، وعلى الرغم من إجهاز

الدولة السامانية عليها كما مر بنا في أوائل هذا الفصل ظلت لها هناك بقية ، وظل هناك أئمة يقودونها مثل الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الماروني المتوفى سنة ٤١١ للهجرة . وكان تقلد البويهيين الإماميين لإماراتهم المختلفة في إيران إيذاناً بأن يأخذ المذهب الإمامي طريقة إلى الانتشار ، واشتهرت مدينة « قم » باعتناقها وقد ظل منتشرها بها واعتنقها كثيرون في الحقب التالية . وقِيضَ له كثير من العلماء يعملون على نشره مثل ابن بابويه القمي المتوفى سنة ٣٨١ وقد كان أبوه شيخ الشيعة في مدينة « قم » وخلفه في مشيخته ، وألف كتباً كثيرة في المذهب ، محتجائه ، داعياً إليه ، ومن كتبه المطبوعة في طهران كتب العلل والأحكام وكتاب عقائد الشيعة الإمامية .

وقد نشطت الفرقة الإسماعيلية في إيران منذ أوائل هذا العصر . ويقال إنهم استطاعوا أن يدخلوا في عقيدتهم نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان (٣٠١ - ٣٣٢ هـ) . مما جعل حرسه يضطره إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح ، ويقال أيضاً إن أبا علي بن سيمجور أحد رجالات الدولة في خراسان لأواخر أيامها كان إسماعيلياً ، مما جعل السلطان محموداً الغزنوي يفتك به . ويبدو أن الإسماعيليين جدّوا حينئذ في نشر دعوتهم بإيران ، حتى لنجد محموداً الغزنوي حين يستولى على الري من البويهيين سنة ٤٢٠ يكتب إلى الخليفة العباسي ببغداد خطاباً طويلاً ، يقول فيه ^(١) :

« قد أزال الله عن هذه البقعة أيدي الظلمة ، وطهرها من دعوة الباطنية الكفرة ، والمبتدعة الفجرة . وقد تناهت إلى الحضرة المقدسة حقيقة الحال فيما قصر العبد عليه سعيه واجتهاده من غزو أهل الكفر والفسال وقمّع من نبغ ببلاد خراسان من الفئة الباطنية الفجار . . . وطلعت الرايات بسواد الرّي . . . وخرج الدبالة معترفين بذنوبهم ، شاهدين بالكفر والرفض على نفوسهم ، فرجعنا إلى الفقهاء في تعرّف أحوالهم ، فاتفقوا على أنهم خارجون عن الطاعة وداخلون في أهل الفساد ، فيجب عليهم القتل والقطع والنق على مراتب جناباتهم . واعتقادهم في مذاهبهم لا يعدو ثلاثة أوجه تسود بها الوجوه يوم القيامة : التشيع والرفض والباطن . وذكر هؤلاء الفقهاء أن أكثر القوم لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يعرفون شرائط الإسلام . ولا يميزون بين الحلال والحرام ، بل يجاهرون بالظن وشتم الصحابة ، ويعتقدون ذلك ديانة . . . ويعدون جميع الملل مخاريق الحكماء ، ويعتقدون مذهب الإباحة في الأموال والفروج والدماء . »

والخطاب طويل ، وهو يصور مدى ما داخل العقيدة الإسماعيلية في إيران من فساد ،

حتى كان أصحابها لا يؤذون شعائر الإسلام ، بل كانوا ينكرونه هو وجميع المديانات السماوية جملة . وليس ذلك فحسب ، فقد اختلطت بعقيدتهم العقيدة المزدكية الفارسية القديمة التي أحلَّ صاحبها «مزدك» النساء وأباح الأموال وجعلها شركة للناس ، ودعا إلى العكوف على اللذات والشهوات^(١) . وتمضى بعد عهد محمود الغزنوي ، فوجد الدعوة الإسماعيلية تنشط في إيران طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة ، إذ تعهد لها هناك دعاة مختلفون ، كان يؤيدهم تأييداً قوياً الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) وقد ظل الرئيس الأعلى للإسماعيليين طوال ستين عاماً ، واستطاع أن يسطر سلطانه على واسط وبغداد حاضرة الخلافة العباسية في منتصف القرن الخامس . وقد حاربت الدولة السلجوقية العقيدة الإسماعيلية دون هوادة ، ولكن دعايتها ظلوا منبثين في أنحاء إيران ، مثل ناصر خسرو الأديب الرحالة ، الذي لقبه أتباعه بلقب «حجة خراسان» وقد زار القاهرة سنة ٤٣٧ وأقام بها سبع سنوات ، وعاد إلى وطنه خراسان ، وأخذ يدعو للفاطميين الإسماعيليين بمصر ، غير أن خصومه اضطروه إلى الفرار إلى مرتفعات «سيمجان» . وكان أخطر منه في الدعوة للإسماعيليين الفاطميين أحمد بن عبد الملك بن العطاش الذي نهض بالدعوة في أذربيجان وأصفهان ، وقد استولى بجانب المدينة الأخيرة على حصن منيع يسمى «شاه دز» جعله وكراً لأتباعه ودعوته . وكان أشد منه خطراً الحسن بن الصباح ، وكان عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر ، وتلقن الدعوة عن بعض دعايتها الفاطميين والإيرانيين الذين صحبهم في مدينة الري ، ويقال إنه لقي بها في رمضان سنة ٤٦٤ ابن العطاش وإنه نصحه بالمسير إلى القاهرة حاضرة الخلفاء الفاطميين ليتلقن الدعوة من أربابها وشيوخها المقدمين . ووصل القاهرة سنة ٤٧١ وأسبع المستنصر عليه جوائزه . ويقال إنه سأل من الخليفة بعده ؟ فأجابته ابني نزار الأكبر ، ورجع إلى إيران سنة ٤٧٣ يدعو إلى نزار ، وولَّى المصريون بعد المستنصر ابنة المستعلي ، مما كان سبباً في انقسام الإسماعيلية إلى شعيتين : شعبة غربية تدعو إلى المستعلي وتشمل مصر والشام وشعبة شرقية تشمل إيران وتدعو إلى نزار .

واتسعت دعوة الحسن بن الصباح ، حتى ضمت بين جناحيها كرمات وطرستان والدآمغان وقزوین ، واستطاع الاستيلاء على حصن في غاية المناعة . هو قبة «الموت» سنة ٤٨٣ ومعنى اسمها بلسان الديلم تعليم العقاب ، كأنها ، لعلوها الشاهق ، وكرَّله . وجعله استيلاؤه على هذه القبة يضع لأتباعه خطة محكمة أن يستولوا على مثلها في إيران ،

(١) انظر كتابنا العصر العباسي الأول ص ٨٠ .

فاستولوا على «خالنجان» بالقرب من أصفهان بالإضافة إلى ما كانوا استولوا عليه بجوارها من «شاه دز» واستولوا على «طَبَس» و«قازين» و«تون» و«رُوزن» و«خور» و«خوسَف» في قَهْسْتَان وعلى «شَمَكُوَه» بجوار أبهر ، وعلى «أَسْتُونَاوَنَد» في مازَنْدَرَان ، وعلى «أَرْدَهَن» و«كُرْدَكُوَه» وقلعة الناظر في خوزستان ، وعلى «قلعة الطنبور» بجوار أَرَجَان ، وعلى قلعة «خَلَاَدَخَان» في فارس . وكان تملك الحسن بن الصباح وأتباعه هذه القلاع الحصينة سبباً في أن يشعروا بأن لهم سلطاناً سياسياً ، حتى إذا توفى المستنصر ظلوا يدينون لتزار منفصلين عن الدعوة الفاطمية بمصر ، وكان يطلق عليهم اسم الإسماعيليين الباطنيين والحشاشين . وفي الاسم الأخير ما قد يدل على أن كبارهم - على الأقل - كانوا يعرفون المخدر المعروف باسم الحشيش . ومضوا يدعون سرّاً لعقيدتهم ، وتحولوا إلى جماعات إرهابية تقتل كل من يقف في سبيل دعوتها ، وكان من أهم من قتلوه نظام الملك الوزير السلجوقي المصلح حين تصدى لهم وحاربهم وحاصر قلعتهم «الموت» على نحو ما مررنا في غير هذا الموضوع . ونرى ابن الأثير يذكرهم ويذكر ما كانوا يسفكونه من دماء ويشيرونه من رعب على مر السنين ، من مثل قتلهم لفخر الملك بن نظام الملك ولعبد الرحمن السميرامي الوزير السلجوقي وللفقيه عبد الواحد الروياني في طبرستان والقاضي سعد الهروي في همدان . وكان السلاجقة يردون على هذه الاغتيالات بقتل بعض زعمائهم وأتباعهم ، على نحو ما هو معروف عن قتل ابن عطاش وبعض أتباعه بأصفهان سنة ٤٩٩ وللسلطان سنجر مقتلة عظيمة فيهم سنة ٥٢١ رداً على قتلهم لوزيره معين الملك . وكان الحسن بن الصباح حياً في أيام هذا السلطان ، غير أنه لم يكن يبارح قلعة «الموت» وبها توفى سنة ٥١٨ للهجرة . وخلفه في رئاسة الطائفة كيابزرگ حميد ثم ابنه محمد ، وتبعها دورُ ظهور الأئمة من أحفاد نزار ، إذ ظلت في أيديهم مقاليد السلطان والدعوة : وظل نشاط هؤلاء الحشاشين أو الإسماعيليين الشرقيين ، حتى استطاع المغول في منتصف القرن السابع الهجري ذلكُ حصونهم وقتل آخر أئمتهم ركن الدين خورشاه (٦٥٣ - ٦٥٥ هـ) . وبقتله وتحطيم حصون أتباعه ينتهى عهد الإسماعيلية بإيران ، ولا تبقى منهم إلا بقية لا وزن لها ، ويعود هذا الفرع الإسماعيلي الشرقى إلى الظهور في الهند ، ويتخذ أصحابه «آخاخان» رئيساً روحياً لهم ، وعادة يكون من أحفاد ركن الدين خورشاه الذى كان آخر أمراء قلعة «الموت» .

ومنذ قضاء المغول على إسماعيلية إيران تتحول تدريجاً إلى قبضة الفرقة الإمامية الاثنى عشرية ، ومع ذلك فقد ظل كثيرون يتبعون المذهب السنى ، وينعكس ذلك على العلماء

والفقهاء والصوفية لا بين من كانوا يتخذون العربية لسانهم فحسب ، بل أيضاً بين من كانوا يتخذون الفارسية لساناً لهم ، مثل الشيخ سعدى الصوفى المشهور المتوفى سنة ٦٩١ وله شعر عربى قليل . ولا نصل إلى عصر إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية (٩٠٧ - ٩٣٠ هـ) حتى يصبح المذهب الإمامى الاثنى عشرى عاما في إيران إذ أعلنه مذهباً رسمياً للدولة . وبذلك غلب على مذهب أهل السنة هناك حتى اليوم .

ويحتفل الشيعة وفي مقدمتهم الإمامية من قديم - كما مر في العراق - بعيد الغدير ، يريدون غدیر خم^١ ، وموعده الثامن عشر من ذى الحجة ، وهو الغدير الذى يروون أن الرسول ﷺ أوصى عنده لعلى بالخلافة من بعده قائلاً له . أنت منى بمنزلة هرون من موسى ، وهو عندهم عيد سرور يظهرون فيه الفرح والزينة ، وكان أول احتفال لهم به في عهد البويهيين ، وظل ذلك ثابتاً عندهم على مر السنين . أما العيد الثانى فكان مأتماً كبيراً ، يقيمونه يوم عاشوراء (العاشر من شهر المحرم) من كل عام حداداً على قتل الحسين وآله فيه بكرىلاء ، تائبين إلى الله ومستغفرين من آثام هذه الكارثة المروعة . وهذا العيد الحزين أقدم من عيد الغدير بكثير ، حتى ليرجع البيرونى إلى زمن بنى أمية ، قائلاً إن الناس كانوا يظهرون فيه السرور والفرح ، بينما كانت العامة (يقصد الشيعة) تكره فيه تجديد الأواني والثياب^(١) . وقد استحال منذ عهد البويهيين إلى يوم حداد كبير ، يترأى فيه الشيعة بأجسام ضاوية وشفاه ظامئة وعيون ساهمة باكية ، ومن حولهم الشعراء يرثون الحسين رثاء حاراً مصوراً يؤس العلويين وما احتملوا من آلام التقتيل والاضطهاد في أيام الأمويين والعباسيين وما عانوا من صنوف اليأس والعذاب والشقاء ، وكيف كانت حياتهم كلها محناً وبلاء . وصنغ ذلك الحزن العميق في تلك الذكرى الرهيبة شعر الشيعة بسواد لا آخر له ، فكله شكوى ممضة وعبرات وزفرات وآثام .

وكان من آثار إجلال الإمامية الاثنى عشرية لأئمتهم أن أصبح حجهم إلى قبورهم في العراق سنة متبعة ، وأصبح للأماكن والأضرحة التى دفنوا فيها قدسية خاصة عندهم ، مما جعل البويهيين يتمنون بها ، ولعل في هذا الاهتمام منهم ما يدل على أنهم كانوا إمامية دلالة قاطعة ، وكان أول من اهتم بذلك عضد الدولة فإنه شيد ضريحاً كبيراً لقبر على بن أبى طالب بالنجف ، ونقل إليه جثمانه بعد وفاته فدفن به ، كما دفن به أيضاً ابنه شرف الدولة وبهاء الدولة^(٢) . واهتم عضد الدولة أيضاً بضرير الحسين ، وبنى حوله حضرة

(١) الآثار الباقية للبيرونى (طبعة أوربا) ص ٣٢٩ . بيروت) ١٨/٩ ، ٦١ ، ٢٤١ .

(٢) انظر المنتظم ٧/ ١٢٠ وابن الأثير (طبعة دار صادر

جليلة^(١). ولا يزال عيد عاشوراء حتى اليوم مأثماً كبيراً يقام في كل عام ، يقيمه إمامية إيران والعراق .

٥

الزهد والتصوف^(٢)

ظلت نزعة الزهد التي تحدثنا عنها في كتابي العصر العباسي الأول والثاني متغلغلة في نفوس كثيرين من أهل إيران وفقهائهم ومحدثيهم ، وكانت المساجد بيوتاً مفتوحة للعبادة والنسك ، وكان الوعاظ لا يزالون يعظون فيها داعين الناس إلى الزهد في متاع الحياة الفانية وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة . وأقبل كثيرون على حياة التقشف والنسك ، وأقرأ في كتاب للمحدثين مثل تذكرة الحفاظ للذهبي أو في كتاب للفقهاء مثل طبقات الشافعية للسبكي فستجد صوراً قوية للزهد ، وسترى مَنْ ظل صائماً طول حياته ، ومن بلغ من نسكه أن لا يرفع رأسه إلى السماء داعياً ، ومن يدقق في أحكام الشريعة مبالغاً تخرجاً وخوفاً من الله مثل أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني المتوفى سنة ٤٣٨ فقد حكى السبكي في ترجمته أنه بلغ من ورعه ونحرجه أنه لم يكن يستند في داره إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه ولا يدقّ فيه وتدأً وأن جارية أرضعت ابنه إمام الحرمين الفقيه المشهور لبنا وهو في المهد ، فقلبه ، ليرده ، حتى لم يدع في باطنه شيئاً ، قائلاً : هذه الجارية ليست لنا وليس سن حقناً أن نتصرف في شيء من لبنها . ولا ريب في أن كثرة الوعاظ هي التي أعدت - من بعض الوجوه - لسريان هذه الروح المتحرّجة الورعة ، ويتوقف السبكي مراراً في طبقاته ليصور لنا وعظ الوعاظ في نيسابور وغيرها ومدى تأثيره في نفوس السامعين كقوله عن أحدهم : « صار مجلسه روضة الحقائق والدقائق ، وكلماته محرقة الأكباد والقلوب ، ومواجيده مقطرة الدماء من الجفون مكان الدموع ، ومفطرة الصدور

(١) المنتظم ١٤٩/٧ .

العافلين للسمرقندي وطبقات الشرائع . وانظر جولد تسيير في كتابه « العقيدة والشريعة في الإسلام » ونيكلسون في كتابه « في التصوف الإسلامي وتاريخه » ترجمة أبو العلاء عفيف والملايكية والصوفية وأهل الفتوة لعفيف وآدم ميتز في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري .

(٢) راجع في الزهد والتصوف المنتظم وابن الأثير وطبقات الشافعية للسبكي في مواضع متفرقة وكتاب طبقات الصوفية للسلمي وحلية الأولياء لأبي نعيم والفصل في الملل والنحل لابن حزم ورسالة القشيري وإحياء علوم الدين للغزالي وصفة الصوفة لابن الجوزي وقوت القلوب للمكي ومصارع العشاق للسراج وبستان العارفين وتبنيه

بالتخويف والتفريع»^(١).

وأخذت موجة التصوف في العصر تزداد حدة وقوة ، وكان من مظاهر ذلك كثرة الرُّبَط المنظمة منذ القرن الرابع الهجري ، وأصل معنى الرباط مكان مرابطة الخيل للجهاد والحرب ، وكان زوايا المتصوفة كانت تُبنى لهم في هذا التاريخ على حافة قواعد الحرب الأمامية لجهاد أعداء الإسلام . واتسع مدلول الكلمة فيما بعد فأخذت تطلق على زوايا المتصوفة عامة ، وكأنما أصبحت مكاناً لتجمع المجاهدين أينما وجدت . ويقول المقدسي في أواخر القرن الرابع الهجري إنه كان في إسبانيا فيما وراء النهر على حافة الحرب مع الترك ألف وسبعمائة رباط ، بينما كان في بيكند ألف رباط^(٢) ، وهي ثغر جليل بين بخارى ونهر جيحون . وإذا كان هذا العدد الضخم من الرباطات في ثغرين من ثغور الحرب فيما وراء النهر فما بالنا بما كان ببقية الثغور . ويذكر الحجویری الأفغانی أنه لقي ثلثمائة من مشايخ الصوفية بخراسان ولكل منهم طريقته^(٣) .

ويشير المقدسي إلى كثرة الخانقاهات بإيران وما وراء النهر ، وهي بيوت للعبادة كان يتخذها المتصوفة للنسك والإقامة ، وهيات هذه البيوت بسرعة لفكرة الشيخ ومريده ، إذ كان يلزم شيوخ التصوف تلاميذ يأخذون عنهم طريقتهم وينشرونها ، وكانوا يمنحون مريدتهم خرقاً حين يتم قبولهم رمزاً إلى اعتزالهم متاع الحياة ، بل كل الحياة وزخارفها ، وكان ذلك يتم عن طريق مجاهدات كثيرة يقوم بها المريد قبل قبوله ، وفي مقدمتها التجرد الكامل عن ضرورات الحياة ورفض مباحها وتبذُّ متعها وتحمل الآم الفقر والجوع وكل ما يتعلق بالجسد ، حتى الزواج فكان كثير منهم لا يتزوجون ، بل قل إن أكثرهم الغالبة كانت لا تتزوج ، ويحثُّ أبو الليث السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣ كل من يستطيع الاستغناء عن الزواج أن يظل أعزب^(٤) حتى يتجرد لعبادة الله ويتفرغ تفرغاً كاملاً . وحتى المرض ينهني أن لا يهتم به الصوفي فيعرض نفسه على الأطباء للتداوى ، فالطبيب هو الله ، وهو جانب من عقيدتهم في التوكل على الله حق التوكل ، حتى ليهمل الصوفي كل تصرف شخصي ، ويترك نفسه لعناية الله وقضائه ، فلا يفكر في رزقه ولا في قوته ولا في غده ثقة في الله . ودائماً يرددون ذكر الله ، واتسع ذلك عندهم حتى كانوا يعتقدون له اجتماعات تقف بها طائفة منهم في صفين متقابلين ، وهي تذكر الله ، متحركة يجسدها دون أقدامها ميمناً

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٥/٦٩ - العربية - للذكورة إسماعيل عبد الهادي (نشر المجلس الأعلى

للشئون الإسلامية بالقاهرة) ١/٣٩١ . (٢) أحسن التقاسم للمقدسي ٢٧٣ ، ٢٨٢ .

(٣) انظر كشف المحجوب للمهويزي - الترجمة (٤) انظر كتابه بسنان العارفين ص ١٩٧ - ١٩٨

ويسارا، ومنشد ينشد في أعلى الصفيين، وفي أثناء ذلك يهيم نفر منهم ويتششى، حتى ليحس كأنه غاب عن عالم حسه، وهو ما يسمونه بالسكر وكأنما يروى رياً مسكراً بجمال الذات الإلهية، إذ تمتلئ بنور الله نفسه ويسلبها حواسها الجسدية، فتشعر كأنما تتجرد، عن كل إرادة، لمحبوها الرباني، وهو ما يسمونه بالمحبة الإلهية، وكأنما الذكر رحيقها المسكر الذي يذيب الصوفى في الجمال الرباني ويجعله يفنى فيه في وجد لا يخاله وجد. ومنذ الحلاج الذي تحدثنا عنه في العصر العباسي الثاني أخذ بعض المتصوفة يؤمنون مثله بفكرة الاتحاد بالله، معتقدين أنه يتجلى فيهم كما يتجلى في خلقه، وكأنهم يشاهدونه في أنفسهم، أو كأنما يحل فيهم، مما هياً لظهور فكرة الحلول عند بعض الغلاة من المتصوفة، وكانت هذه الأفكار سبباً في أن يحدث شيء من الانقسام بين أهل السنة والمتصوفة ووسّع الهوة بين الطرفين أمثال أبي سعيد بن أبي الخير (٣٥٧ - ٤٤١ هـ). أكبر الصوفيين الإيرانيين المتفلسفين في عصره، وكان يعلى عمل الصوفى بقلبه على أداء فرائض الإسلام وأحكامه، وفي ذلك يقول ابن حزم: «إن من الصوفية من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع... وبلغنا أن بنيسابور اليوم في عصرنا هذا رجلاً يكنى أبا سعيد بن أبي الخير من الصوفية مرة يلبس الصوف، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال، ومرة يصلى في اليوم ألف ركعة، ومرة لا يصلى فريضة ولا نافلة، وهذا كفر محض، ونعوذ بالله من الضلال»^(١). وليس هذا كل ما أحدث الهوة بين المتصوفة وأهل السنة، فقد أوغل بعضهم في آراء ضالة، حتى ليعتق بعض آراء المزدكية في العكوف على الخمر واستحلال المحرم، وغلا بعضهم في تقدير شيوخ الصوفية حتى قدمهم على الرسل والأنبياء، يقول ابن حزم: وطائفة من الصوفية زعمت أن في أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل، وقالوا: من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك، وحلت له المحرمات كلها... وقالوا إننا نرى الله ونكلمه، وكل ما قُذِف في نفوسنا فهو حق»^(٢).

ولم تقف المسألة عند أفراد، فقد أخذت بعض طوائف الصوفية في إيران يضعف عندها الوازع الديني ويشجع عنها إهمال فرائض الإسلام، وسرعان ما تحولوا إلى طوائف من المتسولين، نذكر منهم جماعة الكرامية بخراسان وماوراء النهر، وكانوا، أو قل تحولوا، دراويش يطوفون في البلدان لابسين أردية من الصوف، ومدلّين فوطا على رءوسهم تحيط

(١) الفصل لابن حزم ١٨٨/٤.

(٢) الفصل ٢٢٦/٤.

بها قلانس طويلة ، ويقول المقدسي إنهم لا يخلون من أربع خصال : التقى والعصية والذل والكذب أي التسول^(١) . ومثلهم الملامية ، وكان مبدؤهم الأساسي الملامة ، فالصوفي الكامل في رأيهم من يرتكب أشياء يلومه عليها الناس ، ومن أجل ذلك كانوا يقومون بأعمال ينكرها الشرع ، وقد ينتهكون فيها حرمة ، حتى يتم لهم مبدؤهم ، وأعدوا مثل الكرامية لظهور فكرة الدراويش الرحل الذين يعيشون على التسول ، ويتخذونه ذريعة للبطالة ، وكأنما أصبح الصوفي هو المتسول . ولا بأس من أن يسقط عنه الفروض الدينية أحياناً .

ولم يكن التسول يغضب أهل السنة بمقدار ما كان يغضبهم إنكار فرائض الإسلام وسننه ، مما جعلهم يحملون على المتصوفة حملات شعواء ، متهمين لهم بالزندقة والكفر ، وزاد هذه الحملات اشتعالاً ما وجدوه يتردد على السنة المتصوفة وفي كتبهم من كلام عن السكر والفناء واتحاد الصوفي بالذات الإلهية . ومن الحق أنه كان هناك كثيرون من الصوفية لا يلوكون كلمات الاتحاد بالله ، ويرون أن الصوفي لا يبلغ مرتبة الكمال إلا إذا أدى الفرائض والسنن ، مخلصاً صادقاً . غير أن هؤلاء لم يكونوا موضع الخصومة مع أهل السنة إنما كان موضعها دراويش الملامية والكرامية وأمثال أبي سعيد بن أبي الخير ، ممن أسقطوا فرائض الإسلام وشعائره .

وأخذ هذا الصدع بين الصوفية وأهل السنة يتفاقم ، وكان لا بد أن يُرأب ، حتى لا تنشق الأمة على نفسها انشقاقاً قد يؤول إلى عواقب وخيمة ، فقبض الله لها صوفيين عظاما ، تداركوا هذه الطامة الكبرى كان أولهم أبو نصر السراج^(٢) عبد الله بن علي الطوسي الزاهد صاحب اللمع المتوفى سنة ٣٧٨ وفيه قال أبو عبد الرحمن السلمي تلميذه في كتابه «طبقات الصوفية» : «كان المنظور إليه في ناحيته في الفتوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلوم الشريعة» . فتصوفه لم يكن تصوفاً فلسفياً يتغلغل في الحلول وما إليه ، بل كان تصوفاً سنياً يرتبط بأداء الفرائض الدينية . وكان رحالة تجول في العالم الإسلامي من نيسابور إلى القاهرة ، ووجد على بغداد فأفردت له غرفة خاصة في جامع الشونيزية وأعطى رئاسة الدراويش . ولا تغلر إذا ذهبنا إلى أنه يُعدّ مؤسس مدرسة التصوف السني في عصره ، وهو تصوف يستمد من الكتاب والسنة ، وليس فيه حلول ولا شطحات .

(١) احسن التقاسيم ص ٤١ .

(٢) انظر في أبي نصر السراج الطوسي طبقات الصوفية (التذكارية) .

للعلمي وكشف المحجوب للهجویری وشذرات الذهب

ويوضح مذهبه الصوفي كتابه اللمع الذى أشرنا إليه ، وفيه يفيض فى الحديث عن حقيقة التصوف ومذهب الصوفية ومقاماتهم وأحوالهم . وتلقن عنه المذهب فى نيسابور تلميذه أبو عبد الرحمن السلمى ، ولقنه بدوره عبد الكريم^(١) القشيري النيسابورى ، وتلمذ عبد الكريم أيضاً على أبى على الدقاق . وكان متصوفاً سنياً ، فوصل تلميذه بهذا التصوف ، بل ملأ قلبه به حماسة كما ملأه نفوراً من التصوف الفلسفى وما دخل عليه من أفكار بوذية هندية كفكرة التسول والمسكنة ، وكذلك ما دخل عليه من أفكار الاتحاد بالذات العلية والحلول . وما تُوَافى سنة ٤٣٧ للهجرة حتى يؤلف رسالته المشهورة التى طُوِّفَت الآفاق غرباً وشرقاً وقد وجهها إلى جماعات الصوفية فى البلدان الإسلامية ، ليصحح لهم أفكارهم عن التصوف بما رسمه فيها من مبادئ التصوف السنى الحقيقى وما سجله من سير أعلام التصوف وأقوالهم ، مما يصل التصوف وصلأً وثيقاً بالشرعة ، وهو يستهلها بقوله :

« اندرست الطريقة بالحقيقة ، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء . وقلَّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطُوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحلت عن القلوب حرمة الشرعة ، فعَدَّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات . ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادَّعوا أنهم تحرَّروا من رِقِّ الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه ، وهم مَحَوُّ ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عَنَبٌ ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية » .

وبهذه الرسالة العظيمة التى شرقت وغربت وطارت كل مطار رفع القشيري الحواجز التى كانت قد استحكمت بين أهل السنة والمتصوفة بل لقد أثبت أنها أقواس وهمة ، فالتصوف ليس خصماً للشرعة ، بل هى قوامه وصراطه الموصل إليه وأساسه وعماده . ولم يلبث متصوف كبير أن أحكم هذه الصلة إحصائياً وثيقاً ، وهو أيضاً نيسابورى . أصله طوسى حقا ولكنه تلقن التصوف السنى فى نيسابور حيث مدرسته الكبرى : مدرسة أبى نصر السراج والقشيري ، ونقصد أبا حامد^(٢) الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ . وقد لزم فقهاء

(١) انظر مصادر ترجمة القشيري فى الفصل الرابع من (٢) انظر فى الغزالي المتظم ١٦٨/٩ واللباب ١٧٠/٢ هذا القسم .
والواقى بالواقيات ١/٢٧٤ وابن خلكان (طبعة دار)

نيسابور وأخذ عنهم كل ما عندهم ، وسرعان ما أصبح شيخاً يُشار إليه بالبنان ، وأكْبَ الطلاب على دروسه . وأخذت شهرته تطبّق الآفاق . وقدم على نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي ، فعينه أستاذاً للفقهِ الشافعي في مدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ هـ ولم يلبث أن اعترته أزمة نفسية سنة ٤٨٨ هـ فإرجع ببغداد إلى أداء فريضة الحج ، وولّى وجهه نحو الصوامع النائية في مساجد بيت المقدس ودمشق معتزلاً للناس مستغرقاً في تأمل الفرق الإسلامية ، واستقر في نفسه أنه ينبغي تخليص الأمة من الدقائق التي يخوض فيها المتكلمون ومن خلافات الفقهاء وما يتجادلون فيه من فروع دون طائل ، وأخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين جنياً حملات عنيفة ، مبيناً أن ما هم فيه من جدال ليس من الدين في شيء ، وأن من شأنه أن يززع العقيدة العامة ويحدث بلبلة في العقول . وبالمثل حمل على الفلاسفة وأعلن عليها حرباً شعواء في كتابه «تهافت الفلاسفة» وخاصة على فلسفة ابن سينا المشائية ، ووجّه حملاته بقوة إلى الإسماعيلية في كتابه «فضائح الباطنية» . وهدهته تأملاته في عزله إلى أنه لا بد من الوصل بين التصوف والسنة كي ينمو الشعور الديني ويصبح تجربة نفسية قلبية بحيث يتعانق عمل القلب وعمل الجوارح في أداء الشعائر والفروض والنوافل حتى ينهض بها المسلم مصحوبة بالإخلاص ويصدق الشعور الباطني ، وحتى تكون محبة الله الدافع الأساسي لكل ما يصدر عنه من قول وفعل . وآلّف على هذا الهدى كتابه «إحياء علوم الدين» محملاً فيه الحياة الدينية والأخلاقية للمسلم على مبادئ تستمد من التصوف وروحها ، ونقصد التصوف السني الذي أقام هو والقشيريّ والسراج بنيانه ، والذي يرفض أفكار الصوفية الغالية مثل الاتحاد بالله والحلول . وقد جعل القلب أساس السعي إلى الله حتى يقرب منه المسلم وينال محبته ومبتغاه ، وحقا لا بد أن تؤدّي الفرائض والسنة ، ولكن لا بد معها من عمق الإخلاص وعمق الشعور الديني وصدقه ، إذ هو جوهر الحياة الدينية . وبذلك وصل الغزالي وصلأً وثيقاً بين أهل السنة والمتصوفة دون لحاج في اتحاد المتصوف بالذات الإلهية ودون تعثر في شباك الحلول . ومع الإيمان بأن أحكام الشريعة أساس الحياة الدينية الصادقة المفعمة بالإخلاص . ومن أهم ما نفذ إليه الغزالي في

لجولدسيير نقم الرابع وي تصنف الإسلامي ليكلسون
ترجمة عفتي ص ١٣٩ وسيرة الغزالي لعبد الكريم العيان
(طبع دمشق) والحقيقة في نظر الغزالي لسليمان ديبا (طبع
دار المعارف بمصر) .

= (صادر) ٤/ ٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكي (١٩١٦) ومقدمة بويج لنشره لكتابه تهافت طبع بيروت ومؤلفات الغزالي لعبد الرحمن بدوي ومحاضرات مهرجانه في دمشق سنة ١٩٦١ وتاريخ الفلسفة في الإسلام لبيى بروض ١٩٦ وبراون ص ٣٦٨ والعقيدة والشريعة في الإسلام

أثناء كتاباته فكرة الحقيقة المحمدية ، وهي تبدو واضحة - كما يقول نيكلسون^(١) - في كتابه «مشكاة الأنوار» وكأن الرسول صورة للأمر الإلهي أو الكلمة الإلهية . وكان لهذه الفكرة تأثير بعيد في متصوفة الأجيال التالية ، ونقصد فكرة الإنسان الكامل الذي يتمثل في الرسول ﷺ . وقد تكاملت للغزالي هذه النزعة الصوفية في أثناء عزله وخلوته بصوامع مساجد الشام مدة عشر سنوات ، عاد بعدها إلى بغداد ، ولكنه لم يعقد بها مجالس للفقهاء أو علم الكلام ، وإنما عقد بها مجالس للوعظ حدث فيها بكتابه «الإحياء» . وراجع إلى موطنه خراسان وألم بالمدرسة النظامية في نيسابور مدة يسيرة وتركها إلى طوس مسقط رأسه . وهناك أقام بجانب داره مدرسة للفقهاء «وخانقاه» للمتصوفة ، واشتغل بالنسك والعبادة حتى لبى نداء ربه بعد أن زاوج بين التصوف والشريعة مزاجية بقيت على مر العصور التالية ، وبعد أن هاجم الفلسفة هجوما عنيفا جعلها تسقط أمام التصوف ووصولها . وقد ازدهر التصوف السني في إيران وغير إيران من العالم الإسلامي ، بفضل أعلامه الثلاثة السابقين وخاصة الغزالي ، وليس معنى ذلك أن التصوف الفلسفي انتهى ، فقد ظلت منه أسراب ولكنها أسراب فردية على نحو ما يلقانا عند يحيى السهروردي^(٢) الإيراني المولود بسهرورد سنة ٥٤٥ للهجرة في الإقليم الإيراني المعروف باسم إقليم الجبال وقد أكب على كتب التصوف والفلسفة . واستوت له فلسفة صوفية إشرافية وسنعود إلى الحديث عنه في الفصل الرابع . ومن أصحاب التصوف الفلسفي بعد السهروردي صدر الدين الشيرازي المتوفى سنة ١٠٥٠ للهجرة وهو أهم من كتب بعده في التصوف الإشرافي على نحو ما يتضح في كتابه «الأسفار الأربعة» .

ومنذ الغزالي بل قبله منذ السراج والقشيري ينشط نشاطاً واسعاً التصوف السني في إيران ، وقد أخذت تظهر فيه مع مر الزمن طرق يتبعها كثيرون ، من أهمها طريقة النقشبندية ، وكان تيمورلنك يرعى أهلها ، كما مربنا في القسم الخاص بالعراق ، وعاصرتها طريقة البكطاشية ، وقد غمست في التشيع وفي شيء من التصوف الفلسفي . وبدون شك أنتجت إيران في هذا العصر وخاصة منذ القرن السابع طائفة كبيرة من شعراء التصوف في الفارسية في مقدمتهم جلال الدين الرومي (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ) . والشيخ سعدى الشيرازي المتوفى سنة ٦٩١ وله بعض قصائد عربية ، وخلفه الصوفي الكبير حافظ الشيرازي المتوفى سنة ٧٩١ وفي الحق أن التصوف ظل مزدهراً في إيران قروناً متطاولة .

(١) في التصوف الإسلامي وتاريخه ص ١٤٦ وما بعدها . الفصل الرابع من هذا القسم .

(٢) انظر مصادر ترجمة يحيى السهروردي في ترجمته في

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

نشطت الحركة العلمية في العصرين : العباسي الأول والعباسي الثاني نشاطا عظيما ، فمن تعليم للناشئة في الكتابات إلى تعليم للشباب في المساجد ، ومضت على هذا النحو في أوائل عصر الدول والإمارات في إيران وغير إيران ، وكانت الناشئة تتعلم الخط والكتابة والقراءة وشيئا من الحساب وبعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض الأشعار . أما المساجد فتحولت بجانب ما كان يقام فيها من صلوات إلى جامعات كبرى ، يتعلم فيها الشباب جميع فروع العلم . وكان الأستاذ عادة يستند إلى أسطوانة في المسجد ، ويتحلق الطلاب حوله ، وهو يملئ عليهم محاضراته . وكانوا يتكاثرون في بعض الحلقات ، فلا تسمع الصفوف الأخيرة كلام الأستاذ ، فينهض مُسْتَمَلٍ بترديده ، حتى تسمعه تلك الصفوف . وكانت أكثر الحلقات طلابا حلقات الفقهاء والمحدثين . ولم تكن هناك رسوم أو أجور تؤخذ من هؤلاء الطلاب فقد كانت الدولة تتكفل بأجور العلماء ، وكان منهم من يأتي أن يأخذ أجرا على دروسه ، اكتفاء بما يكسبه من تجارة له أو عمل .

ولا نبالغ إذا قلنا إن القرنين الرابع والخامس للهجرة بإيران يُعدّان أزهى قرون هذا العصر من حيث النهضة العلمية وبلوغها الأوج المنتظر ، ولعل مرجع ذلك إلى التنافس الذي نشأ بين أصحاب الإمارات حينئذ ، فقد مضى كل منهم يجهد جهدا بالغا في أن يضم حوله علماء العصر ليزدان بهم بلاطه وتزدان بهم دولته وكفى يعيشوا في شباب الدولة الطموح إلى تحقيق مالم يحققه العلماء قبلهم . ولعل عضد الدولة خير من يمثل ذلك بين البويهيين ، فقد كان يقدر العلم والعلماء ويُجرى الرواتب والأرزاق على الفقهاء والأدباء والقراء ، فرغب الناس في العلم ، وكان هو نفسه يتشاعل بالعلم ، ووجد في تذكرة له : إذا فرغنا من حل أقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم ، وإذا فرغنا من كتاب أبي

على الفارسي النحوي تصدقت بـخمسين ألف درهم^(١) . ويقول ابن الأثير : « كان يجلس مع العلماء يعارضهم في المسائل ، فقصدته العلماء من كل بلد ، وصفوا له الكتب ، منها الإيضاح في النحو والحجة في القراءات لأبي علي الفارسي ، والكناش الملكي في الطب لعلي ابن العباس الجوسي ، وكتاب التاجي في التاريخ لأبي إسحق الصائغ إلى غير ذلك » . وكان خلفاؤه من البويهيين يُعنون بالعلم وأهله . وكذلك كان السامانيون ، حتى قالوا إن خراسان جنة العلماء ، وكانت بها نيسابور أكبر مركز للعلم بإيران في العصر ، وسيتردد اسمها كثيرا فيما يلي من كلام . وبالمثل كانت الدولة الزيارية تُعنى في طبرستان بالعلم والعلماء . ولم تكن تقل عنها عناية الدولة الخوارزمية بأمرائها الثلاثة في مدينة خيوه المعروف كل منهم باسم « مأمون خوارزم » ويكنى أن نعرف أنه كان يعيش في رعاية ثالثهم الذي استولى محمود الغزنوي على إمارته سنة ٤٠٨ للهجرة صفوة من رجال الفلسفة والعلم في مقدمتهم البيروني وابن سينا وأبوسهل المسيحي والطبيب ابن الخمار والرياضي أبو نصر بن العراق ، وكان محمود الغزنوي قد طلبهم من مأمون خوارزم قبل استيلائه على إمارته ، فاستدعاهم وعرض عليهم رغبته ، ولبها ابن العراق وابن الخمار والبيروني ، ورفضها أبوسهل وابن سينا ، وولى الأخير وجهه نحو قابوس بن وشمكير الزيارى صاحب طبرستان^(٢) . وفي هذا ما يدل على مبلغ اهتمام محمود الغزنوي^(٣) بجمع الفلاسفة والعلماء في عاصمته « غزنة » التي جعلها مركزا من أهم مراكز العلوم والآداب في الشرق الإسلامي وعمت النهضة في دولته مدنا أخرى مثل هراة . وكثر حينئذ إهداء المؤلفين كتبهم للأمراء ، وكانوا أحيانا لا يخصون بها أميرا واحدا ، بل يتجمعون بها أمراء الدول والإمارات المختلفة ، على نحو ما كان يصنع الثعالبي ، فقد أهدى كتابيه : « المبهج » و « التمثل والمحاضرة » إلى قابوس بن وشمكير أمير طبرستان وجرجان وكتبه : « النهاية في الكناية » و « نثر النظم » و « اللطائف والظرائف » للمأمون بن مأمون أمير خوارزم ، وكتابه « لطائف المعارف » للصاحب بن عباد وزير البويهيين ، وكتابه « سحر البلاغة » و « فقه اللغة » للأمير أبي الفضل الميكالي راعي العلم والأدب في نيسابور . وكان مما عمل علي ازدهار النهضة العلمية في العصر منذ أوائله تأسيس المدارس فيه ، وكانت نيسابور أول مدينة إيرانية سبقت إليها ، إذ تأسست بها في منتصف القرن الرابع الهجري مدرسة أبي حفص الفقيه ، وكان يدرس بها للطلاب ابن شاهويه المتوفى سنة ٣٦١

(١) انظر المتظم ١١٥/٧ وابن الأثير ٢١/٧ . ١١١ .

(٢) انظر براون (ترجمة إبراهيم أمين الشواربي) ص (٣) انظر في ثقافته ابن تغري بردى ٢٧٣/٤ .

للهجرة^(١) ، وفي أواخر القرن الرابع بُنيت بها مدرسة للمحدث الكبير ابن فُورَك^(٢) المتوفى سنة ٤٠٦ ومدرسة ثانية سُميت دار السنة^(٣) . وكثر بها بناء المدارس في النصف الأول من القرن الخامس ، إذ بُنيت بها مدرسة^(٤) لأبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام المتوفى سنة ٤٤٩ ثم أربع مدارس^(٥) : هي المدرسة البيهقية ، ومدرسة الإستراباذي المتوفى سنة ٤٤٠ بناها لأصحاب الشافعي ، والمدرسة السَّعدية بناها الأمير نصر بن سُبُكْتِكِين ، والرابعة مدرسة بُنيت لأبي إسحق الإسفرايَني .

ولما أصبحت إيران تابعة للدولة السلجوقية واتخذوا الري حاضرة لهم أخذوا يعنون بالحركة العلمية ، ولم يلبث أن وزر لهم في عهد سلطانهم ألب أرسلان وزيرهم المشهور نظام الملك المولود بطوس سنة ٤٠٨ وقد التحق بخدمتهم منذ انتصارهم على الغزنويين في سنة ٤٣١ حتى إذا اعتلى ألب أرسلان العرش جعله كبير وزرائه ، وكان سياسيا بارعا وله في السياسة كتاب باللغة الفارسية سَمَّاه «سياسة نامه» . وكان شافعي المذهب أشعريا عدوا للإسماعيلية الباطنية ، فرأى أن يؤسس مجموعة من المدارس ، عُرفت كل واحدة منها باسم النظامية ، لمحاربة النحلة الإسماعيلية نخلة الحشاشين ، ولنشر المذهب الشافعي والنحلة الأشعرية . فبنى ببلخ مدرسة وكذلك بنيسابور وهراة ومرو وأصفهان وآمل في طبرستان وبالموصل وبغداد . وجميعها تأسست حوالى سنة ٤٥٧ للهجرة ، وكان يُدرَّس فيها بجانب الفقه وعلم الكلام على مذهب الأشعري علوم التفسير والحديث واللغة والفرائض والأدب والرياضيات وكان يختار لكل منها أستاذا كبيرا . وجعل لأساتذتها مساكن ورواتب منتظمة ، ورصد لطلابها نفقات مقدرة ، ووقف عليها جميعا أوقافا كثيرة . وألحق بكل مدرسة مكتبة كبيرة تَفَصُّ بالكتب في كل علم وفن ، ما عدا كتب الباطنية الحشاشين . والاهتمام بالمكتبات عند العصور السابقة سبق أن عرضنا له وبيننا اهتمام الدولة والأفراد به ، لأنها أداة الثقافة ومنهلها العذب ، وظل الاهتمام بها في هذا العصر ، بل تزايد مع ازدهار الحركة العلمية ، فكانت هناك مكتبات الوراقين التي تُعْرَض فيها الكتب للبيع ، وكانت تتكاثر في المدن الكبيرة حتى تصبح سوقا مستقلا . وكانت هناك مكتبات عامة للدولة كمكتبات نظام الملك التي ألحقها بمدارسه المسماة بالنظامية . وكانت في كل جامع كبير مكتبة تضم ما يقفه العلماء على طلاب العلم في الجوامع . وكان هناك رعاية للعلم بينون

(١) طبقات الشيرازي (طبع بغداد) ١٢١ . (٤) السبكي ٢٩٠/٤ .

(٢) السبكي ١٢٨/٤ . (٥) السبكي ٣١٤/٤ .

(٣) السبكي ١٥٩/٤ .

المكتبات لطلابه ، مثل ابن حَيَّان البستي صاحب كتاب الجرح والتعديل المتوفى سنة ٣٥٤ فقد بنى بنيسابور خزانة كتب ومساكن لطلاب العلم الغريباء وأجرى لهم الرواتب . ويُروى أن أبا علي بن سوار الكاتب في دواوين عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أنشأ دار كتب في مدينة رامهرمز على شاطئ خليج العرب وجعل فيها نفقة لمن قصدها^(١) .

وكان طبيعياً منذ أوائل هذا العصر أن يُشغف البويهيون بالكتب وجمعها واتخاذ مكاتب خاصة لأنفسهم ، وكان لديهم من ذلك ثلاث مكاتب كبيرة ، أولاها مكتبة عضد الدولة ، وقد رآها المقدسي ووصفها بقوله : «حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صُنّف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصله فيها . وهي أزج (بناء) طويل في صُفّة كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه ، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوت طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المروّق ، عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منصّدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب ، ولا يدخلها إلا كل وجه^(٢) » . والمكتبة الثانية مكتبة وزيره ابن العميد ، وكانت أكبر من السابقة ، ويقال إنها لو حُمّلت ما استطاع أن يحملها إلا مائة بعير^(٣) ، واتخذ خازناتها ابن مسكويه الفيلسوف المعروف لعصره ويقال بل اتخذه عضد الدولة ، ويبدو أنه اتخذها خازناً - كما مرّ في ترجمته - بعد وفاة ابن العميد وابنه أبي الفتح . والمكتبة الثالثة مكتبة صاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة بالرّيّ ، ويقال إنها كانت أضعاف مكتبة ابن العميد ، إذ كان بها من كتب العلم ما يُحتمل على أربعائة بعير أو أكثر . ويقال : كان فهرست خزانة الكتب بمدينة الرّيّ عشرة مجلدات^(٤) .

ولعل في ذلك ما يصور مدى اهتمام أصحاب الإمارات الفارسية ووزرائهم بالثقافة العربية ومصنفاتها الكثيرة ولم يقف ذلك عند البويهيين والسامانيين والرّياريين والخوازميين ، بل امتد أيضاً كما قدمنا إلى عصر الدولة السلجوقية ووزيرها نظام الملك الذي كانت مجالسه تزدان بالعلماء ، وكان يحضر سماطه القشيري وإمام الحرمين وأبو إسحق الشّيرازي ، وكثرت تصنيف الكتب باسمه من مثل كتاب التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية من فرق الهالكين لأبي المظفر طاهر بن محمد الإسفرائيني المتوفى سنة ٤٧١ . وقدّم له إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني كثيراً من كتبه ، وله بني المدرسة النظامية بنيسابور وظل يدرّس فيها عشرين عاماً إلى أن توفي سنة ٤٧٨ وكان يحضر دروسه أربعائة طالب

(٣) ابن مسكويه ٢٨٦/٦ وما بعدها .

(١) المقدسي ص ٤١٣ .

(٤) معجم الأدباء لياقوت ٢٥٩/٦ .

(٢) المقدسي ص ٤٤٩ .

وأستاذ^(١). وكان الطلاب دائماً كثيرين في حلقات العلماء ، فيُروى أنه كان يحضر دروس أبي الطيب الصعلوكي مفتي نيسابور أكثر من خمسمائة طالب^(٢). وفي هذا ما يدل على إقبال الشباب في نيسابور على دروس الفقه والدين إقبالاً منقطع النظير ، ولم يكن ذلك في نيسابور وحدها ، فقد كان عاما في مدن إيران وما وراء النهر من أرض الشاش وقرغانة ، إذ كان حضور حلقات العلماء مباحا للجميع ، فكان الناس من كل الأوساط يقبلون عليها ، لا أوساط المثقفين فحسب ، بل أيضا أوساط العامة ، يدل على ذلك من بعض الوجوه ما رواه السبكي في طبقاته من أن فقهاء الشاش «كتبوا إلى ابن سُرَيْج إمام الشافعية ببغداد يُعلمونه أن الناس في ناحيتهم : أرض الشاش وقرغانة مختلفون في فقهاء الأمصار ممن لهم الكتب المصنفة والفتيا ، ويسألونه أن يكتب لهم رسالة يذكر فيها أصول الشافعي ومالك وسفيان الثوري وأبي حنيفة وصاحبيه (محمد وأبي يوسف) وداود بن علي الأصفهاني (صاحب مذهب الظاهرية) ويسألونه أن يكون ذلك بكلام واضح يفهمه العامي ، فكتب القاضي لهم الرسالة»^(٣).

فالثقافة الفقهية لم تكن وقفا على الفقهاء وتلاميذهم ، بل كانت العامة تشارك فيها وفي دقائقها وتفريعاتها الكثيرة لا التي اختلف فيها أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى : الشافعي ومالك وأبو حنيفة فحسب ، بل أيضا تلك التي اختلف فيها معهم سفيان الثوري وداود بن علي الأصفهاني . ونفس ما حدث بين أصحاب مذهب كبير كالمذهب الحنفي من خلاف مثل ما حدث بين أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وقتت عليه العامة فيما وراء النهر. وظاهرة ثانية تدل على شيوع الثقافة الدينية في إيران وأنها كانت عامة بين الناس ، ولا تخصص الرجال بل تعم النساء ، وهي تتصل بالحديث النبوي وروايته ، إذ نجد طائفة من النساء الإيرانيات يؤخذ عنهن الحديث كما يؤخذ عن علمائه الأثبات ، ويُذكرن في تراجم بعض المحدثين ويُنصُّ على أنهم حملوا الحديث عنهن ، منهن كريمة المروزية ، وعليها قرأ بمكة الخطيب البغدادي المحدث المشهور صحيح البخاري ، وسمع منها أيضا بمكة سعد الأسدي آباذي^(٤) ، فهي لم تحدث في موطنها فحسب ، بل حدثت أيضا في مجمع العلماء بالحرم المكي ، وبأى كتاب ؟ بأعظم كتب الحديث إسنادا : صحيح البخاري . ومن هؤلاء المحدثات المشهورات عائشة^(٥) بنت عبد الله البوشنجية ، وهي من محدثات القرن

(١) طبقات السبكي ١٨٤/٥ .

(٤) السبكي ٣٠٤/٤ ، ٣٨٣ .

(٢) التهذيب للنووي (طبعة وستفيلد) ص ٣٠٧ . (٥) السبكي ١١٨/٥ .

(٣) السبكي ٤٥٧/٣ .

الخامس الهجري ، ومثلها فاطمة بنت أبي علي الدقاق شيخ القشيري في التصوف ، وعنها أخذ الحديث بنيسابور كثيرون^(١) . ومن محدّثات القرن الخامس أيضا كريمة^(٢) بنت محمد ، وشهادة^(٣) بنت أحمد . وهن جميعا أدلة على ازدهار الحركة العلمية بإيران . ومن تنمة هذه الأدلة أن نجد العلماء منذ أوائل هذا العصر يحاولون فهرسة كتب المكتبة العربية ، موزعين الكتب على علومها المختلفة ، على نحو ما هو معروف عن فهرست ابن النديم ، وربما كان أهم من ذلك أن نجد معاصره الخوارزمي أبا عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف يؤلف كتابا موسوعيا هو « مفاتيح العلوم » ويهديه إلى أبي الحسن العتبي وزير الأمير نوح الساماني الثاني (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ) . وكان يعيش في رعايته بنيسابور . والكتاب يشتمل على المصطلحات الفنية للعلوم وتفسيرها وتوضيح دلالاتها ، وهو مقالتان : المقالة الأولى في علوم الشريعة وما يتصل بها ، والمقالة الثانية في الفلسفة وعلوم الأوائل .

٢

علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة

تحدّثنا في كتابي العصر العباسي : الأول والثاني عن ترجمة علوم الهند والفرس واليونان ، وكيف أنها شملت ما لدى الفرس والهند من مصنّفات في الفلك والرياضيات وما لدى اليونان من مؤلفات في الرياضيات والطبيعات . وسرعان ما شارك العرب في كل ما ترجموه ، سواء في النظريات الفلكية أو في العلوم الطبيعية ، وقد سارعوا في نقل كتاب المجسطي لبطليموس الإسكندري وهو في الفلك والجغرافية ونقل كتاب الأصول لأقليدس في الهندسة وكتب أرسطو في علمي الحيوان والطبيعة وفي المنطق وكتب جالينوس وبقرط في الطب ، وترجموا أيضا لأفلاطون وغير أفلاطون كتبًا مختلفة . وقد ذكرنا في كتابي العصر العباسي أسماء المترجمين والنقلة من اللغات المختلفة وأشهر ما نقلوه وترجموه ، وعرضنا ذلك كله عرضا مستفيضا . وأوضحنا مساهمة العرب مساهمة حية خصبة في جميع الميادين العلمية ، بحيث ظهر من بينهم أفذاذ في الرياضيات دوّت شهرتهم فيما بعد في عالم الغرب مثل محمد بن موسى الخوارزمي الذي يفتتح سلسلة الرياضيين العظام بين العرب ، ومثل جابر بن حيان الكيميائي المشهور ، ومثل محمد بن زكريا الرازي ذائع الصيت في عالم

(٣) السبكي ٧١/٦ ، ٧٣ .

(١) السبكي ١١/٥ .

(٢) السبكي ٩٥/٥ .

الطب الذي اكتشف في وضوح فرق ما بين مرضى الجُدْرَى والحَصْبَة ووضع أسساً واضحة للطب النفسى . وكان طبيعياً بعد أن تعمق العرب علوم الأوائل وفلسفاتهم أن يصبح لهم بدورهم فلاسفة نابهون . ويلمّع اسم الكندي فيلسوف العرب الأول لعصر المأمون ، ويلمّع بأخرة من العصر العباسى الثانى اسم فيلسوف كبير هو الفارابى الذى مزج فى فلسفته بين روحانية الإسلام وأفكار فلاسفة اليونان مزجاً رائعاً ، مصطفىاً لأتمته نظريات فلسفية جديدة .

وبانتهاء العصر العباسى الثانى ينتهى عصر المترجمين العظام ، وندخل فى عصر جديد هو عصر الفلسفة الإسلامية الخالصة والمشاركة العلمية الحنصبة ، أما الفلسفة فنبغ فيها اثنان من الفلاسفة الإيرانيين البارعين هما ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ والبيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ للهجرة .

وابن^(١) سينا أكبر فلاسفة الإسلام ، ويلقب بالشيخ الرئيس ، وقد احتفظ ابن أبى أصيبعة بترجمة شخصية له كتبها بقلمه ، وهو يصور فيها حياته حتى بلغ سن الثانية والثلاثين ، وفيها يذكر أن أباه من أهل بلخ وأنه انتقل منها إلى بخارى فى أيام الأمير السامانى نوح بن منصور وتولّى التصرف للسامانيين بقريّة خرميئ ، وفيها ولد له ابنه سنة ٣٧٠ وانتقل الأب مع أسرته إلى بخارى وعنى بتربيته فأحضره له معلماً للقرآن ومعلماً للأدب ، وما بلغ العاشرة حتى كان قد حفظ القرآن ، وأقبل على دراسة الفقه . ويذكر أن أباه كان إسماعيلياً ولم يلبث أن أقبل على دراسة المنطق والهندسة والفلك على شخص متفلسف يسمى الناتلى ، وكان يقرأ معه إيساغوجى وكتاب أقليدس والجسطى ، ويراها لا يفهمها حتى الفهم فكان يشرحها لأستاذه . وأكبّ على علوم الأوائل والطب ، وسرعان ما اشتهر وهو لا يزال غلاماً فى السابعة عشرة من عمره . واستغلقت عليه الإلهيات حتى قرأ بالصدفة فيها كتاباً للفارابى ، حلّ له مستغلقاتها . وحدث أن مرض الأمير نوح بن منصور فاستدعوه لمعالجته بعد أن عجز الأطباء عن مداواته ، ويكون شفاؤه على يديه ، فبوظفه عنده ويفدق عليه

(١) الفلسفة فى الإسلام لدى بور ص ١٦٤ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع والعلم عند العرب لألدومبيل ص ١٩٧ وكتاب مؤلفات ابن سينا لفؤاد سيد ولقنوائى . وانظر ترجمته بقلمه وتعليقنا عليها فى كتابنا والترجمة الشخصية ، طبع دار المعارف ومقالاتنا عن لغة ابن سينا فى العدد رقم ٦٩١ من مجلة الثقافة ، وهو عدد خاص بعينه الألقى .

(١) راجع فى ابن سينا وترجمته صوان الحكمة للبيهى ص ٥٢ والقفطلى ص ٤١٣ وابن أبى أصيبعة ص ٤٣٧ وابن خلكان ١٥٧/٢ وروضات الجنات ص ٢٤١ ولسان الميزان ٢٩١/٢ وكتاب لكارادى فوعنه (طبع باريس) ومقالته عنه فى دائرة المعارف الدينية والأخلاقية نشر هيستنجز (أدنبرة ١٩٠٩) ٢/٢٧٢ وبراون (ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربى) ص ١١١ ، ١٢١ وتاريخ

من أمواله . ويستأذنه ابن سينا في دخول مكتبة القصر ويأذن له فيجد فيها ما لا يحصى من الكنوز في علوم الأوائل . ولم تلبث الدولة السامانية أن انهارت فترك بخارى إلى خوارزم ، ونزل بعاصمتها «خيوه» عند أميرها مأمون مع من كانوا يلوذون برعايته مثل البيروني . وسمع محمود الغزنوي بهذه الصفوة من العلماء والمتفلسفة والأطباء في بلاط أمير خوارزم ، فأرسل إليه في طلبهم ، كما مر بنا ، وأبى ابن سينا أن يذهب إليه ، وأخذ ينتقل في بلدان إيران حتى وصل إلى جرجان وأميرها قابوس بن وشمكير ، فأكرمه وأنزله منزلة عليا ، حتى إذا قُتل سنة ٤٠٣ ولى وجهه نحو أصفهان وأميرها البويهى علاء الدين بن كاكويه . وظل هناك إلى أن أدركته الوفاة بهمدان سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م وقبره معروف بها إلى اليوم .

وعند ابن سينا تترج الفلسفة اليونانية بالحكمة الشرقية والروح الإسلامية ، ويلقب بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي ، وأكثر مؤلفاته بالعربية ، وله مؤلفات بالفارسية ، وأيضا له قصائد فلسفية بجانب نثره الفلسفي ، وله قصص فلسفية كقصه سلامان وأبسال وقصة حتى بن يقظان ورسالة الطير . ومصنفاته تُعدّ بالمئات ، وأشهرها كتاب القانون في الطب وكتاب الشفاء في الإلهيات وعلوم الطبيعة والرياضيات . وكان الكتاب الأول عماد الغربيين في دراساتهم الطبية بمجامعتهم حتى القرون القريبة ، وقد ترجموه إلى اللاتينية ، ويقال إنه طبع بها ست عشرة مرة في القرن الخامس عشر الميلادي وعشرين مرة في القرن السادس عشر . وكتاب الشفاء دائرة معارف كبرى تتناول كل فروع الفلسفة .

وابن سينا يتأثر بأرسططاليس ، وحاول جاهدا أن يوفق بين آرائه وآراء أفلاطون والأفلاطونية الحديثة والإسلام . ونحا في كثير من أفكاره نحو الفارابي ، وهو يتفق معه في تفاريع المنطق وفي الإلهيات وماذهب إليه من أن المادة لا تصدر عن الله ، لأنه متره عن كل مادة وكل جسم ، والله واحد من كل وجه ، فلا يصدر عنه كثير لا بالعدد ولا بالانقسام إلى مادة وصورة ، وإلا اختلفت الجهات في ذاته . وهو - لذلك - لا يصدر عنه إلا واحد هو العقل الأول . وعن هذا العقل يصدر عقل يدبر الفلك (الملائكة) ومنه تصدر نفس كما تصدر مادة هي جرم الفلك ، وأخيرا العقل الفعّال الذي تصدر عنه مادة الكائنات في الأرض وصورها الجنسية كما تصدر النفوس الإنسانية . وطبيعي أن لا يرتضى أهل السنة والمعتزلة منه هذه الآراء . وإذا نحيناها عن فلسفة ابن سينا وجدناه بعدها يحاول التوفيق بين فلسفته وبين القائلين بسلطان الفضاء ، فيقول إن كل ما في الوجود خيرا كان أم شرا بقضاء الله وقدره على نحو ما توضح ذلك رسالته في القدر . وكان يرى أن من الموجودات ما هو خير محض كالأمور العقلية والساوية ، ومنها ما يغلب عليه الخير كالوجود

الأرضى والشر فيه من طبيعته لأنه عالم كون وفساد .
 وكان يذهب إلى أن العقل أعلى قوى النفس ، وعنده أن النفوس تنقسم إلى مراتب
 أعلاها النفوس الكاملة التى تتمسك بالمثل العليا وبالخير المحض الخالص وكان يعد الموت
 بطلانا للجسم ، أما النفس فتبقى خالدة وعلى اتصال بالعقل الكلى ، وسعادتها وشقتها
 حينئذ ترجعان إلى اتحادها به قوة وضعفا . وفى ذلك يكون الثواب والعقاب .
 ويخطو ابن سينا بفلسفته خطوة : فيمزجها بالتصوف الذى تفيض على المتصوف فيه
 اللذات الروحية فلا يرى فى الكون سوى مبدعه وجهاله على نحو ما تصور ذلك قصته «حى
 ابن يقظان» و«سلامان وأبسال» وسنلمّ بهما فى الفصل الأخير . وفى الأولى يعود حى بن
 يقظان الفيلسوف إلى مورد المعرفة الصوفية الإلهية ، بينما يتخلص أبسال فى الثانية من أغلال
 اللذات الحسية موعلا فى اللذات العقلية وما يطوى فيها من لذات الصوفية الروحية .
 ويوضح ذلك فى كتابه الإشارات ، فيقول عن الصوفى ويسميه العارف إنه المتصرف
 بفكره إلى قدس الله مستديما لإشراق نور الحق على نفسه ، وهو يعبد الله لأنه مستحق
 للعبادة لارهبة من عقابه ولا رغبة فى ثوابه .

والبيرونى^(١) هو محمد بن أحمد المولود سنة ٣٦٢ بضاحية من ضواحي خيوه عاصمة
 خوارزم تسمى بيرون ، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته ، ويبدو أنه تلقن معارفه الأولى
 بخيوه ، ولم يلبث أن اتجه إلى الرياضيات والفلك فحذقها حذقا رائعا ، وشغف فى أثناء
 ذلك بمعرفة أحوال البلدان والأمم ، ولم يكد يتدرج فى العقد الثالث من عمره حتى بارح
 موطنه إلى طبرستان حيث عاش فى رعاية أميرها قابوس ، وإليه قدم أول كتبه : «الآثار
 الباقية عن القرون الخالية» الذى فرغ من تأليفه حوالى سنة ٣٩٠ وقد صور فيه المناهج
 التاريخية والتقاويم الحسائية لكثير من الأمم المتحضرة وهو أول كتبه العظيمة ، وقد طبعه
 سخاو فى ليزج سنة ١٨٧٨ وقدم له بمقدمة نفيسة عن البيرونى وأعماله ومكاته . وكان
 قابوس متقلبا ، فحشى البيرونى على نفسه منه ، وتركه إلى موطنه وأميره فيه «مأمون
 خوارزم» . وجمع به وبعلمه محمود الغزنوى ، فطلبه من أميره ، وأبدى البيرونى - فما

وكتاب العلم عند العرب لألدوسيللى ص ١٨٨ وما بعدها
 ومقالتي بروكلمان وفيدمان عن البيرونى فى دائرة المعارف
 الإسلامية وتاريخ الأدب الجغرافى لكراشكوفسكى
 (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/٢٤٥
 وما بعدها .

(١) انظر فى البيرونى تمة صوان الحكمة للبيهقى ومعجم
 الأدباء ١٧/ ١٨٠ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص
 ٤٥٩ ومقدمتى سخاو للآثار الباقية وتحقيق ما للهند من
 مقولة وبراون ١١١ ، ١٢١ وكاجورى فى تاريخ
 الرياضيات ومادة بيرونى فى دائرة المعارف البريطانية

يُرَوَى - رغبته في الذهاب إليه ، ويقال : بل ظل مع مأمون خوارزم حتى استولى محمود الغزنوي على دياره فصحبه فيمن أخذهم معه من علماء خوارزم لسنة ٤٠٨ للهجرة . وكان البيروني شيعيا ومحمود سنيا يضطهد الشيعة ، فتحول البيروني إلى مذهبه ، وربما تحول إلى هذا المذهب قبل صحبته لمحمود . وكان محمود ماينى يغزو الهند على نحو ما مر بنا في الفصل السابق ، فكان يسير معه ، ويظهر أنه أقام بها سنوات متصلة يمكنه من دراستها دراسة علمية خصبة ، تعلم في أثناءها اللغة السنسكريتية وقرأ ما كتبه فيها علماءها ، ودرس في عمق فلسفتها ورياضياتها وعقائدها وتقاليدها وجملة معارفها في التنجيم والتاريخ والفلك ، وكل ذلك أودعه كتابه الرائع : «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة» وقد أمه سنة ٤٢٣ بعد وفاة محمود الغزنوي بعامين . وفي الكتاب قطع بنصها لمؤلفين هنود ، وفيه وصف جغرافي مفصل للهند وآرائهم الدينية والفلسفية ومعارفهم وتاريخهم وتقاليدهم وعاداتهم وأعيادهم وأنظارتهم في الفلك والتنجيم . ويتارن مقارنات خصبة بين علومهم وعلوم العرب واليونان والفرس . ويعترف بتفوق المعرفة اليونانية لما تمتاز به من كمال المنهج ومن الدقة والعمق . ويقارن بين أديان الهند وأديان الكتب السماوية مقارنات دالة على تأمل دقيق في الديانات وفلسفتها ، ويوسع تأمله ليشمل المانوية وغيرها من ديانات الفرس . وفي كل ذلك ينثر آراءه الأصلية التي تدل على عقل متفلسف دقيق منتهى الدقة . ونراه يبين في قوة وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورية الأفلاطونية والحكمة الهندية .

ومن مصنفات البيروني كتابه القانون المسعودي في الهيئة والتنجيم ألفه سنة ٤٢١ للسلطان مسعود بن محمود الغزنوي عقب وفاة أبيه وهو دائرة معارف في الفلك والهندسة والتنجيم ، وقد وصفه ياقوت بأنه يعنى أثر كل كتاب ، صنّف في تنجيم أو حساب ، ويقول البيهقي إنه غرة في وجوه تصانيفه . وفي مقدمته يشيد بالسلطان مسعود الذي قدم إليه الكتاب وقد نشر في حيدرآباد سنة ١٩٥٣ . وللبيروني كتب أخرى . منها كتاب في المعادن سماه الجواهر في معرفة الجواهر ، أهداه إلى السلطان مودود الغزنوي ، ومنها كتب في الطب وكتاب في الصبغة نشره ماكس مايرهوف في برلين وكتب أخرى في الطبيعيات . وفي الحق أنه شخصية فريدة في تاريخ إيران العربية .

ويلحق بهذين الفيلسوفين العظيمين الشهر^(١) ستاني أبو الفتح محمد بن أبي القاسم

(١) انظر في الشهرستاني وترجمته ابن خلكان ٢٧٣/٤ بالرفقات ٢٧٨/٣ وشذرات الذهب ١٤٩/٤ ومرآة وتذكرة الحفاظ ١٣١٣/٤ والسبكي ١٢٨/٦ والوافي الخان ٢٨٩/٣ ولسان الميزان ٢٦٣/٥ وغير الفهجي =

المتوفى سنة ٥٤٨ وهو من شهرستان في شمالي خوارزم ، واشتهر بكتابه الفريد «الملل والنحل» الذي ألفه في سنة ٥٢١ وهو في علم مقارنة الملل والأديان . وكان تسامح المسلمين مع أهل الكتاب من قديم سببا في نشأة هذا العلم نشأة مبكرة لدى العرب ، فبذ القرن الثالث الهجري وهم يؤلفون فيه إلى أن ظهر البيروني وألف كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة» الذي تحدثنا عنه آنفا ، وقلنا إنه يبحث فيه مباحث دقيقة في الديانات ، وجاء بعده ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ وألف كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وخلفه الشهرستاني ، فألف كتابه سالف الذكر عارضا فيه جميع الفرق الإسلامية وديانات أهل الكتاب وديانات غيرهم من أهل الشرك في اعتدال وإنصاف وبصر نافذ . وهو لا يبارى في دقته وذكائه وتمييزه بين المعتقدات والملل سواء تحدث عن عالمه الإسلامي أو عن عالم الفرس للمقديم ودياناته أو عن عالم الهند أو عالم اليونان .

وظلت طوال العصر دراسات علوم الأوائل ناشطة وفي مقدمتها الرياضيات والفلك ، وقد تقدم العرب بهما في مطالع هذا العصر خطوات على نحو ما يصور ذلك ألدومبيلي في كتابه العلم^(١) عند العرب ، ومن نابهم في القرن الرابع الهجري ممن تحدث عنهم أبو الفتح محمود بن محمد الأصفهاني الذي نقح كتاب المخروطيات لأبولونيوس ، وأبو جعفر الخازن الخراساني ، وله كتاب في الفلك وصف فيه عددا من آلات الرصد الفلكية ، وأبو الحسين الصوفي مؤلف كتاب الكواكب الثابتة ، وهو محلى بالرسوم ، ويقول ألدومبيلي إنه صحح فيه كثيرا من أخطاء بطليموس ، وانتفع بتصحيحاته علماء الفلك المحدثون . واطرد هذا النشاط العلمي في القرن الخامس إذ نجد أبا الحسن علي بن أحمد النسوي يؤلف بالفارسية كتابا في اللوغارتمات ويترجمه إلى العربية بعنوان المقنع في الحساب الهندي . ويشمل نظام الملك في الدولة السلجوقية برعايته الكثير من العلماء الرياضيين ، وفي مقدمتهم^(٢) عمر الخيام صاحب الرباعيات المشهورة ، وله كتاب فذ في علم الجبر رتب فيه - كما يقول ألدومبيلي - الصور المختلفة للمعادلات ذات الدرجة الثانية والثالثة ترتيبا منظما ، وقد عهد إليه نظام الملك بإصلاح التقويم ، وبنى له مرصدا سنة ٤٧١ ويظن أنه إما كان في مرو وإما في أصفهان وإما في نيسابور ، وعين له ثمانية من علماء الفلك يساعدهونه فأصلح التقويم

= ١٣٢/٤ ورواضات الجنات ١٨٦ وبراون ص ٤٥٩ ودائرة وآثار البلاد لبقرويني (طبعة وستفولد) ص ٣١٨ وبراون ص ٣٠٤ وألدومبيلي ص ٢١٤ ، ٢٢١ ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر العلم عند العرب ص ٢١٢ وما بعدها . الإسلامية .

(٢) راجع في عمر الخيام وترجمته الفقطنى ص ٢٤٣

وألف فيه كتابه «التاريخ الجلالى» نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقى . ومن أشهر الرياضيين بعده نصير^(١) الدين الطوسى المولود بطوس سنة ٥٩٧ . وقد تلقفه الإسماعيليون لما رأوا من ذكائه ، فأرسلوه إلى عاصمتهم «ألموت» وهناك وجد مكتبة نفيسة أكبر على ما فيها من كتب الفلسفة والرياضيات ، حتى إذا استولى هولوكو على تلك القلعة انتقل نصير الدين إلى خدمته ، وكرمه لما سمع من معرفته بالفلك والتنجيم ، وصحبه فى هجومه على بغداد ، وانتهاز الفرصة فاستولى على كثير من كتبها النفيسة ، وكوّن منها مكتبة ضمت أكثر من أربعمئة ألف مجلد ، كما يقول ابن شاکر فى كتابه فوات الوفيات . وساعده هولوكو فى بناء مرصد مدينة المراغة المشهور سنة ٦٥٧ وعيّن معه فى جماعة من صفوة العلماء الرياضيين ، وظل نصير الدين قائما على هذا المرصد حتى وفاته سنة ٦٧٣ وقد ألف زيجا أو قل تقويما أصلح به تقويم الحيام . وألف كتب كثيرة فى التنجيم والفلسفة والرياضيات والطبيعات . ومن أشهر تلاميذه قطب^(٢) الدين محمود بن مسعود الشيرازى المتوفى سنة ٧١٠ وكان رياضيا فلكيا ، ومن كتبه : «نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك» . ومنهم نجم^(٣) الدين على بن عمر الكاتبى المشهور باسم دبيران المتوفى سنة ٦٧٥ وكان موظفا فى مرصد المراغة بأذربيجان واشتهر بكتاب فى المنطق سماه «الرسالة الشمسية فى القواعد المنطقية» وهى مشروحة مرارا . وظل مرصد المراغة مجهزا بأكمل الآلات حتى القرن الثامن الهجرى ، وكانت العربية لا تزال فى إيران اللغة الأولى للعلوم ، وإن أخذت تراجحها الفارسية حتى ظفرت بها فى الحقب للتأخرة .

وعلى نحو ما نهضت العلوم الرياضية والفلكية نهضت العلوم الطبيعية والطبية ، وكانت البيارستانات تُعدّ مدارس كبرى لتعليم الطب والنهوض به ، ومن أهم الأطباء فى القرن الرابع الهجرى على^(٤) بن العباس الجوسى صاحب الكناش الملكى فى الطب ، وقد أهداه إلى عضد الدولة البوسى ، وكان يعاصره أبو^(٥) سهل المسيحى الذى ألف ما يشبه دائرة

- (١) انظر فى نصير الدين الطوسى وترجمته فوات الوفيات لابن شاکر (نشر مكتبة النهضة المصرية) ٣٠٧/٢ .
 وروصات الجنات ص ٥٠٦ وشذرات الذهب ٣٣٩/٥ .
 وبراون ص ٦١٥ وألدومبيل ص ٢٨٩ ، ٢٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية ، وقد نشرت له دائرة المعارف العثمانية بمجيد آباد سنة ١٣٥٨ هـ مجلدين من رسائله ومقالاته .
 (٢) راجع فى قطب الدين وترجمته الدرر الكامنة لابن حجر ٣٣٩/٤ والنجوم الزاهرة ٢١٣/٩ وألدومبيل ص ٢٩٨ .
 (٣) انظره فى فوات الوفيات ١٣٤/٢ وألدومبيل ص ٢٧١ .
 (٤) راجع ألدومبيل ص ٢٣٨ وما بعدها حيث يعرض مجموعة من الأطباء بينها على بن العباس وانظر القفطى ص ٢٣٢ وبروكلمان ٢٩١/٤ .
 (٥) انظر فى القفطى ص ٤٠٨ وبروكلمان ٢٩٤/٤ .

معارف طبية في مائة مقالة . ولزبن ^(١) الدين الجرجاني الطبيب المتوفى سنة ٥٣١ موسوعة طبية كتبها بالفارسية سماها « ذخيرة خوارزم شاه » وقد أهداها إلى الشاه الخوارزمي قطب الدين محمد . ويظل الاهتمام بالطب على توالي الحقب ، وكذلك ظل الاهتمام بالصيدلة وعلم العقاقير ، ويشتهر في هذا العلم موفق ^(٢) بن علي الهروي في القرن الرابع الهجري ، كما يشتهر في الكيمياء الطغراني الشاعر المشهور وزير السلطان السلجوقي مسعود ، وله كتب كثيرة في الكيمياء ^(٣) ، منها الجوهر النضير في صناعة الإكسير . وللقزويني ^(٤) زكريا بن محمد المتوفى سنة ٦٨٢ للهجرة كتاب طريف في التاريخ الطبيعي سماه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات »

ومرّبنا في كتاب العصر العباسي الثاني أن كتاب بطليموس الجغرافي وجّه العرب منذ الخوارزمي الرياضي محمد بن موسى إلى التأليف في علم الجغرافيا أو تقويم البلدان ، ونشط فيه التأليف نشاطا واسعا واتبع الجغرافيون العرب حينئذ منهاجا طريفا في وصف البلدان أن يُعْتَوَّأ بالحديث عن عادات الشعوب ، وَيَقْصُؤْأ بعض ماسمعه من الأعاجيب ، مما جعل كتبهم الجغرافية تعتمد على المشاهدة وحكاية ماسمعه الجغرافي بأذنه ورآه تحت بصره ، وبذلك أصبحت تشبه كتب الرحلات . وبلغنا في القرن الرابع رحالة مشهور هو أبو دلف الخزرجي مسعر بن مهلهل شاعر الكُذْبَة الذي سنترجم له بين الشعراء الشعبيين ، وعداده في شعراء أصفهان ، وأصله كما يبدو من لقبه من أهل المدينة ، وله رحلة إلى بلاد آسيا الوسطى والشرقية قام بها سنة ٣٣٣ للهجرة وقد نشرت منها وزارة التربية والتعليم المصرية قطعة ، حققها المستشرق مينورسكي ، وعنى الدكتور محمد منير مرسى بإعادة نشر هذه القطعة كما سيأتي في الحديث عنه بين الشعراء وفيها يصف أبو دلف بعض مدن الشمال الغربي لإيران . وجاء بعده في القرن الخامس الهجري رحالة إسماعيل ، هو ناصر خسرو ، وقد كتب رحلته بالفارسية في كتابه المسمى « سفرنامه » واستغرقت منه الرحلة سبع سنوات (٤٣٧ - ٤٤٤ هـ) . طاف فيها ببلدان موطنه إيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر ، وهي تخرج عن حدیثنا لأنها ليست باللسان العربي . وللإيرانيين بجانب هذه الرحلات البرية رحلات بحرية إذ كان ملاحوهم يتعمقون في المحيطين الهندي والهادي ،

(١) راجع فيه ألدوميل ص ٣٢٠ .
 (٢) ألدوميل ص ٢٣٩ .
 (٣) انظر في نشاط الطغراني الكيميائي ألدوميل ص ٣٦٠ .
 (٤) راجع في القزويني براون (ترجمة الدكتور الشواربي) ص ٦١٢ وألدوميل ص ٢٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع وتاريخ الأدب الجغرافي لكراشكوفسكي ١/٣٦٠ .

ووصفوا رحلاتهم فيها وفي المحيطين وجزرها وشواطئها في آسيا وإفريقيا وكل ما رأوه من شعوب وحيوانات برية وبحرية وطيور . ومن أهم ما كتبوا من هذه الرحلات كتاب «عجائب^(١) الهند برّه وبحره وجزره وشطآنه» لبزرگ بن شهریار الناخذاه أوى الریان . وبدل اسمه على أنه إيراني ، وتدل حكاياته على أنه كان يعيش في القرن الرابع الهجرى ، وهو يقص في كتابه قصصا بديعا ما سمعه من حكايات عن الملاحين الذين اقتحموا المحيطين الهندي والهادى ووصفوا ما أبصروه من أسماك وطيور وحيوانات وما ألم بسفنه من عواصف هوجاء ، وما شاهدوه من الشعوب وصناعاتها وعاداتها ودياناتها . وهو كتاب جغرافى وأدبى وقصصى نفيس .

وربما كان القزوینی زکریا بن محمد المذكور آنفا أكبر جغرافى أنتجته الحقب التالية في العصر ، واسم كتابه الجغرافى : «آثار البلاد وأخبار العباد» وهو فيه يصف الأقاليم السبعة للأرض ، ويذكر ما فيها من البلدان والجزر والأنهار ، ويهتم بأحوال السكان ويجمع غرائب عن شعوب هذه الأقاليم في آسيا وإفريقيا وأوربا وخاصة شعوب الهند والصين ، ويقص حكايات عن شعراء الفرس والزهاد في البلدان الإسلامية ، ويعرض عجائب النيان والآثار ويحكى كثيراً من الأساطير والخرافات مما يجعل كتابه في بعض جوانبه شبيها بكتب الأدب الخيالية المسلية .

ولعل في كل ما سبق ما يصور ازدهار علوم الأوائل في إيران حتى القرن الثامن الهجرى ، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه إحساس العلماء بكثرة المصطلحات العلمية وأنهم في حاجة إلى كتاب يجمعها ويعرف بها تعريفاً دقيقاً ، وهو ما جعل السيد الشريف الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ يتجرد لوضع كتاب ينى بهذه الحاجة ، على نحو ما يلقانا عنده في كتابه التعريفات الذى أوضح فيه الاصطلاحات العلمية مرتباً لها على حروف المعجم ترتيباً دقيقاً .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

نشط البحث في اللغة نشاطاً واسعاً لهذا العصر ، إذ كثرت العلماء الإيرانيون الذين تصدوا للمباحث اللغوية ، وكان أكبر ما نهضوا به وضع المعاجم ، واهتمامهم به قديم ، ولذلك

(١) انظر في هذا الكتاب كراتشكوفسكى ١٤٣/١ وكتابتنا «الرحلات» طبع دار المعارف ص ٣٣ .

لا يكون عجباً أن أول نسخة تنشر من معجم العين للخيل بن أحمد ، وهو أول معجم وضع في العربية ، إنما تنشر- كما ذكر صاحب الفهرست- من خراسان . ومعروف أن المعجم الثاني في العربية الذي ألف على منهج معجم العين هو الجمهرة لابن دُرَيْد المتوفى سنة ٣٢١ هـ وهو أيضاً نُشر لأول مرة في إيران ، إذ استدعى عبد الله بن محمد بن ميكال والى الأهواز وفارس ابن دُرَيْد من البصرة لتأديب ابنه أوى العباس إسماعيل ، وهناك وضع الجمهرة ، وكان ترتيب الكلمات في هذا المعجم- كترتيبها في معجم العين- على مخارج الحروف ومواقعها من الجهاز الصوتي أى من الحلق واللسان والفم والشفة . وأول معجم عام وضع في عصر الدول والإمارات الذى نحن بصدد معجم تهذيب اللغة الذى وضعه أبو منصور محمد^(١) بن أحمد الأزهرى الهروى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ وسنجد كثيرين غيره من هراة بأفغانستان الحالية يشتركون في خدمة اللغة وغير اللغة ، وكانت هراة تعد جزءاً من إيران .

ورَّب الأزهرى معجمه على ترتيب معجم العين أى حسب مخارج الحروف ، وعرض في مقدمته لرواة اللغة وترجم لهم موضعاً مدى الثقة والتهمة في أعمالهم . وكان بعاصر الأزهرى عالم فاراب إسحق بن إبراهيم الفارابى المتوفى سنة ٣٥٠ للهجرة وقد وضع في اللغة معجمه ديوان الأدب الذى نشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، واتبع فيه طريقة جديدة هي ترتيبه حسب الحروف الهجائية باعتبار أواخر الألفاظ وفقاً للأبنية المختلفة ، ووضع الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ معجماً كبيراً سماه المحيط لم يتبق منه إلا بعض أجزاء لا تزال مخطوطة . وخلفها أبو الحسين أحمد^(٢) بن فارس القزوينى معلم العربية بهمدان المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وله معجمان : المجلد ومقاييس اللغة ، أما المجلد فمعجم عام رتبته حسب الأبجدية المعروفة لنا اليوم ، غير أنه قسم المواد في كل حرف إلى ثنائى ويشمل المضاعف والمطابق . ثم ثلاثى ، ثم ما جاء على أكثر من ثلاثة حروف أصلية ، والتزم أن يفتح حديثه في كل حرف به مع ما يليه . ومعجمه مقاييس اللغة على غرار المجلد ، عُنِيَ فيه بأن يجعل لألفاظ كل مادة لغوية أصلاً تُرد إليه أو أصلين . وهو فيه أكثر منه في المجلد

(١) انظر في الأزهرى ابن خلكان (طبعة دار صادر القصر وابن خلكان ١١٨/١ ومعجم الأدباء ٨٠/٤ بيروت) ٣٣٤/٤ ومعجم الأدباء ١٦٤/١٧ وشذرات الذهب ٧٢/٣ والسكى في طبقاته ٦٣/٣ . ٢١٢/٤ .

(٢) انظر في أحمد بن فارس الينيمة ٤٠٠/٣ ودمية

عناية بالشواهد والأمثال والعبارات المجازية ، بينما هو في الجمل أكثر منه في المقاييس عناية بذكر الأعلام .

ولأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري^(١) معاصره المتوفى سنة ٣٩٥ معجمه المشهور : تاج اللغة وصحاح العربية ويشتهر باسم الصحاح ، وأصل موطن الجوهري فاراب شرق خراسان ، رحل في طلب اللغة إلى بلاد ربيعة ومصر ، ورجع إلى خراسان فترنل في الدامغان ثم ألقى عصاه في نيسابور ، وظل بها يدرس ويصنّف إلى وفاته ، ومعجمه مرتب على الحروف الهجائية ولكن لا بحسب أوائل الكلمات وإنما بحسب أواخرها بنفس المنهج الذي اتبعه خاله الفارابي في معجمه ديوان الأدب . وأوتى المعجم من الشهرة والذيع ما جعل مؤلفات كثيرة تعنى به عند العلماء في موطنه وفي غيره . ووضع محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي من أهل القرن الثامن الهجري مختصراً له سماه «مختار الصحاح» ورتبه حديثاً محمود خاطر بحسب أوائل الكلمات لا بحسب أواخرها ، وهو مطبوع في عصرنا مراراً وتكراراً . وللزمخشري^(٢) محمود بن عمر المتوفى سنة ٥٣٨ معجم عام سماه «أساس البلاغة» وهو مرتب بحسب أوائل الكلمات ويورد من الأمثلة والشواهد ما يوضح استخدامها ، ويعنى ببيان ما جاء في كل كلمة ومادتها من مجازات مختلفة . ونمضى إلى القرن الثامن فنلتقى بالفيروز ابادى مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى المتوفى سنة ٨١٧ وسبق أن تحدثنا عنه في الفصل الثاني من القسم الأول الخاص بالجزيرة العربية .

وبجانب هذه المعاجم اللغوية صنع علماء إيران اللغويون في الحقب الماضية معاجم خاصة للقرآن الكريم والحديث الشريف . منها معجم أبي عبيد الهروي المتوفى سنة ٤٠١ وهو تلميذ الأزهرى ، ولم يُعْنِ مثل أستاذه بمعجم عام إنما عُنى بمعجم خاص لغريب القرآن والحديث سماه كتاب الغريبين ، وقد يذكر عند بعض أصحاب التراجم باسم كتاب الغريبين في لغة كلام الله وأحاديث رسوله أو باسم غريب القرآن والسنة وتفسيرهما . ووضع الزوزنى^(٣) الحسين بن علي بن أحمد المتوفى سنة ٤٨٦ بعده معجماً بالعربية والفارسية سماه

١٢٦/١٩ وطبقات المصيرين للسيوطي ٤١ وشذرات الذهب ١١٨/٤ والنجوم الزاهرة ٢٧٤/٥ وأزهار الرياض ٢٨٢/٣ ونزهة الألباء ص ٣٩١ والخواهر اللصية ١٦٠/٢ وكتب التاريخ في سنة وفاته وبراون في تاريخ الأدب في إيران من الفردوسى إلى السعدى ص ٤٥٨ .
(٣) راجع في الزوزنى إنباه الرواة ١/٣٢٠ وبراون ص ٤٤٩ وبروكلمان ٥/٢٠٧ .

(١) راجع في الجوهري إنباه الرواة ١/١٩٤ ومعجم الأدباء ١٥١/٦ وشذرات الذهب ١٤٢/٣ والبيتية للثعالبي ٤٠٦/٤ ودمية القصر للباخرزى وكتب تراجم النحة والنجوم الزاهرة ٤/٢٠٧ .

(٢) انظر في الزمخشري ابن خلكان ١٦٨/٥ والأنساب للسمعاني الورقة ٢٧٧ وروصات الجنات ص ٦٨١ وإنباه الرواة ٣/٢٦٥ واللباب ٢/٥٠٦ ومعجم الأدباء

ترجمان القرآن . وجاء بعده الراغب ^(١) الأصفهاني الحسين بن محمد المتوفى سنة ٥٠٢ . ووضع كتابه أو معجمه مفردات ألفاظ القرآن أو مفردات غريب القرآن ، وهو معجم لا نظير له في بيان دلالات ألفاظ القرآن ، ولا يستغنى عنه ناظر في آيات الذكر الحكيم ولا مفسر للقرآن الكريم . ووضع الزمخشري المذكور آنفاً معجماً لألفاظ الحديث النبوي سماه الفائق في غريب الحديث .

وبجانب هذا النشاط اللغوي نشط علماء اللغة في إيران في دراسة الأمثال ورسم معاجم لها تتضمن شرحها ، ويمكن أن ندخلها في المعاجم الخاصة ، ولعل أول من يصادفنا في هذا الباب حمزة ^(٢) الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٠ وكان يهتم بشعوبيته لافتخاره بنسبه إلى الفرس ، ولأنه فيما يقال وضع كتاباً لعضد الدولة البويهى في الموازنة بين العرب والفرس ، وبنى عنه بروكلمان هذه التهمة ، ويقول إنه لم يعاد العرب بل أنصفهم وأعلى ذكرهم ! . وله في الأمثال معجم بما صيغ منها على وزن أفعل التفضيل مثل قولهم « أحلم من الأحف » وسماه الدررة الفاخرة ، وصنع الصاحب المذكور آنفاً أمثال المتنبي ، استخرج من شعره الأبيات التي تجري مجرى المثل .

وكان يعاصره أبو هلال ^(٣) العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ وقد ولد بعسكر مكرم في إقليم خوزستان وإليها ينسب ، وتعلم بها ، واحترف التجارة ، ولم تشغله عن التصنيف والتأليف ، وله في الأمثال معجم سماه جمهرة الأمثال رتبته على حروف المعجم ، ذكر فيه منها نحو ألفي مثل . وشرحها شرحاً وافياً مبيناً مضاربيها ومواردها ، وأعقب كل باب بما ذكر حمزة الأصفهاني فيه من الأمثال المصاغة على وزن أفعل . وجاء بعده الميداني ^(٤) أحمد ابن محمد المتوفى سنة ٥١٨ فألف أهم معجم بين كتب الأمثال سماه مجمع الأمثال . حاول فيه أن يستقصى الأمثال العربية ، وهو استقصاء لم يسبق إليه ، مع شرحها شرحاً مستفيضاً . وخلفه الزمخشري الذي ذكرناه آنفاً فألف معجمه « المستقصى في الأمثال » ، وهو مرتب على الحروف الهجائية مثل معجم الميداني . ولكنه لا يبلغ مبلغه من السعة

- (١) انظر في الراغب بقية الرواة وطبقات المفسرين وتمة البيهقي ١٠٤ ورواض الجنات ٢٤٩ وبروكلمان ٢٠٩/٥ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .
- (٢) راجع في حمزة الفهرست لابن النديم ص ٢٠٥ والأنساب ورقة ٤٤١ وبروكلمان ٦٠/٣ ودائرة المعارف الإسلامية .
- (٣) انظر في أي هلال معجم الأدباء ٢٥٨/٨ - ٢٦٧
- ومعجم البلدان في عسكر مكرم وإنباء الرواة للقطبي باب الكنى وبقية الرواة للسيوطي ص ٢٢١ وخزانة الأدب ١١٢/١ .
- (٤) راجع في الميداني كتاب الأنساب الورقة ٥٤٨ ومعجم الأدباء ٤٥/٥ وإنباء ١٢١/١ وابن خلكان ١٤٨/١ ونزهة الألباء ٣٩٠ ورواض الجنات ص ٨٠ -

والدقة. ويُدخل في هذا النشاط المعجمي بعض اللغويين وضع معاجم لألفاظ الفقهاء مثل المغرب في ترتيب العرب لناصر^(١) المطرزي الخوارزمي المتوفى سنة ٦١٠ خليفة الزمخشري في وطنه خوارزم. ومعجمه يتناول الألفاظ الغريبة التي يستخدمها الفقهاء.

وحاول اللغويون في إيران أن يضعوا كتباً تجذب القارئ بمنهجها مثل ديوان الأدب المار ذكره وهو يتناول أبواباً صرفية، وأهم منه كتاب الصاحبي في فقه اللغة ألفه أحمد بن فارس المذكور آنفاً باسم الصاحب بن عباد، وهو أول كتاب منهجي في موضوع أصل اللغة العربية وخصائصها. واهتم اللغويون بما يعرض للكلمات من أخطاء، وتجرد لذلك أبو أحمد^(٢) العسكري خال أبي هلال، فصنف كتاب التصحيف والتحريف وتوالت بعض الكتب في هذا الموضوع.

ولم يقتصر نشاط اللغويين في إيران على كل ما قدمنا. فقد بذلوا جهوداً خصبة في شروح الشعر ومن أهمها شرح الواحدى لديوان المتنبي وشرح الروزنى المار ذكره على المعلقات السبع وقد طبع مراراً ويتداوله الطلاب في الجامعات العربية. واشتهر التبريزي أبو زكريا يحيى بن علي المتوفى سنة ٥٠٢ بكثرة ما صنف من شروح، تناول في بعضها الشعر القديم وفي بعضها الشعر المولد، وقد تحدثنا عن نشاطه في هذا الاتجاه بين اللغويين في العراق، وشرح الزمخشري بعده لامية العرب للشنفرى، وشرح المطرزي خليفته مقامات الحريري.

ونخص اللغويين بمحاولة أخرى هي جمع الأشعار والكلم البليغة، وألفوا في ذلك مصنفات مختلفة، منها ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، وكتاب نثر الدرر لأبي سعيد منصور بن الحسن الآبي^(٣) من أدباء القرن الخامس وكتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصبهاني المذكور آنفاً وألف بأخرة من العصر بهاء الدين العامل المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة كتابيه الكشكول والمخلاة، وهما كتابان نفيسان بما جمعا من طرائف النثر والشعر. ولم يكن اهتمام النحاة بالنحو أقل من اهتمام اللغويين باللغة، وكثير منهم لهم كتب

(١) انظر في المطرزي معجم الأدباء ٢١٢/١٩ وإنباه ومعجم الأدباء ٢٣٣/٨ وإنباه الرواة ٣١٠/١ ومنتظم

الرواة ٣٣٩/٣ وروضات الحنات ص ٢٢٣ والجواهر ١٩١/٧.

(٣) راجع في أبي الحسن الآبي دمية القصر ٤٦٧/١ والمصية في طبقات الحنفية ١٩٠/٢ وابن حلكان ٣٦٩/٧ وابن قطلوبغا ص ٧٩.

(٢) انظر في أبي أحمد العسكري ابن حلكان ٨٣/٢ أصبهان.

نحوية متنوعة غير أننا سنكتفي بذكر الأمهات وأصحابها ، وأول من نقف عنده ابن درستويه الفارسي المتوفى سنة ٣٤٧ وقد مر ذكره بين اللغويين في العراق ، وأهم منه إمام النحاة عامة في القرن الرابع الهجري أبو علي الفارسي^(١) المولود بالقرب من شيراز سنة ٢٨٨ وكان رُحلة في تدرسه ، فأيام في شيراز وأيام في عسكر مُكرّم بخرزستان وأيام في كَرَمَان ، وأيام أخرى في بغداد أو في حلب أو في الكوفة أو في دمشق ، وله كتب يسميها المسائل كل منها منسوب إلى بلدة من هذه البلدان فهناك المسائل الشيرازية والعسكرية والحلبيّة ، وهكذا . وبجانب ذلك له كتب مستقلة عُني القدماء بشرحها مثل الإيضاح والتكملة وقد صنفها باسم عضد الدولة . وهو أستاذ ابن جنّي ، وفي كل مكان من كتبه ينقل عنه وخاصة في الخصائص وما وضعه فيه من القواعد الكلية . حتى ليخيّل إلى الإنسان كأن أكثر الأصول والآراء التي سجلها ابن جنّي في كتبه إنما استمدها من إملاءات أبي علي الفارسي . وهو في آرائه النحوية يتصرّ مرة للخليل وسيبويه وغيرهما من البصريين ، ومرة ثانية يتصرّ للكوفيين ، ومرة ثالثة يستنبط آراء مبتكرة لم يسبق إليها ، نافذاً بذلك إلى المذهب^(٢) البغدادي الجديد في النحو الذي كان يقوم على الانتخاب من آراء مدرستي الكوفة والبصرة مع الخلوص إلى آراء وأحكام نحوية جديدة .

وكان يعاصره أحمد بن فارس الذي مر بنا ذكره ، وله كتب نحوية كان يذهب فيها مذهب الكوفيين ، واقترح للنحو مقدمة على شاكلة إسناغوجي في المنطق ، سماها مقدمة في النحو . ومن نحاة إيران في القرن الخامس عبد القاهر الجرجاني وسنفضل الحديث فيه بين البلاغيين ، غير أننا نشير إلى أن له كتاباً في النحو سماه العوامل المائة ، عُني به الشراح طويلاً .

ويأتي بعده الزمخشري ، وله كتب نحوية مختلفة ، أشهرها المفصل ، وقد جعله في أربعة أقسام : قسم للأسماء تحدث فيه عن المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والنسب والتصغير والمشتقات ، وقسم للأفعال وأنواعها المختلفة وقسم للحروف وأصنافها الكثيرة ، وقسم للمشترك أراد به الإمالة والزيادة والوقف والإبدال والإعلال والإدغام ، وقد شرح هذا الكتاب مراراً ، وأهم شروحه شرح ابن يعيش في عشر مجلدات . وهو في الكتاب

(١) انظر في ترجمة أبي علي الفهرست ص ١٠١ وإنباه الرواة ٢٧٣/١ وطبقات الفراء لابن الجزري ٢٠٦/١ وتاريخ بغداد ٢٧٥/٧ ومعجم الأدباء ٢٣٢/٧ ولسان الميزان ١٩٥/٢ وشذرات الذهب ٨٨/٣ وابن خلكان

(٢) ٨٠/٢ ونزهة الألباء ص ٣١٥ وكتاب د . عبد الفتاح شلبي : أبو علي الفارسي .

(٢) راجع في ذلك كتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٤٥ وما بعدها .

بغدادى يتصر تارة للبصريين وتارة للكوفيين وتارة لمن تلاهم من البغداديين وينفذ إلى بعض الآراء الجديدة ، فهو يتخب آراءه من المدارس السابقة عليه ، وينفرد بآراء جديدة^(١) . وتلك هى أصول المذهب البغدادى فى النحو الذى استحدثه ابن كيسان والزجاجى وثبته بعدهما أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى . ويؤلف المطرّزى كتابا فى النحو يسميه المصباح ويشرحه كثيرون . وإمام النحاة بعد ذلك فى إيران الرضى^(٢) الإسترابادى نجم الدين محمد بن الحسن المتوفى حوالى سنة ٦٨٦ ومولده ومرباه فى إستراباذ من أعمال طبرستان ، وقد عُنى بعملين لابن الحاجب المصرى ، هما الكافية فى النحو والشافية فى الصرف ، فشرحها شرحاً واسعاً ساق فيه آراء النحاة منذ سيبويه حتى عصره ، وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على عمق الثقافة النحوية فى إيران حتى أواخر القرن السابع الهجرى وهو فى شرحه للكتابين بغدادى المذهب ، فهو يتخب من المدارس النحوية السابقة آراءه منفصلاً القول فى اختلاف النحاة ، ومن حين إلى آخر ينفرد بآراء مبتكرة .

وازدهرت مباحث البلاغة بجانب مباحث النحو واللغة ، بل لعل هذه المباحث لم تنشط فيها بيئة كما نشطت إيران ، وأول من نقف عنده فيها أبو أحمد العسكري الذى عرضنا له آنفاً ، فقد ألف فيها كتابا فى صناعة الشعر وهو يعرض فيه لصور البيدع بالمعنى العام بحيث يشمل فنونه وفنون البيان ، والرسالة مفقودة غير أن ابن أخته أبا هلال العسكري احتفظ منها بكثير من بحوثها فى كتابه الصناعتين ، وبالمثل نقل عنها كثيراً الباقلانى فى كتابه إعجاز^(٣) القرآن . وكتاب الصناعتين لأبى هلال مطبوع مرارا ، وهو يريد بالصناعتين صناعتى الكتابة والشعر ، وقد جعل الكتاب فى عشرة^(٤) أبواب : باب لموضوع البلاغة وحدودها ، وباب ثان لتمييز جيد الكلام من رديئه ، وباب ثالث لمعرفة صنعة الكلام ، وباب رابع لحسن النظم ، وباب خامس لشرح الإيجاز والإطناب ، وباب سادس للسرقات الشعرية ، وباب سابع للتشبيه ، وباب ثامن للسجع والأزدواج ، وباب تاسع لفنون البيدع وهو أطول الأبواب ، وباب عاشر لحسن المبادئ والمقاطع وجودة القوافى ودقة الخروج من النسيب إلى المديح .

وخلف أبا هلال القاضى عبد الجبار^(٥) قاضى قضاة البويهيين بإيران المتوفى سنة ٤١٥

-
- (١) انظر ذلك كتابنا المدارس النحوية ص ٢٨٣ (٤) راجع فى تحليل هذا الكتاب : البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٠ وما بعدها .
 (٢) راجع فى الرصا كتابنا المذكور ص ٢٨١
 (٣) انظر كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١١١ وما بعدها وص ٤١٣ وما بعدها .
 (٥) انظر فى عبد الجبار تاريخ بغداد ١١٣/١١ ولسان الميزان ٣/٣٨٦ والشذرات ٣/٢٠٢ و امرأة الجنان ٣/٢٩ =

وقد عرض في موسوعته الكلامية « المعنى في أبواب التوحيد والعدل » لإعجاز القرآن في الجزء السادس عشر منها . وأداه الحديث في الإعجاز إلى عرض كلام أبي هاشم الجبائي في أن المدار في الإعجاز ليس على نظم القرآن وإنما على فصاحته . ويأخذ عبد الجبار في توضيح معنى الفصاحة ، فيقول - كما قال عبد القاهر الجرجاني من بعده - إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، فالكلمة في نفسها لا تُعدّ فصيحة ، بل لا بد من ملاحظة أبعادها ونظائرها وحركاتها في الإعراب ومواقعها في التقديم والتأخير . وبذلك يقترب بوضوح من عبد القاهر في تفسيره للنظم في كتابه دلائل الإعجاز ، إذ يشير في صراحة إلى الخصائص النحوية وما ترسم من فروق في الكلام ، أو بعبارة أدق يريد - كما أراد عبد القاهر - النظام النحوي للكلام . ويمنع عبد الجبار - كما منع عبد القاهر فيما بعد - أن يكون للفظه صفة أدبية في الكلام من حيث هي لفظة مفردة ، فالمدار على موقع الكلمة وكيفية إيرادها وطريقة أدائها . ويقول عبد الجبار إن حسن النعم وجمال اللفظ لا وزن له في الفصاحة ، مع أنها يضيفان إلى الكلام رونقاً وبهاء .

وهذه النظرية ^(١) الجديدة للفصاحة تناوها عبد القاهر الجرجاني ^(٢) المتوفى سنة ٤٧١ كما قدمنا ، فسطها أعظم بسط وفسرها أروع تفسير بحيث أصبحت منسوبة إليه عند القدماء والمحدثين إذ وضع على أساسها علم المعاني المعروف بين علوم البلاغة العربية ، فالأصل من لدن عبد الجبار والعلم بشعبه وتفاريعه التي بصورها كتاب دلائل ^(٣) الإعجاز من لدن عبد القاهر . وكما وضع علم المعاني وضع علم البيان وضعا نهائيا في كتابه ^(٤) أسرار البلاغة ، وضعه بتشبيهاه وتفريعاتها الكثيرة وباستعاراته التصريحية والمكتنية والتمثيلية وبمجازاته اللغوية والعقلية ، مع روعة العرض وطرافته ، ومع الاهتمام الطريف بالجوانب النفسية . ويخلفه الزمخشري فيطبق في تفسيره الكشاف مباحثه في علمي المعاني والبيان تطبيقا حيا خصبا مضيئاً إليها من حين إلى حين إضافات ^(٥) بارعة ، سواء في

-
- وطبقات المفسرين ١٦ والمعتزلة لابن المرتضى
٦٦ وميزان الاعتدال ٥٣٣/٢ والسبكي ٩٧/٥ وكتابتنا
البلاغة : تطور وتاريخ ص ١١٤ .
(١) راجع في تحليل هذه النظرية عند عبد الجبار كتابنا
البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٥ وما بعدها .
(٢) انظر في عبد القاهر إنباه الرواة ١٨٨/٢ ودمية
القطر ١٧/٢ والسبكي ١٤٩/٥ وروضات الجنات ١٤٣
وشذرات الذهب ٣/٣٤٠ ورمّة الجنان ٣/١٠١ وفوات
- الوفيات ٦١٢/١ .
(٣) انظر في عرض مواد هذا الكتاب كتابنا البلاغة
تطور وتاريخ ص ١٦٠ - ١٨٩ .
(٤) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور
وتاريخ ١٩٠ - ٢١٨ .
(٥) راجع في هذه الإضافات الكتاب السالف ص
٢١٩ - ٢٧٠ .

المعاني الإضافية التي يصورها علم المعاني عند عبد القاهر أو في فنون البيان التي يصورها أيضاً عبد القاهر. وعُني ببعض ألوان البديع مثل الطباق والمشاكلة واللف والنشر والالتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم ومراعاة النظر والتقسيم والاستطراد والتجريد.

وتتحول البلاغة بعد الزمخشري وعبد القاهر إلى قواعد جامدة جافة، وأهم من دفعها نحو هذا الاتجاه عاجلا الفخر^(١) الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ وقد أوغل في دراسة الفلسفة والعلوم الدينية، وطاف بكثير من البلدان الإيرانية واستقر بمدينة هراة حتى وافاه أجله وهو يمتاز في تأليفه الكثيرة بالمقدرة على تشعب الأفكار وتقسيمها وتفريعها، يمدّه في ذلك عقل متفلسف، إذ كان قد درس الفلسفة دراسة عميقة؛ وله كتب مختلفة في التفسير والفقه والطب والكيمياء وعلم الكلام. وهما كتابه في البلاغة الذي سماه: «كتاب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز» وهو يعلن في مقدمته^(٢) أنه سينظم ما كتبه عبد القاهر في مصنفه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وينوه بصنيعه قائلاً: «ولما وفقني الله لمطالعة هذين الكتابين التقطت منها معاهد فوائدها ومقاصد فرائدها وراعت الترتيب مع التهذيب، والتحرير في التقرير، وصبّطت أوابد الإجماليات في كل باب بالتقسيمات اليقينية. وجعدت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية، مع الاجتناب من الإطناب الممل والاحتراز عن الاختصار الخجل». وكأنه يعرفنا بلسانه ما صارت إليه المباحث البلاغية الرائعة عند عبد القاهر من تقسيمات وتفريعات وضوابط وقواعد أحالتها هيكلًا لا حياة فيه فقد ألقت فيها السموم الفلسفية المنطقية ما أحالها شاحبة باهتة. ولم تنفعه إضافات الزمخشري فقد بث فيها نفس السموم. وبالمثل ما نقنه عن مواطنه رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ إذ نقل عن كتابه الذي وضعه بالفارسية وسماه «حدائق السحر في دقائق الشعر». ما ذكره فيه من ألوان البديع، وأسعفه في هذا النقل أن الوطواط ساق أمثلة النثر والشعري كتابه من الأدبين الفارسي والعربي. ولم تسلم هذه الألوان بدورها عند الرازي من الخفاف الشديد.

ومخلفه السكاكي^(٣) سراج الدين يوسف بن محمد بن علي المولود في خوارزم سنة

(١) انظر في الفخر الرازي ابن خنكان ٢٤٨/٤ تطور وتاريخ ص ٢٧٥.
 وطبقات السكي (طبعة عيسى الخلي) ٨١/٨ وطبقات
 المفسرين ٣٩ والوافي للصفدي ٢٤٨/٤ وتاريخ الحكماء
 للقفطي (طبعة لبيح) ص ٢١٩ وابن أبي أصيبعة
 ص ٤٦٢ وشذرات الذهب ٢١/٥.
 الذهب ١٢٢/٥
 (٢) راجع في تحليل الكتاب ومواده كتابنا البلاغة:
 (٣) انظر في السكاكي معجم الأدباء ٥٩/٢٠ والخواهر
 المضية ٢٢٥/٢ والفوائد البية في تراجم الحنفية للكنوي
 ص ٣٠١ وتاج التراجم لابن قطلوبغا ص ٨١ وشذرات

٥٥٥ وقد مضى يعبُّ في موطنه من جداول الفلسفة والمنطق ، وأكبَّ على العلوم الإسلامية وعلوم العربية ينهل منها ، وذاعت شهرته ، فقصده الطلاب ، وظلَّ يعلم ويلقى محاضراته إلى أن توفى سنة ٦٢٧ . ويشتهر السكاكي بتأليفه في البلاغة كتابه « المفتاح » وقد جعله في ثلاثة أقسام^(١) : قسم لعلم الصرف ، وقسم ثانٍ لعلم النحو ، أما القسم الثالث فقصره على علمي المعاني والبيان ، وألحقَ بهما ذيلًا تناول فيه مبحثًا عن الفصاحة والبلاغة ومبحثًا ثانيًا لألوان البديع اللفظية والمعنوية . وقدمَ لعلوم البلاغة بمبحث واسع في علم المنطق ، وتلاه بمبحث في علمي العروض والقوافي ، وبذلك تضمنَ المفتاح علوم الصرف والنحو والمنطق والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي . وشهرة الكتاب إنما ترجع إلى ما كتب فيه عن علوم البلاغة ملخصاً ، إذ الكتاب أشبه بمن في كل ما خاض فيه من مباحث ، وهو متن استضاء فيه بالفخر الرازي قبله . مع تفوقه عليه في الدقة وضبط الأقسام . غير أنه يخلو خلواً تاماً من تحليلات عبد القاهر والزمخشري ، ويصبح الكتاب مننا لعلوم البلاغة يُحصي قوانينها وقواعدها ، مع خلوه من كل ما يؤنس النفس ، إذ وضعت تلك القواعد والثقوانين في قوالب منطقية شديدة الجفاف ، وهي قوالب يداخلها غير قليل من الاتواء بسبب كثرة التفسيرات ، مما جعل الكتاب أوقل المتن في حاجة إلى الشرح والتوضيح ، وتوالت الشروح ، فشرحه قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي وقد تقدم ذكره بين علماء الرياضيات والنجوم ، وشرحه كثيرون من مواطنيه ، من أشهرهم سعد^(٢) الدين مسعود بن عمر التفتازاني المولود في تفتازان شرق إيران سنة ٧٢٢ وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند ، وبها توفى سنة ٧٩١ وله كتب كثيرة في المنطق والنحو . ومن شرح « المفتاح » السيد الشريف^(٣) الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ صاحب كتاب التعريفات الذي مر بنا ذكره ، وله أيضاً تأليفات كثيرة في المنطق وقواعد البحث . وصنع الخطيب القزويني خطيب جامع دمشق في سنة ٧٣٩ تلخيصاً لهذا المتن موجزاً أشد الإيجاز . فتصدى له سعد الدين مسعود التفتازاني بالشرح ، وشرح شرحه تلميذه السيد الشريف الجرجاني بعمل حاشية عليه . ويتوقف عمل علماء البلاغة في إيران عند صنع الشروح والمتون الموجزة التي يعوِّدون إليها بالشرح وشرح الشرح أو وضع الحواشي عليه .

النية ص ١٢٨ وحبيب السير لخواندمير ٢٣/٣ - ٨٧

(٣) انظر في ترجمة السيد الشريف حبيب السير

لخواندمير ٣/٣ ، ٨٧ والبلد الطالع ٤٨٨/١ وبغية

الوعاءة دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في تحليل المفتاح كتاب البلاغة : تصور

وتاريخ ص ٢٨٧ .

(٢) راجع في ترجمة سعد التفتازاني روضات الجنات

ص ٣٠٩ والبلد الطالع للشوكاني ٣٠٣/٢ والقوائد

وعلى نحو ما نشطت المباحث البلاغية في إيران نشطت المباحث النقدية في هذا العصر، وأول ما يلقانا منها رسالة الصاحب بن عباد في الكشف عن مساوى المتنبي، وهو فيها ساخط عليه سخطا شديدا، وقد يردّ سخطه إلى عامل شخصي هو أن المتنبي أبقى أن يمدحه، وأهم مساوى المتنبي في رأيه الغموض في أشعاره على طريقة الصوفيين في عباراتهم الموهمة، وأنه استخدم الألفاظ المعنة في الغرابة، ورداءة المطالع كما يقول، والمبالغة المسرفة والاستعارة الذميمة، والنظم على القوافي النضبة. ويلقانا في خراسان لعصر نوح بن منصور الساماني (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ). راوية للمتنبي يسمى المتيّم^(١) وله فيه وفي شعره كتاب الانتصار النبي عن فضل المتنبي وهو من الكتب المفقودة. وكان المتنبي قد شغل الناس في إيران وغير إيران وأكثرها من التخاصم والجدل في شعره، فألف علي^(٢) بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه، وكان من قضاة الدولة البويهية في إيران، فرأى أن يعرض شعر المتنبي على موازين القضاء العادل، وهدته هذه الموازين منذ الصفحات الأولى إلى أنه ينبغي أن لا يُحكّم على الشاعر بما أساء فيه، فلكل شاعر إساءاته وسقطاته. وإنما يحكم عليه بإحسانه وما جود فيه، ولذلك سارع إلى الحديث عن أغلاط الشعراء القدماء والمحدثين في معانيهم وألفاظهم، ليبين أن شاعرا ممتازا من السابقين لم يخل شعره من هذه الأغلاط، وعرض لبعض ألوان البديع وصوره، ويفيض في بيان الحسن والقيبح عند الشعراء وخاصة عند أبي نواس وأبي تمام. ويلمّ بطائفة من آيات المتنبي التي أخذت عليه ليعد في الاستعارة أو غرابة في اللفظ أو تعقيد في الكلام. ويوضح كيف أن ذلك عند المتنبي قليل. ويشيد بمطالعه الجيدة وحسن تلخيصه ومعانيه الدقيقة. ويتحدث عن سرقاته حديثا مستفيضا مبيّنا أن السرقات شركة بين الشعراء جميعا. ولعلّ بن عبد العزيز في ثنايا كتابه نظرات نقدية تحليلية رائعة، منها ما يتصل بالعلو والمبالغة في الشعر، ومنها ما يتصل بأثر البيئة في الشعر والشعراء، ومنها ما يتصل بدقائق التشبيهات والاستعارات^(٣). ويأتي بعده الثعالبي^(٤) المتوفى سنة ٤٢٩ ويعقد في كتابه البيّمة فصلا طويلا عن المتنبي فيما له وما عليه، استغرق من الكتاب نحو مائة صفحة، وقد استهله بقوله عنه: «نادرة الفلك، وواسطة عقد الدهر في صناعة

(١) انظر في التيم البيّمة ١٥٧/٤ ومعجم الأدباء (٣) راجع في الثعالبي دمية القصر وابن خلكان ١٧٨/٣

وعبر الذهبي ١٧٢/٣ وشذرات الذهب ٢٤٦/٣ ونزهة الألباء ص ٣٦٥ وروضات الجنان ٤٩٢ ومرآة الجنان ص ١٣٢ ومترجم للمؤلف بين شعراء.

(٢) انظر في تحليل الوساطة كتابنا البلاغة: تطور وتاريخ

٥٣/٣ ومعاهد التنصيص ٢٦٦/٣.

الشعر» ويبدأ بنيد عن ابتداء أمر المتنبي ، ويورد بعض أخباره ، ثم يعرض طائفة من معانيه التي استظهرها عليه الكتاب في عصره برسائلهم من أمثال الصحاح بن عباد وأبي إسحق الصائبي وأبي العباس الضبّي والخوارزمي ، كما يعرض طائفة من المعاني التي سرقتها الشعراء منه من أمثال أبي الفرج البغّاء والمهلبى الوزير والصحاح بن عباد والسري الرفاء ويقول عنه إنه كثير الأخذ من المتنبي ، ويذكر معه أيضاً أبا بكر الخوارزمي وأبا الفتح البستي وأبا الحسن السلامي وأبا القاسم الزعفراني . ويعرض لبعض سرقات المتنبي من غيره وما تكرر من معانيه ، ثم يسترسل في بيان مساوي شعره مستضيئاً في ذلك بما كتبه الصحاح بن عباد في رسالته آنفة الذكر ، ثم يفيض في بيان محاسن شعره ، مشيداً بنسبته بالأعرايات ، ومخاطبة المدح بمثل مخاطبة المحبوب والصدّيق ، واستعمال ألفاظ الغزل والنسب في أوصاف الحرب وما اشتهر به من الأمثال والحكم وطرائف المعاني . وكان يعاصر الثعالبي ناقد يسمى أبا القاسم ^(١) عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني عاش في النصف الأخير من القرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس ، وقد ألف كتاباً نشر أخيراً في تونس سماه الواضح في مشكلات شعر المتنبي ، ذكر في مقدمته نبذة عن المتنبي عرض فيها لنشأته في الكوفة ولبعض أخباره عن معاصريه من البغداديين والشاميين والشيرازيين ، ورواه في هذه المقدمة بحجّ الاعتقاد ، وقال إنه وقع في صغره إلى شخص يسمى أبا الفضل من الكوفة كان من المتفلسفة فهوّسه وأصله . ثم مضى يستدل بأبيات من شعره على أخذه بمذهب السوفسطائية وعقيدة التناسخ ورأى الفضائية والإسماعيلية ، وعرض لوصف شعره وأن نعت الخليل والحرب من خصائصه ، وأن له النادر البدع ، وفي بعض ألفاظه تعقيد وتعويض . ثم أخذ يناقش ابن جنّي في كثير من تفسير شعره مرتباً الأبيات التي ناقشها على الحروف الهجائية ، وهو يدل في نقاشه على قدرة في فهم الشعر وتحليل معانيه . وقد بدأ تحليلاته بقول المتنبي :

أَحِبُّهُ وَأَحَبُّ فِيهِ مَلَامَةٌ إِنْ الْمَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ

وذكر أن ابن جنّي زعم أنه ناقض بذلك أبا الشّيص في قوله :

أَجِدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَاكَ لِذِيذَةٍ حُبًّا لِدُكْرِكَ قَلِيلُنِي اللَّوْمِ

ويعلق على ذلك بقوله : معنى المتنبي بخلاف قول أبي الشّيص ، وإنما يريد المتنبي : إني أحب حبيبي واللّوام ينهون عنه فكيف نأترف ، وأبو الشّيص يريد بقوله : أحب اللوم لانهي عن هواك بل لتكرر ذكرك في تضاعيف الكلام وأثناء الملام . ومضى الأصفهاني على هذا النحو يورد على ابن جنّي بعض تفسيراته لشعر المتنبي حتى نهاية الكتاب . وعنى بالرد

على تفسيرات ابن جني إيراني^١ ثان هو أبو علي بن فورجة^(١) البروجردي المتوفى سنة ٤٣٧ وقد كتب في ذلك كتابين : كتاب الفتح على فتح أبي الفتح لابن جني يقصد كتابه الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي وقد نشره الدكتور محسن غياض ببغداد نشرة علمية محققة. ولابن فورجة كتاب ثان في الرد على ابن جني سماه كتاب التجني على ابن جني ، والأبيات في كتاب الفتح مرتبة على الحروف الهجائية ، وعماده الرد على ابن جني ، وفيه أيضاً ردود على القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في وساطته وأبي علي الخاتمي في رسالته الحامية والصاحب بن عباد في كشفه عن مساوي المتنبي ، وهو يفظ - كما لاحظ الدكتور غياض - في ردوده على الصاحب إذ يراه متحاملاً عليه متجنباً ! وفيه يقول :

« ما شهدت أحداً من الفضلاء وذوي العقول يذم المتنبي غير هذا الظالم » . ويبدو من ملاحظات ابن فورجة في الكتاب وسوقه لكلامه أنه من أنصار المتنبي وأنه درس شعره دراسة نقدية جيدة جعلته يطلع على كثير من خصائصه ، من ذلك ملاحظته على البيت :

وإني لمن قوم كأن نفوسنا بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

فقد لاحظ أن المتنبي في فخره قال كأن نفوسنا ولم يقل كأن نفوسهم بإعادة ضمير الغيبة على القوم ، وهو ضرب من الالتفات ، إذ يلتفتون من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم كما في البيت أو ضمير المخاطب . ثم قال إن ابن جني سأله عن ذلك فقال إنه إذا أعاد الذكر على لفظ الخطاب كان أبلغ وأمدح من أن يرده على لفظ الغيبة ، ويعقب على ذلك ابن فورجة بقوله : « وقد استقرت شعره كله فوجدته لا ينزل عن هذا المذهب في كل ما مدح به ، فإذا أورد ضميراً في ذم رده إلى الكلام الأول فتادياً أن يخاطب به مواجهاً أو يرده إلى نفسه مخبراً (أى أنه يرد الضمير إلى الغيبة) . ومع أنه يبدو دائماً مدافعاً عن المتنبي وخاصة أمام الصاحب كما قدمنا فإنه ينص على بعض سيئاته ، فيقول في قصيدته « مُلِيتُ القطر أعطشها ربوعاً » هذه القصيدة كلها من الشعر الرذل الذي لا يُتفجع به ولا بتفسيره . وحرى بنا أن نذكر تمة لهذا النشاط النقدي الذي عقده النقاد الإيرانيون حول شعر المتنبي شرح على بن أحمد الواحدى الذي مر ذكره^(٢) لديوان المتنبي ، وقد ألفت شروح كثيرة للديوان ولكن نخص هذا الشرح بالذكر هنا ، لا لأنه أفاد من كل الشروح السابقة له ، بل لأنه رتب أشعار الديوان ترتيباً تاريخياً على حياة المتنبي وأيامه ، وهو ما لم يتح لديوان

(١) انظر في ابن فورجة تمة الشيعة ١ / ١٢٣ ومعجم الأدياء ١٨ / ١٨٨ وفوات الوفيات ٢ / ٢٤٧ وإنباه الرواة ٢ / ٢٢٣ والسبكي ٥ / ٢٤٠ وشذرات الذهب ٣ / ٣٣٠ وإن خلجان ٣ / ٣٠٣

(٢) راجع في الواحدى دمية القصر ومعجم الأدياء ١٨ / ١٨٨ وفوات الوفيات ٢ / ٢٤٧ وإنباه الرواة ٢ / ٢٢٣ والسبكي ٥ / ٢٤٠ وشذرات الذهب ٣ / ٣٣٠ وإن خلجان ٣ / ٣٠٣

آخر من دواوين شعراء العرب قاطبة . بحيث أصبح الديوان معداً لكي يستغله الباحثون في كتابة ترجمة حياة المتنبي على نحو ما صنع بلاشروطه حسين . وفي الشرح نظرات نقدية كثيرة ، وخاصة في الأبيات الغامضة التي يختلف فيها الشراح ، فإن الواحدى يقارن بين أقوالهم وينفذ إلى الفكرة الصائبة دائماً ، مما يدل على قدرة نقدية حقيقية وذوق أدنى جيد .

٤

علوم التفسير والحديث والفقه والكلام

نشط العلماء لهذا العصر بإيران في تفسير القرآن الكريم ، واتضح فيه اتجاهات ثلاثة : اتجاه التفسير بالرأى ، واتجاه شيعى ، واتجاه صوفى ، وأهم ما نصادفه من الاتجاه الأول تفسير الزمخشري ، وهو يذيع فيه أفكار مذهبه الاعتزالي فالآيات الكريمة توجه مع فكرة الحرية والاختيار في أفعال العباد ومع فكرة تنزيه الذات العلية عن كل تشبيه ومع إكبار العقل ورفض كل اعتقاد في السحر والكهانة^(١) . ويقف الفخر الرازى المار ذكره آنفاً بعده في الصف المقابل فيدفع في تفسيره العظيم للقرآن « مفاتيح الغيب » آراء المعتزلة بطريقة فلسفية ، إذ كان عقله متفلسفاً إلى أبعد حد ، وهى فلسفة تظهر في تفسيره بصور كثيرة ، حين يخوض في المباحث العقلية ، وحين يرى المسألة عنده تشعب شعباً كثيرة . وكان عقله من الخصب بحيث تغدو الفكرة كأنها شجرة كبيرة ، تنفرع منها فروع ، وتنفرع من الفروع غصون إلى غير نهاية . وكان أشعري العقيدة ، فأشاع مذهب الأشاعرة في تفسيره ، وتعقب المعتزلة كما قلنا معلماً عليهم وعلى أفكارهم مذهبه الأشعري السننى . ومن تفاسير هذا الاتجاه بعد الرازى تفسير البيضاوى^(٢) عبد الله بن عمر المتوفى بتبريز سنة ٦٩١ وقد سماه « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » وهو يعتمد فيه على الزمخشري وتفسيره ، كما يعتمد على الرازى وغيره من المفسرين ، وهو لا يتنحى في تفسيره باللائمة - كما يصنع الزمخشري - على أهل السنة ، وجاء بعده في هذا الاتجاه أبو البركات النسفى^(٣) المذكور بين فقهاء الأحناف في قسم العراق وقد سمي تفسيره « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

(١) انظر في تأثر الزمخشري بالاعتزال في تفسيره كتاب

المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن لجولده نسيه ترجمة (٣) انظر في السنى الدرر الكامنة ٣٥٢/٢ وتاج الزاجم رقم ٨٦ وللكنوى ١٠١ ودائرة المعارف

(٢) راجع في البيضاوى السبكي ١٥٧/٨ وبغية الوعاة الإسلامية .

وروضات الجنات ٤٥٤ وشذرات الذهب ٣٩٢/٥ ومرآة

وهذا الاتجاه في التفسير كان يرافقه اتجاه شيعي في بيئات الشيعة المختلفة بإيران ، وكانوا ينسبون من قديم إلى أئمتهم من مثل جعفر الصادق والحسن بن علي العسكري المتوفى سنة ٢٦٠ تفاسير بأسمائهم ، ومن مفسريهم في أواخر القرن الثالث محمد بن مسعود السلمى رأس الإمامية بخراسان ، ومن أشهر تفاسيرهم في هذا العصر تفسير الطوسي أبي جعفر محمد بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٠ وكان قد نشأ في طوس ، ثم رحل إلى العراق في الثالثة والعشرين من عمره ، وظل ببغداد إلى أن أصبح شيخ الطائفة ومرجع فتياها ومن أجل ذلك وضعناه في القسم الخاص بالعراق . وتلتقى بتفسير الطبرسي^(١) أبي علي الفضل بن الحسن المتوفى بطوس سنة ٥٥٢ ولقبه الطبرسي نسبة إلى طبرستان ، وقد سمي تفسيره مجمع البيان . وهو في ثلاثين مجلدا .

أما الاتجاه الصوفي فن التفاسير فيه تفسير أبي عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ وسماه « حقائق التفسير » وأهم منه تفسير القشيري الذي مر ذكره في حديثنا عن التصوف ، وهو في تفسيره كعقيدته صوفي سني ، بعيد عن متاهات الاتحاد بالذات العلية ووحدة الوجود مما يلج فيه بعض متفلسفة الصوفية ، وتغلب عليه روح الوعظ ، ومثله في هذا الاتجاه الغزالي في بعض ما يعرض له من آي الذكر الحكيم ، ولأخيه أبي الفتح أحمد بن محمد الغزالي الواعظ المذكور بين المفسرين في العراق ، تفسير ينحو فيه نحو الوعظ والتصوف ، لا يزال مخطوطاً .

ومن التفاسير العامة تفسير أبي الليث نصر بن محمد السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣ وسماه « بحر العلوم » وتفسير الثعلبي^(٢) النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٧ وتغلب عليه النزعة القصصية والنقل عن الإسرائيليات ولتلميذه الواحدى المذكور آنفاً شارح ديوان المتنبي ثلاثة تفاسير : البسيط والوسيط والوجيز وله كتاب « أسباب النزول » واختصر الفراء البغوي الحسين بن مسعود المتوفى سنة ٥١٠ تفسير الثعلبي وسَمَّى مختصره « معالم التنزيل » . ولنظام^(٣) الدين بن الحسن النيسابوري المتوفى في أواسط القرن التاسع الهجري تفسير سماه « غرائب القرآن وورائب الفرقان » ويعد مختصراً لتفسير الفخر الرازي ويتم فيه بذكر القراءات .

وظل علم الحديث ناهضاً في إيران لهذا العصر ، ومرّ بنا في كتاب العصر العباسي الثاني ما يصور مدى نهضته في هذا الإقليم ، فقد كان من إنتاجه صحيح البخاري وصحيح مسلم

(١) انظر في الطبرسي روضات الجنات ص ٥١٢ ومقدمة ٧٩/١ وإنباء الرواة ١/ ١١٩ وروضات الجنات ٦٨

تفسيره بقلم محسن الأمين وما بها من مراجع . والسبكي ٥٨/٤ والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٨٣

(٢) راجع في الثعلبي معجم الادباء ٥/ ٣٦ وطبقات

(٣) انظره في روضات الجنات ص ٢٢٥ . المفسرين ص ٥ وطبقات القراء ١/ ١٠٠ وابن خلكان

وسنن النسائي وابن ماجه القزويني وجامع الترمذي ، ويمكن أن نلحق بتلك الكتب سنن أبي داود السجستاني ، وبذلك تكون كتب الصحيح الستة من الحديث النبوي من صنْع إيرانيين . ومضى هذا النشاط يؤتي ثمارا جديدة في القرون التالية . وأول من تلقاه من كبار المحدثين في العصر محمد^(١) بن أحمد بن حيان البُستي السجستاني قاضي سمرقند ومحدثها المتوفى بها سنة ٣٥٤ ويشتهر بكتابه « الجرح والتعديل » في نقد حملة الحديث ورواته ، وكان يُملئ مصنفاته في الحديث وتُقرأ عليه أو تؤخذ عنه . وكان يعاصره ابن القطان^(٢) الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب الكامل في الجرح والتعديل أو كتاب الكامل في معرفة ضعفاء المحدثين . وخلفها ابن منده^(٣) الأصبهاني محمد بن إسحق المتوفى سنة ٣٩٥ وقد رحل طويلا في طلب الحديث وله مسند أبي حنيفة وكتب في الحديث مختلفة . وكان يعاصره أبو سليمان حمد^(٤) بن محمد الخطَّابي البُستي المتوفى سنة ٣٨٦ وألف في نقد الحديث كتباً منها إصلاح غلط المحدثين ، وله شرح على صحيح البخاري ، وهو أول من رتب أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهي : الصحيح والحسن والضعيف . وعاصره الحاكم النيسابوري^(٥) المعروف باسم ابن السَّيِّح المتوفى سنة ٤٠٤ وهو الذي جعل أصول الحديث النبوي علما مستقلا ، وكان بنو سامان أصحاب بخاري يوفدونه في سفاراتهم إلى بني بويه ، وله كتاب المستدرک على الصحيحين : صحيح البخاري وصحيح مسلم ، جمع فيه كثيرا من الأحاديث التي لم يُدخِلها في صحيحها مستدلا ببراهين قوية على أنها مستكلمة لشروطها ، والكتاب مطبوع في حيدرآباد ، مع تعليقات في الرد على مؤلفه للذهبي . وكان يعاصره ابن قُورُك^(٦) محمد بن الحسن الأصبهاني محدث نيسابور ونزيل غزنة المتوفى بها

-
- (١) انظر في ابن حيان الأنساب ٨١ والواق بالوفيات ٣١٧/٢ وتذكرة الحفاظ ١٢٥/٣ والسبكي ١٣١/٣
 وميزان الاعتدال ٥٠٧/٣ وشذرات الذهب ١٦/٣
 ولسان الميزان ١١٢/٥
- (٢) راجع في ابن القطان تذكرة الحفاظ ١٤٣/٣
 وميزان الاعتدال ٢/١ ولسان الميزان لابن حجر ٦/١
 وشذرات الذهب ٥١/٣ .
- (٣) راجع في ابن منده أخبار أصبهان لأبي نعم ٣٠٦/٢
 وتذكرة الحفاظ ٣٣٨/٣ ولسان الميزان ٧٠/٥ .
- (٤) انظر في الخطَّابي السبكي ٢٨٢/٣ وإنباء الرواة ١٢٥/١ والأنساب ٨٠ ب ٢٠٢ ب ومعجم الأدباء
- ٢٦٨/١٠ وابن خلكان ٢١٤/٢ وتذكرة الحفاظ وبيمة
 الدهر ٣٣٤/٤ .
- (٥) راجع في الحاكم النيسابوري الأنساب ٩٩ ب
 والسبكي ١٥٥/٤ وتذكرة الحفاظ ٢٢٧/٣ وطبقات
 الفقهاء ١٨٤/٢ ولسان الميزان ٢٣٢/٥ والمتنظم ٢٧٤/٧
 وتاريخ بغداد ٤٧٣/٥ واللباب ٩٥/٢ وابن خلكان
 ٢٨٠/٤
- (٦) انظر في ابن قورك السبكي ١٢٧/٤ والواق
 ٣٤٤/٢ وابن خلكان ٢٧٢/٤ والشفرات ١٨١/٣
 والنجوم الزاهرة ٢٤٠/٤ .

سنة ٤٠٦ وكان شديد الرد على الكرامية وله كتب كثيرة في الحديث والفقه الحنفي ، منها بيان مشكل الحديث ، ورد على الملحدة والمعلطة والمبتدعة من الجهمية والمعتزلة ، وكتب مصنفات أخرى في نفس الموضوع ردا على المشبهة والمجسمة . ومن كبار المحدثين التاليين أبو إسحق الإسفراييني المتوفى سنة ٤١٨ وأبو نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ ويشتهر بكتابة « حلية الأولياء » والبيهقي^(١) أبو بكر احمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٥٨ بنيسابور ، وبها كان يعل كُتبه وتصانيفه ومن أهمها كتاب السنن الكبير ، وكتاب معرفة الآثار . وازدهرت دراسات الحديث في عصر السلاجقة ازدهارا عظيما ، كان من ثمارها ظهور الفراء البغوي^(٢) المار ذكره بين المفسرين وله مصنفات كثيرة في الحديث والفقه الشافعي وتفسير القرآن الكريم ، وأهمها كتابه المصاييح جمعه من كتب الصحاح الستة وبوبه وقسم الأحاديث في كل باب إلى صحيحة وتشمل كل ما أخذه من صحيح البخاري ومسلم وإلى حسنة ، وما رأى فيها من ضعف أشار إليه . وجاء بعده في القرن الثامن الهجري محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي فرتبه ترتيبا جديدا وأتمه سنة ٧٣٧ وسماه مشكاة المصابيح ، وألف بجانب المشكاة كتابا في رجالها سماه أسماء المشكاة ، وهو تراجم للرواة المذكورين في المشكاة أتمه سنة ٧٤٠ . وظلت دراسات الحديث وروايته ناشطة بإيران في القرون التالية .

ولم يكن النشاط في علم الفقه أقل منه في علم الحديث ، بل ربما كان أوسع وأعظم ، وقد استقرت منذ أوائل العصر المذاهب الفقهية الكبرى : مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعي ومذهب ابن حنبل ، ولم يكن المذهب الحنبلي شائعا في إيران ولا في أي إقليم من أقاليمها ، ومع ذلك لا نعدم أن نجد فيها بعض الحنابلة في هراة وهمذان^(٣) من مثل أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري صاحب كتاب ذم (علم) الكلام ، وكان محدثا يتظاهر بالتجسيم والتشبيه ، وينال من الأشاعرة^(٤) وربما كان المذهب المالكي أقل أتباعا حتى ليروى أن أحمد بن فارس اللغوي الذي ذكرناه في غير هذا الموضع وكان شافعيًا كان ينزل الرئي ، فصار مالكيًا ، كما يقول ياقوت في ترجمته بمعجم الأدباء ، فسئل في

(١) راجع في السبقي تذكرة الحفاظ ٣/٣٠٩ واللباب ١٢٥٧/٤ وشذرات الذهب ٤/٤٨ والحوام الزاهرة ٢٢٣/٥
 (٢) ١٦٥/١ والأنساب ١٠١ وابن خلكان ١/٧٥ والسبكي ٨/٤
 (٣) أحسن التقاسيم للمقدسي ١٧٩ ، ٣٩٥ ، ٤٣٩ ، ٤٨١
 (٤) انظر في البغوي السبكي ٧/٧٥ وابن خلكان ٤٨١
 (٥) ١٣٦/٢ وتهذيب ابن عساکر ٤/٣٤٥ وتذكرة الحفاظ ٤/٢٧٢ والسبكي ٤/٢٧٢

ذلك ، فقال : دخلتني الحمية لهذه البلدة ، بقصد مدينة الري ، كيف لا يكون فيها رجل على مذهب مالك الرجل المقبول القول على جميع الألسنة . وكان مذهب داود الظاهري أكثر اتباعا في إيران أثناء القرن الرابع ، ولكن لم يلبث أن تراجع وخفت صوته أمام المذهبين الكبيرين . مذهب الشافعي ومذهب أبي حنيفة .

وكان لمذهب الشافعي الغلبة وخاصة في شرق إيران وما وراء النهر ، ويقال إن الفقيه أبا بكر ^(١) القفال المعروف بالشاشي والمتوفى سنة ٣٦٥ هو الذي نشر مذهب الشافعي في تلك الأصقاع ، ويذكر المقدسي أنه كان غالبا أيضا في كرمان ^(٢) ، وعملت مؤثرات سياسية في نشره بل في ازدهاره لعهد السلاجقة ، فإن وزيرهم المشهور نظام الملك كان شافعيًا أشعريًا عدوًا للحشاشين الإسماعيلية ، فأسس، كما مر بنا ، مدارس في جميع المدن الإيرانية الكبيرة سنة ٤٥٧ ، ورصد لها مبالغ طائلة ، لإلحاق مكاتب بها ولساكن الأساتذة ورواتبهم ، واختار لكل مدرسة صفوة من أئمة الشافعية والأشاعرة في عصره ، وظل ذلك من بعده . فكان طبيعيا أن يزدهر المذهب الشافعي في إيران ازدهارا عظيما وأن يتألق في دراساته الفقهية فقهاء كثيرون ، يُعدون في الذروة من الإمامة والقدرة على الفُتيا ، ولولا أن الاجتهاد بالمعنى الواسع كان قد أغلقت أبوابه ، ولم يبق لهم إلا الاجتهاد في الفروع ، لتطوروا بالفقه الشافعي تطورا عظيما . ومن أهم من تلقاه منهم لعصر السلاجقة أبو ^(٣) إسحق الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ وقد عينه نظام الملك لتدريس فقه الشافعي بنظامية بغداد كما مر في قسم العراق ، وكان يقابله في نظامية نيسابور إمام الحرمين الجويني ^(٤) عبد الملك أبو المعالي إمام الأئمة لعصره على الإطلاق المتوفى سنة ٤٧٨ . وقلنا في غير هذا الموضع إنه كان يحضر دروسه أربعائة تلميذ ، ورُزق من التوسع في العبارة وعلوها ما لم يُعهد من غيره ، وله بنيت المدرسة النظامية بنيسابور ، وظل فيها ثلاثين سنة يلقي محاضراته ، وسُلم له المحراب والمنبر والخطابة ومجلس الوعظ يوم الجمعة وله تصانيف كثيرة منها النهاية في الفقه الشافعي والشامل ، والرهان في أصول الفقه . ومن تلاميذه الغزالي وأجل تلاميذه بعده إلكيا الهراسي ^(٥)

- (١) انظر في ترجمة القفال الأنساب ٤٦٠ وابن خلكان ٤٦/٣ وعبر المذهبي ٣٣٨/٢ والنووي ١١٢/٤ وتذرات ٢٩/١
- (٢) الذهب ٢٠٧/٣ والسبكي ٢٠٠/٣
- (٣) (٤) راجع في الجويني الأنساب الورقة ١٤٤ والمتنظم ١٨/٩ وابن خلكان ١٦٧/٣ والسبكي ١٦٥/٥ والمقدسي ٥٠٧/٥ وتذرات الذهب ٣٥٨/٣
- (٤) (٢) لتدسي ص ٤٦٨
- (٣) انظر في ترجمة أبي إسحق الشيرازي السبكي ٢١٥/٤ والمتنظم ٧/٩ والذهب ٢٣٢/٢ والأنساب
- (٥) مرّت مصادر ترجمته بين المفسرين في العراق .

على بن محمد المتوفى سنة ٥٠٤ بدأ حياته العلمية معيداً لإمام الحرمين ، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة ، ثم تولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد إلى وفاته . وكان يعاصره أبو المحاسن الرويانى ^(١) عبد الواحد بن إسماعيل المتوفى سنة ٥٠٢ بآمل شهيدا على أيدى الباطنية الملاحدة ، وكان مدرس نظامية طبرستان وكان الوزير نظام الملك كثير التعظيم له لكمال فضله وله كتاب البحر فى الفقه وهو من أطول كتب الشافعيين وكتاب الكافى ، وصنف فى الأصول والخلاف . ومن كبار فقهاء الشافعية فى القرن السادس فخر الدين الرزازى محمد بن عمر الطبرستانى الأصل الرازى المولد المتوفى سنة ٦٠٦ فريد عصره ، ومر بنا الحديث عن تفسيره وعن كتاب له فى البلاغة ، وله كتب كثيرة فى علم الكلام وفى الحكمة وفى الطب ، يقول ابن خلكان : انتشرت تصانيفه فى البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة ، فإن الناس اشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين ، وله فى الفقه وأصوله كتب مختلفة ، وكان يعظ مواطنيه باللسانين العربى والفارسى ، ونزل بأخرة من عمره فى هراة . وبها توفى ، وله مواعظ طريفة . وكان قريبا من عصره الرافعى ^(٢) المتوفى سنة ٦٢٣ وكان إماماً كبيراً فى التفسير والحديث والأصول ، أما الفقه فكان فيه - كما يقول السبكى - عمدة المحققين وأستاذ المصنفين ، وهو قزوينى ، وكان له مجلس للتفسير ولسماع الحديث والفقه ، وله الشرح الصغير والمحرر وشرح مسند الشافعى والشرح الكبير المسعى بالعزيز فى شرح كتاب الوجيز للغزالي ، واسمه يتردد فى كتب الفقه الشافعى وحواشيه التى ألقت بعده فى مصر وغير مصر .

وكان مركز المذهب الحنفى مدينة بخارى لعهد السامانيين وبعدهم ، وكثيرون علماء هذا المذهب الذين ترجمت لهم كتب طبقات الحنفية مثل الفوائد البية للكنوى والجواهر المضية لابن أبى الوفاء وتاج التراجم فى طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ، ومن مشاهيرهم فى القرن الرابع أبو بكر أحمد بن على الجصاص الرازى الذى سبق ذكره فى قسم العراق ومثله مرهناك أبو زيد الدبوسى البخارى المتوفى سنة ٤٣٠ وهو أول من أسس علم الخلاف بين المذاهب الفقهية ، وله تقويم الأدلة فى أصول الفقه . ومنهم البيزردى ^(٣) على بن محمد بن عبد الكريم السمرقندى المتوفى سنة ٤٨٢ وله المسوط فى الفقه وكتب مختلفة فى علم

(١) انظر فى الرويانى كتاب الأنساب ٢٦٣ أ والمتنظم والسبكى ٢٨١/٨ ومراة الجنان ٥٦/٤ .

١٦٠/٩ وابن خلكان ١٩٨/٣ والسبكى ١٩٣/٧ (٣) انظر البيزردى فى الفوائد البية (طبعة القاهرة) ص والنجوم الزاهرة ١٩٧/٥ ١٢٤ والجواهر المضية لابن قطلوبغا ص ٤١ والأنساب

(٢) انظر فى الرافعى تهذيب الأسماء واللغات ٢٦٤/٢ ٧٨

وشذرات الذهب ١٠٨/٥ وقنوات الوفيات ٧/٢

الأصول والتفسير . ومنهم السرخسي ^(١) محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٩٠ وكان إماما علامة متكلمًا مناظرًا أصوليًا مجتهدًا وله كتاب المبسوط في أحد عشر مجلدا ، وهو أشبه بدائرة معارف في الفقه الحنفي ، ومنهم برهان ^(٢) الدين أبو الحسن الفرغاني المتوفى سنة ٥٩٣ وله كتاب الهداية شرح البداية في مجلدين وهو من أمهات كتب الفقه الحنفي ، وعليه حواشٍ عدة . ومنهم العميدى ^(٣) السمرقندي أبو حامد محمد المتوفى سنة ٦٦٥ كان إماما في فن الخلاف ، ويقول ابن خلكان له فيه طريقة مشهورة بأيدي الفقهاء ، ومن مصنفاته الإرشاد ، واعتنى بشرحه كثير من أرباب هذا الشأن . ومنهم حافظ الدين النسفي المذكور بين المفسرين والذي مر ذكره بين فقهاء الأحناف في قسم العراق وقد ذكرنا هناك كتابه المشهور الذي يتداوله علماء المذهب الحنفي والذي سماه كتر الدقائق ، وله طبعا كثيرة في الهند ومصر ، وعنى به كثيرون فشرحوه ، ويكثر الشرح للكتب في القرون التالية . ولا بد أن نلاحظ أن كثيرين ممن مروا بنا في علوم الأوائل وعلوم النحو والتفسير والبلاغة كانوا أحنافا ولهم مشاركة في تأليف مصنفات الفقه الحنفي مثل الزنجشري وناصر المطرزي ونصير الدين الطوسي .

وكان للشيعة بإيران قههاؤهم ، ونذكر للزيدية منهم الإمام الماروني ^(٤) أحمد بن الحسين البطحاني المتوفى سنة ٤١١ وكان إماما للزيدية بجيلان وبلاد الديلم . وقد أخذ المذهب الزيدي في التضائل أمام المذهب الإمامي الاثني عشري حتى انحسر عن إيران ، وتبعه المذهب الإسماعيلي ، وخاصة بعد القضاء على فرقة الحشاشين الإسماعيلية في منتصف القرن السابع الهجري قضاء نهائيا ، على أننا نلاحظ أن فقهاء المذهب الإسماعيلي كانوا يتركون - في عهد الدولة الفاطمية - موطنهم في إيران ويتزلون القاهرة وتذبح منها مؤلفاتهم فهم أولى بأن ينسبوا إلى موطنهم الجديد ، على نحو ما صنع حميد الدين الكرمانى المتوفى سنة ٤٠٨ والمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي المتوفى حوالى سنة ٤٧٠ . أما المذهب الإمامي فهو الذى كتب له أن يذبح ويتشرف في إيران ، حتى إذا كانت الدولة الصفوية جعلته المذهب الرسمى للدولة ، ومن فقهاؤه المبكرين الذين عملوا على تأسيسه في إيران أبو جعفر القمي المتوفى سنة ٢٩٠ والكليني الرازي المتوفى سنة ٣٢٨ قبل هذا العصر بقليل ولكتابه الكافي

- (١) راجع في السرخسي الحواهر المضية والفوائد البية ص ١٥٨ وابن قطلو بقا رقم ١٥٧
 (٢) انظر في الفرغاني الفوائد البية ص ٤١ والجواهر المضية ٣٨٣/١ وابن قطلو بقا ص ٤٢ وبروكليان ٣٠٩/٦
 (٣) راجع ترجمة العميدى في الفوائد البية والجواهر المضية ١٢٨/٢ وتاج التراجم ٥٨ وابن خلكان ٢٥٧/٤ والروان ٢٨٠/١ والشذرات ٦٤/٥
 (٤) انظره في بروكليان ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ٣٣٣/٣ .

أهمية كبيرة ، وبعد - كما مرّ بنا في قسم العراق - رابع أربعة من الكتب الكبرى للإمامية ، وهو فيه يتناول العقيدة الإمامية بجميع فروعها ويشتمل على أكثر من ستة عشر ألف حديث ، وشرحه كثيرون من علماء إيران الإمامية بعده . وأشهر فقهاء الإمامية في أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات ابن بابويه القمي نزيل بغداد المذكور في قسم العراق والمتوفى بالرى سنة ٣٨١ وكان أبوه كما مرّ بنا رئيس الشيعة في مدينة قم مركز المذهب الإمامي ، وبابن بابويه استعان ركن الدولة بن بويه في استخدام تعاليم الإمامية في تدبير سياسته ، وفي ذلك دليل يُضَمُّ إلى ما قدمناه من أدلة في غير هذا الموضوع على أن البويهيين كانوا إمامية . ومن أهم مصنفات ابن بابويه الأمامي واعتقادات الإمامية وكتاب من لا يحضره الفقيه ، وهو أحد الكتب الأساسية عند الشيعة ، وأكبر فقهاء الشيعة بعد ابن بابويه أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي وقد تحدثنا عنه في القسم الثاني الخاص بالعراق . ونشط علم الكلام بجانب العلوم الإسلامية السابقة ، وظل للمعتزلة طوال القرنين الرابع والخامس نشاطهم ، ومن أهم رجالهم القاضي عبد الجبار قاضي قضاة البويهيين في الرى المار ذكره في المباحث البلاغية ، وله كتاب المغنى في أبواب التوحيد والعدل ، وهو دائرة معارف واسعة في الاعتزال وأصوله ، وقد نشرت وزارة الثقافة بمصر أجزاء كثيرة منه . ومن أهم رجال الاعتزال بعده الزمخشري ومرّ بنا أنه أخذ نفسه في تفسيره بتوجيه آى الذكر الحكيم توجيهها اعتزاليا ، أسامه تأويل كل الآيات التي قد يفيد ظاهرها تشبيها ، وكذلك توجيه الأخرى التي قد تدل على فكرة القدر والجبر نحو فكرة الإرادة الحرة في أفعال العباد . وقد عُنى الشيعة دائما بالاعتزال وعدوه مؤيدا لهم في دعواتهم الشيعة ، ولعل ذلك ما ساعد على بقائه بعد القرن الخامس الهجرى ، ولكن على كل حال ضعف شأنه . ومنذ أحمد ابن حنبل وفتنة القول بخلق القرآن وأهل السنة الحنابلة يحملون على المعتزلة حملات شديدة ، حتى ليصمّونهم بالإلحاد أحيانا . ولانصل إلى أوائل القرن الرابع الهجرى حتى ينفصل - كما مرّ بنا في العصر العباسي الثاني - أبو الحسن الأشعري عن المعتزلة ، وكان قد تتلمذ لهم ، ويكوّن لنفسه مذهباً جديداً يسمى المذهب الأشعري ، وهو مذهب يقوم على التوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، وكان المعتزلة يقدمون العقل فيجعل معه بل قبله الكتاب والحديث النبوى . وبذلك أصبحت كل مسألة تُقرن فيها الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من القرآن الكريم والسنة ، ونضرب لذلك مثلاً تنزيه الله عن التشبيه الذى كان يقول به المعتزلة كما أسلفنا أخذه به ، كما أخذ يقول أهل السنة في أن الله يرى بالأبصار يوم القيامة . واستدل على ذلك بأدلة سمعية في كتابه الإبانة وبأدلة عقلية في كتابه التلخيص . وكان

المعتزلة يحتكمون دائماً في الإلهيات إلى العقل فاحتكم معه إلى الشرع والأدلة السمعية من القرآن والسنة . وتوسط بين المحدثين والمعتزلة في فكرة خلق الإنسان لأفعاله ، فقال إن هذه الأفعال لله صنعا وللإنسان كسباً وإرادة ، فالإنسان يريد بها والله يخلقها . وقال ، في مسألة خلق القرآن التي أحدثت فتنة بين المحدثين والمعتزلة في زمن المأمون والمعتمد والواثق ، إن الألفاظ المنزلة بالوحي دلالات على الكلام الأزلي والدلالة مخلوقة محدثة ، وقال إن صفات الله ليست هي عين الذات الإلهية كما قال المعتزلة ولا هي أحوال كما قال أبو هاشم الجبائي المعتزلي وإنما هي زائدة على الذات قائمة بها .

وإنما أطلنا في الحديث عن مذهب الأشعري لأنه المذهب الذي ساد طوال هذا العصر في أغلب البيئات الإسلامية وخاصة بين الشافعية والمالكية ، وكان المذهب الشافعي - كما مر بنا - منتشرًا في شرق إيران ، وكان أصحابه جميعاً أشاعرة ، ولم يلبث نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور أن أسس لهذا المذهب الكلامي وبالمثل لقرينه المذهب الشافعي كرامسي في جميع المدارس التي أنشأها - كما مر بنا - في إيران والعراق ، فازدهر المذهب ازدهاراً عظيماً ، وانتصر فعلاً على المعتزلة والسلفيين من أهل السنة جميعاً ، إذ أصبح المذهب الرسمي آنذاك وكان من أهم رجاله إمام الحرمين الجويني الذي ذكرناه بين الفقهاء ، وكان أعلم أهل زمانه بعلمى الكلام والفقاه الشافعي وبنيت له المدرسة النظامية بنيسابور كما أسلفنا ، ونرى الشهرستاني يشرح على لسانه رأيه المتوسط في أفعال العباد وأنها لله خلقاً وللناس كسباً يقول : إن نفي هذه القدرة والاستطاعة (عن الإنسان) مما يأباه العقل والحس ، وأيضاً إثبات قدرة لا أثر لها بوجه كنفى القدرة أصلاً . فلا بد إذن من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة لا على وجه الإحداث والخلق ، فإن الخلق يشعر باستقلال إيجاده من العدم ، والإنسان كما يحس من نفسه الاقتدار يحس من نفسه أيضاً عدم الاستقلال فالفعل يستند وجوده إلى القدرة ، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر تكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة الفعل إلى القدرة ، وكذلك يستند سبب إلى سبب آخر حتى ينتهي إلى مسبب الأسباب . فهو الخالق للأسباب ومسبباتها المستغنى على الإطلاق ، فإن كل سبب منها استغنى من وجه محتاج من وجه ، والبارئ تعالى هو الغنى المطلق الذي لا حاجة له ^(١) . وخلف الجويني تلميذه الغزالي ، فقاد هذا المذهب إلى النصر الحاسم ، وظل أعظم المذاهب الكلامية طوال العصر .

وكان يعتنقه الشافعية كما أسلفنا في إيران وغير إيران ، أما الحنفية فكانوا يؤثرون على

(١) انظر المثل والنعم لتنته ستان (طبعة مصطلقى البان الخليلي وتحقيق الكيلان) ٩٨/١

مذهب الأشعري مذهباً متوسطاً مثل مذهب الأشاعرة لعلم من أعلامهم ، وهو مذهب الماتريدي^(١) محمد بن محمد بن محمود المتوفى بسمرقند سنة ٣٣٣ وكان التنافس شديداً بين الماتريدية والأشعرية ، وكانوا أقرب من الأشعرية إلى المعتزلة ، ويمكن معرفة موقفهم هم والأشاعرة والمعتزلة جميعاً من مسألة الإيمان بالله فالمعتزلة يقولون بأن الوسيلة إلى ذلك التي توجهه هي العقل ، ويقول الأشاعرة بل الوسيلة الموجبة هي الشرع الذي يحتم علينا الإيمان بالله ، ويتوسط الماتريدية بين الطرفين فيقولون إن أساس الإيمان بالله الشرع كما يقول الأشاعرة ، ولكن هذا الإيمان يدركه العقل فالعقل وسيلة فيه . ومثلاً في مسألة الصفات الإلهية كان المعتزلة يقولون بأنها عين الذات الإلهية ، وقال الأشعري إنها زائدة على الذات قائمة بها ، وتوسط الماتريدية فقالوا إن الله عالم وله علم أزلي . وبينما كان المذهب الأشعري يسود في نيسابور كان المذهب الماتريدي يسود في بخارى وسمرقند وآسيا الوسطى حيث يسود المذهب الحنفي في الفقه . وكان الكرامية من الصوفية خاصة يحملون على المذهب الأشعري ، ومعروف أنهم كانوا يغلون في التشبيه . وعلى كل حال أخذت كفة المذهب الأشعري تملح حتى في بيئات الماتريدية منذ اتخاذه عقيدة رسمية للسلاجقة في عهد وزيرهم نظام الملك . وظل المعتزلة يتنازعونهم طوال هذا العصر ، حتى في نيسابور نفسها وحتى منذ عهد نظام الملك أو قبله بقليل فإن الوزير السابق له أبا نصر منصور بن محمد الكندري حسن لسلطانه طغرل بك السلجوقي أن يمنع الأشاعرة من الوعظ والتدريس وأن يعزهم عن الخطابة ، ونسبت بذلك فتنة^(٢) في نيسابور بين الأشاعرة والمعتزلة ، ولم يلبث الوزير أن قُتل وخلفه نظام الملك فازدهر المذهب الأشعري منذ هذا الحين كما ذكرنا .

وكان أهل السنة الحنابلة يخالفون الأشعرية في الأخذ بفكرة التأويل المجازي للآيات والأحاديث التي قد تدل على التشبيه والتجسيد للذات الإلهية ، دون إثباتها ، ومعروف أن الأشعري كان يقول إزاء مثل هذه الآيات كما في قوله تعالى (بل يدها مبسوطتان) إن ذلك يُفهم ولكن بلا كيف ، حتى لا يأخذ بفكرة التشبيه ، وكان أهل السنة الحنابلة يأخذون مثله بظاهر الآيات مع الإيمان بتزيه الله عن التشبيه والتشليل وكانوا يرون أن كلام الله قديم وأن القرآن لذلك غير مخلوق ، بينما توسط الأشعرية ، وقالوا إن كلام الله قديم ولكن

(١) انظر في ترجمة الماتريدي الأنساب للسمعاني ٤٩٨

والفوائد البية ص ٩٥ والجواهر المضية لابن أبي الوفا

١٣٠/٢ وابن قطلوبغا ص ٥٩ وشرح الإحياء للزبيدي

١٥/٢ ونشره الدكتور فتح الله خليف كتاب التوحيد

الذي يصور مذهبه الكلامي ، وهو كتاب نفيس .

(٢) راجع في هذه الفتنة طبقات الشافعية للسبكي

٣/٣٨٩ وترجمات عبد الكريم القشيري والحريبي وأبي

سهل بن الموفق .

ألفاظ القرآن الدالة عليه مخلوقة ، فهي ليست كلام الله ولكنها تبليغ له . وأيضاً توسط الأشاعرة كما أسلفنا بين أهل السنة الحنابلة وإيمانهم بالقدر وبين المعتزلة وإيمانهم بحرية الإرادة للإنسان . وكان ذلك كله مثار جدل عنيف طوال هذا العصر بين أهل السنة الحنابلة والأشاعرة ، وبالمثل بين الأشاعرة والماتريدية ، وكاد يحنق في القرون المتأخرة أنصار الاعتزال ، وألّفت في ذلك كلّ كتب كثيرة ، تنتصر تارة لهذا المذهب أو ذاك ، وتارة تحكى جميع المذاهب والآراء ولا نقصد كتاب الملل والنحل للشهرستاني المؤلف في القرن السادس فحسب بل نقصد أيضاً كتاب المواقف لعضد الدين ^(١) الإيجي المتوفى سنة ٧٥٦ وله شروح نفيسة للسعد التفتازاني والسيد الشريف الجرجاني وغيرهما ، وهو بشروحه موسوعة كبيرة لعلم الكلام ومذاهبه وأصحابه

٥

التاريخ

تنوعت الكتابة التاريخية في إيران كما تنوعت في كل بلد عربي ، فكان هناك المؤرخون العامون للأمم والدول ، وهناك المؤرخون للمدن ، وهناك أصحاب التراجم العامة والخاصة . ومر بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أن أكبر مؤرخي الأمم والدول في الإسلام كان مؤرخاً إيرانياً هو الطبري المتوفى سنة ٣١٠ . وأول من يلقانا في هذا العصر من هؤلاء المؤرخين المطهر^(٢) بن طاهر المقدسي المتوفى سنة ٣٥٥ وهو ليس إيرانياً كما يشهد اسمه ، ولكنه كتب كتابه بدء الخلق والتاريخ في مدينة بُست شرق إيران ، وأهداه لبعض الوزراء السامانيين ، وهو جمع لمعارف كثيرة عن الأديان . وبه كثير من الأخبار التاريخية . وكان يعاصره مؤرخ إيراني هو حمزة الأصفهاني المتوفى سنة ٣٦٠ ومر بنا حديث عنه في عرضنا لكتب الأمثال بين المصنفات اللغوية ، وله تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، وقد طُبعت منه ونُشرت بعض أقسام . وبلقانا بعده ابن مسكويه وكتابه « تجارب الأمم » وقد ترجمنا له في القسم الثاني الخاص بالعراق .

وكان في عصره المرعشي المتوفى سنة ٤٢٠ وقد صنف باسم السلطان محمود الغزنوي كتاب الغرر في سير الملوك وأخبارهم ، عني فيه بسير ملوك الفرس ، ومضى فيه حتى عصره .

(١) انظر في عضد الدين السبكي ٤٦/١٠ والدرر لابن الإسلامية وما بها من مراجع .

حجر ٤٢٩/٢ والبدر الطالع ٣٢٦/١ والشذرات (٢) انظر في بروكلمان ٦٢/٣

١٧٤/٦ والنجوم الزاهرة ٢٨٨/١٠ ودائرة المعارف

ومن هذه الكتب التاريخية العامة كتاب «الآثار الباقية من القرون الحالية» للبيروني كما مر بنا ويحمل تقاويم وجداول للشهور عند الأمم القديمة مع عرضه لأعيادها ولكثير من المشاكل الفلسفية والنزعات الدينية، وكان حرًّا الفكر ومع أنه كانت فيه نزعة إلى الاعتداد بقومته الفارسية فإنه لم يتحيّف العرب في أحكامه، بل إنه نادى بأن العربية أكثر ملاءمة للغة العلم من الفارسية. وهو يدعو في هذا الكتاب إلى نقد الأخبار التاريخية المعرّقة في القدم لما يشوبها من أساطير. ويفوق هذا الكتاب في التاريخ العام أهمية كتابه تحقيق ما للهند من مقولة الذي سبق أن تحدثنا عنه والذي يضم تاريخ هذه الأمة وجغرافية بلادها وما يتصل بذلك من دراسة لأديانها وكل ما يتصل بحياة شعبيها. وكان يعاصره العنبي^(١) محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧، واشتهر بكتابه الذي ألفه في الدولة الغزنوية لعهد مؤسسها السلطان محمود الغزنوي وقد فصل القول فيه عن هذا السلطان وعن أبيه سبكتكين وحروبهما، وخاصة حروب محمود في الهند، وسماه الجيني نسبة إلى لقبه: «جيني الدولة الذي منحه له الخليفة تكريماً، وألفه في لغة مسجوعة منمقة، حتى عدّه الفرس من روائع آثارهم الأدبية، ولذلك اعتنى به وبشرحه كثيرون منهم، ومن شروحه شرح مطبوع معه بمصر باسم «الفتح الوهبي على تاريخ أبي النصر العنبي». وعن محمد بن حسين البيهقي المتوفى سنة ٤٧٠ بكتابه تاريخ السلاطين الغزنويين، غير أن الكتاب فقد ولم يبق منه إلا جزء خاص بحوادث السلطان مسعود بن محمود الغزنوي، ولهذا يطلق عليه اسم تاريخ مسعودي، وهو باللغة الفارسية وترجم حديثاً إلى العربية وطبع في مصر باسم تاريخ البيهقي. وألف بعد ذلك الوزير أنوشروان بن خالد المتوفى سنة ٥٣٢ كتاباً في تاريخ الدولة السلجوقية. وعليه اعتمد العماد^(٢) الأصبهاني المتوفى سنة ٥٩٧ في كتابه عن السلاجقة الذي سماه «نصرة الفطرة وعصرة القطرة». ويدخل في هذه الكتب التاريخية الخاصة بالدول والسلاطين كتاب ابن عربشاه^(٣) المتوفى سنة ٨٥٤: «عجائب المقدور في نواب تيمور» وهو تاريخ مفصل لتيمور لك طبع مراراً بمصر وفي أوروبا، وحقاً ابن عربشاه ولد في دمشق، غير أنه رحل عنها إلى بلاد الروم ثم إلى سمرقند وبلاد المغول في التركستان، وتلقى العلم على الشيوخ هناك، فرباه بيران، وتولى ديوان لإنشاء هناك. وكانت تصدر

(١) انظر مصادر ترجمة العنبي في الفصل الأخير من هذا القسم.
 (٢) راجع في العماد معجم الأدباء ١٨/ ١١١ والشذرات ٤٣٢: ٤
 (٣) انظر في ابن عربشاه الضميمة التاليف ١٢٦: ٢ والشذرات ٢٨٠: ٧ والبدر الطالع ١٠٩/ ١

عنه الرسائل بالعربية والفارسية والتركية .

وللمؤرخين في إيران كتب كثيرة خصّصوا بها البلدان عارضين علماءها عرضا واسعا ،
فهي من جهة تاريخ علمي للبلدان إيران ومن جهة ثانية تاريخ علمي لعلمائها النابهين ، ومن
السابقين إلى صنع ذلك في العصر العباسي الثاني ابن منده محمد^(١) بن يحيى المتوفى سنة ٣٠١ ،
فله تاريخ أصبهان ، ومن أوائل ما يلقانا في هذا الاتجاه لأوائل هذا العصر عصر الدول
والإمارات كتاب تاريخ بخارى حتى سنة ٣٣١ لأبي بكر محمد بن جعفر الرّشخي المتوفى
سنة ٣٤٨ كُتبه لنوح بن نصر الساماني ، واختصره بعده محمد بن زفر بن عمر سنة ٥٧٤
وأكمّله مؤلف مجهول إلى عهد المغول ، ونشره شيفر في باريس . وجاء بعد الرّشخي
الحاكم النيسابوري الذي مر بنا ذكره بين المحدثين ، فألف كتابه تاريخ نيسابور أو تاريخ
علماء نيسابور ، ويقول السبكي في طبقاته إنه أكمل من تاريخ بغداد . ويؤلف
الحسن^(٢) بن محمد القمي المتوفى سنة ٤٠٦ تاريخ قم : مدينة الشيعة ، باسم
الصاحب بن عباد ، وهو مطبوع في طهران . ويؤلف أبو نعيم^(٣) المتوفى سنة ٤٣٠ تاريخ
أصبهان ويقول ابن خلّكان في ترجمته إنه نقل عن هذا الكتاب اسم أبيه ونسبه . ومن كتب
القرن الخامس تاريخ الري لأبي سعد الآبي صاحب نثر الدرر الذي عرضنا له في غير هذا
الموضع . ونلتقي في القرن السادس بتاريخ مرو للسمعاني^(٤) المتوفى سنة ٥٦٢ وتاريخ نسا
وأبيورد للشاعر المتوفى سنة ٥٧٥ .

وعُني طائفة كبيرة من المؤرخين الإيرانيين بصنع كتب التراجم ، ومنها العامة ، ومنها
الخاصة بطائفة معينة كالصوفية والفلاسفة أو الأطباء والشعراء والمغنين ، ونذكر في مقدمة
تراجم الصوفية كتاب طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن^(٥) السلمى النيسابوري المذكور
بين المفسرين المتوفى سنة ٤١٢ للهجرة وعادة يقدم معلومات دقيقة في عبارات موجزة عن
الصوفي الذي يترجم له ويذكر بعض عباراته وبعض ما كان يردده من أشعار . وأوسع منه

- | | |
|---|--|
| (١) ابن خلّكان ٢٨٩/٤ وتذكرة الحفاظ ١٠٣١ | ٢٠٩/٣ وشذرات الذهب ٢٠٥/٤ ومرآة الجنان |
| والشذرات ٢٣٤/٢ | ٣٧١/٤ والسبكي ١٨٠/٧ وتذكرة الحفاظ للذهبي |
| (٢) انظر في القمي بروكلمان (الترجمة العربية) ٢٩/٣ | ١٣١٦/٤ |
| (٣) انظر في أبي نعيم السبكي ١٨/٤ وتذكرة الحفاظ | (٥) انظر في السلمى السبكي ١٤٣/٤ وتاريخ بغداد |
| ٢٧٥/٣ وشذرات الذهب ٢٤٥/٣ والمتنظم ١٠٠/٨ | ٢٤٨/٢ واللباب ٥٥٤/١ والمتنظم ٦/٨ وتذكرة |
| وميزان الاعتدال ١١١/١ وطبقات القراء ٧١/١ وابن | الحفاظ وشذرات الذهب ١٩٦/٣ وميزان الاعتدال |
| خلّكان ٩١/١ والعبر ١٧٠/٣ | ٥٢٣/٣ |
| (٤) راجع في السمعاني المتنظم ٢٢٤/١٠ وابن خلّكان | |

في طبقات الصوفية كتاب حلية الأولياء لأبي نُعَيْمٍ صاحب تاريخ أصبهان الذي ذكرناه آنفاً ، وترجماته أوسع وأخصب . ومن كتب تراجم الأطباء والفلاسفة كتاب تاريخ حكماء الإسلام لظهر الدين البيهقي^(١) المتوفى سنة ٥٦٥ وقد يسمّى تمة صوان الحكمة ، ونشر في مصر بالاسم الأول وفي لاهور بالاسم الثاني .

واهم كتب التراجم التي عنيت بالشعراء كتاب الأغاني لأبي الفرج^(٢) الأصبهاني المتوفى سنة ٣٥٦ ويقع في نحو ٢٥ مجلداً ، ترجم فيه أبو الفرج للناهين من شعراء الجاهلية والقرون الثلاثة الأولى للإسلام . ولم يترجم لأبيه الشعراء فحسب ، بل ترجم أيضاً لأبيه المغنين والمغنيات حتى نهاية القرن الثالث الهجري . وعادة يذكر صوتاً أو كما نقول الآن أغنية ، ولذلك سماه الأغاني ، ويتلو الأغنية دائماً بترجمتها الموسيقى قائلًا مثلاً إنها من الثقيل الأول ونحو ذلك ، ويذكر اسم شاعرها ومن تغنى بها ، ويترجم إما للشاعر وإما للمغنى أو المغنية ترجمة مفصلة ، قد تمتد أحياناً إلى مائة صفحة ، وقد تزيد كثيراً ، وبذلك يطلعنا على كل ما يتصل بالشاعر من نشأة ومن علاقات اجتماعية ومن آراء لمعاصره أو للتعاد فيه ، مورداً ذلك كله بأسلوب ناصع شفاف ، يعرف كيف يروي وكيف يقصّ وكيف يسوق الأخبار سوفاً مشوقاً ، وفي أثناء ذلك يعرض عليك صور الحياة العربية والحضارة العباسية كما يعرض بعض الخلفاء ، ويخيل إليك أحياناً أنك تراهم في قصورهم وفي مجالسهم ومع حواشيهم يلهون ويطربون ، رؤية مجسمة ، تجعل الماضي أمامك حاضراً بخذافيره .

ويُعنى الثعالبي بعده بعمل موسوعته الشعرية التي أشرنا إليها والتي سماها اليتيمة أو «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر» وهي تراجم لجميع الأقاليم العربية ومن نبغ فيها من شعراء العروبة من الأندلس حتى أقصى الشرق من أقاليم إيران ولها النصيب الأوفر من الاهتمام فقد شغلت من الكتاب نحو نصفه ، وبدأ الحديث فيها بذكر ابن العميد وبعض الوزراء الكتاب الأقداد ثم تحدث عن شعراء أصبهان فشعراء الجبل فشعراء فارس والأهواز فشعراء جرجان وطبرستان فشعراء خراسان وما وراء النهر . فبعض الشعراء الناهين المقيمين ببخارى وغيرها من مدن أقصى الشرق فشعراء نيسابور . وجميعهم من شعراء القرن الرابع وأوائل الخامس ، ويقول في مقدمته إنه أورد فيه لبّ اللب ، وحبّة القلب .

وعبر الذهبي ٣٠٥/٢ وميزان الاعتدال ١٢٣/٣ ولسان

الميزان ٢٢١/٤ ومروءة الجنان ٣٥٩/٢ والشذرات ١٩/٣

والنجوم الزاهرة ١٥/٤ وروضات الجنات ٤٨٧ .

(١) راجع في البيهقي معجم الأدباء ٢١٩/١٣

(٢) انظر في أبي الفرج تاريخ بغداد ٣٩٨/١١ وتاريخ

أصبهان لأبي نعيم ١١١/٢ والمتنظم ٤٠/٧ ومعجم الأدباء

٩٤/١٣ وإنباه الرواة ٢٥١/٢ وابن خلكان ٣٠٧/٣

وناظر العين ، ونكتة الكلمة ، وواسطة العقد ، ونقش القص ، مع كلام في الإشارة إلى النظائر والأحاسن والسراقات ، غير أنه عني بأشعار الشعراء ، والاختيار منها ، ولم يُعن ، مثل أبي الفرج في كتابه الأغاني ، عناية واسعة بأخبار الشعراء إلا قليلاً جداً لا يكاد يشق غلّة . وأتبع الثعالبي اليتيمة بذيل لها سماه «تمة اليتيمة» وزع فيه الشعراء على نفس الأقسام التي ذكرها في اليتيمة ، وبينما تقع اليتيمة في أربع مجلدات كبار تقع التمة في جزءين ، وهي مطبوعة في طهران . والتمة واليتيمة تورخان لشعراء الدولتين البويهية والسامانية وكذلك لشعراء الزباريين في طبرستان والغزنويين في غزنة . ويليهما كتاب «دُمِيّة القصر وعُصرة أهل العصر» للباخرزي علي بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٧ وهو يؤرخ لشعراء زمنه ، ويجرى على نفس نظام اليتيمة ، فيؤرخ لشعراء العالم العربي ، ويُعنى خاصة بشعراء إيران وأقاليمها كما عني الثعالبي . وقد سار على غراره في العناية بشعر الشعراء أكثر من أخبارهم ، وكان الثعالبي هو المسئول عن هذا الاتجاه في الترجمة للشعراء ، إذ عمّ وشاع لا في إيران وحدها بل في أقطار العالم العربي جميعها . ويأتي بعد الباخرزي في الأهمية كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصبهاني الذي سبق أن ذكرناه بين المؤرخين وهو أيضاً يترجم لشعراء الأقطار العربية لعصره أي في القرن السادس الهجري حتى نحو سنة ٥٧٠ للهجرة ، وتراجمه أوسع ، غير أنها تصطبغ بصبغة اليتيمة ، وخصّ إيران بقسم كبير من كتابه لم ينشر حتى الآن ، ونشرت منه الأجزاء الخاصة بمصر والشام والعراق والمغرب والأندلس .

ولعل أهم كتاب في التراجم العامة هو كتاب الأنساب للسمعاني عبد الكريم بن محمد الذي ذكرناه بين المؤرخين للمدن وهو مطبوع في مجلد ضخّم بالزنكوغراف ، وهو ليس في الأنساب بمعنى نسب الشخص في آبائه ، بل هو أعم من ذلك ، إذ يعنى بأنساب العلماء والأدباء إلى بلدانهم أو قبائلهم أو أسرهم أو صناعاتهم أو تجاراتهم . ويعرف أولاً بما ينسب إليه الشخص ، وإذا كان بلدة ذكر مكانها ، وكذلك الأنساب الأخرى ثم يترجم ترجمة دقيقة لصاحب النسبة . وقد يشترك في النسب أو اللقب الواحد عدة أشخاص ، فيتحدث عن كل منهم ، أو قل يترجم لكل منهم ذاكرة مولده ووفاته . واختصر الكتاب عز الدين ابن الأثير في مصنفه اللباب في مختصر الأنساب ، وإلى الكتّابين نرجع في كثير من التراجم ، كما هو واضح في الهوامش .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

الشعر العربي على كل لسان

رأينا في حديثنا عن الحياة السياسية لإيران أنها أخذت تستشعر منذ القرن الثالث الهجري نزعة قومية قوية كان من آثارها في أوائل هذا العصر أن تقابلت دويلات وإمارات فارسية كثيرة على رقعة إيران الفسيحة ، فكان البويهيون في الوسط والجنوب ومدوا أجنحتهم حتى شملت بغداد والعراق . وكان الزياريون في الشمال بطبرستان وجرجان ، وكان السامانيون في خراسان ، وبذلك كانت إمارتهم أبعد الإمارات عن حاضرة اللغة العربية والخلافة الإسلامية : بغداد ، وتليها إمارة الزياريين في البعد . وهياً ذلك للإمارتين جميعاً أن تعملتا على إحياء اللغة الفارسية الأدبية . وكان السامانيون أسبق إلى ذلك ، لأن إمارتهم أسبق في التاريخ ، ولأنهم ورثوا إمارة الطاهريين التي سبقتهم منذ عصر المأمون ، إذ منح طاهر بن الحسين قائده المشهور خراسان طُعْمَةً له ولبنيه ، فاستقلوا بها مبكرين ، وكانت أول الإمارات الفارسية في الظهور والنشأة ، فساعد ذلك أهلها على أن يكونوا السابقين في امتشعار القومية الفارسية والعمل على استظهار شعر فارسي لهم ينافسون به الشعر العربي . وكذلك الشأن في إمارة الصفاريين التي عاصرتها ، ويذكر مؤرخو الشعر الإيراني عادة بعض أسماء الشعراء الذين عرفهم القرن الثالث الهجري ، واتخذوا الفارسية لساناً لهم ، يعبرون بها عن مشاعرهم ، وغير قليل منهم يلقه ضباب الأساطير ، وأول شاعر معروف حقاً هو الرودكي السمرقندي جعفر بن محمد المتوفى سنة ٣٢٩ للهجرة وكان يتغنى بمديح السامانيين ووزيرهم البلّعي مترجم تاريخ الطبري إلى الفارسية ، ويقال إن هذا الشاعر ترجم من العربية كليلة ودمنة شعراً فارسياً ، غير أن ترجمته سقطت من يد الزمن . وخلفه الدقيقي الطوسي المتوفى سنة ٣٦٧ وهو يدوره من شعراء الدولة السامانية ، واشتهر بأنه اعتزم نظم الشاهنامه في تاريخ ملوك الفرس وأبطالهم وأساطيرهم القديمة وأنه نظم منها

ألف بيت ، ثم حال الموت بينه وبين إكمالها ، فأكملها من بعده الفردوسي في عهد محمود الغزنوي .

ولم يهتم البوهيون أى اهتمام بهذا الاتجاه القومي في إحياء الآداب الفارسية ، فقد آثروا الانسواء تحت لواء الثقافة العربية الخالصة ، وكثير منهم أتقنوا العربية ، حتى اتخذوها لسانهم للتعبير عن عواطفهم وأهوائهم ، مما جعل الثعالبي يترجم لطائفة كبيرة منهم بين شعراء العربية في إيران . وكان وزراؤهم من كبار الأدباء وفي مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد المشهوران بأشعارهما وكتاباتهما في العربية . ومع أنه يقال إنه وفد على الصاحب شاعران قديماً له مدائحها بالفارسية ، وهما منصور بن علي الرازي الملقب بالمنطقي ومحمد بن علي السرخسي الملقب بالكيسروي ، غير أن ذلك يعدُّ شذوذاً في بيئة البوهيين ، فقد كانت بيئة عربية خالصة ، وكان مثل هذين الشاعرين يُعدَّان طارئين عليها . وبالعكس عُنت الدولة الغزنوية ، وخاصة في عهد محمود الغزنوي (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) بالعمل على إحياء الآداب الفارسية ، مع أن هذه الدولة ترجع إلى أصول تركية . وفي عهد محمود أنجز الفردوسي نَظْمَ الشاهنامه في نحو ستين ألف بيت من الشعر الفارسي^(١) ، وكان الفرّخي والعنصرى والعسجدى ومنوجهرى يتبارون في تمجيد فتوحه ومدح أبنائه . وخلقت كل هذه الإمارات السالفة في إيران الدولة السلجوقية ، وفي عهدها أخذ الشعراء الإيرانيون من أمثال أبي سعيد بن أبي الخير وسنّاقى وفريد الدين العطار وعمر الخيام والأنورى يتجهون نحو التصوف . وتعم هذه الموجة شعراء إيران في القرون التالية من أمثال الشيخ سعدى الشيرازى وجلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى وعبد الرحمن الجامى .

وينبغي أن نعرف أن نشاط هذا الشعر الفارسي وأصحابه لم يكن يُقاس في شيء إلى نشاط الشعر العربى في إيران وأصحابه طوال القرون الهجرية : الرابع والخامس والسادس . وأكبر دليل على ذلك أنه بينما أُلِّفت المجلدات الضخام عن الشعر العربى في تلك القرون على نحو ما تُصوّر ذلك مجلدات اليتيمة وذميمة القصر والحريدة لم يؤلف عن الشعر الفارسي كتاب يضم بين دفيئيه شعراؤه ، وأول كتاب عُنِيَ بهم هو كتاب لباب الألباب لعوفى المؤلف في أوائل القرن السابع الهجرى . ومعنى ذلك أنهم كانوا حتى هذا التاريخ قلة قليلة بالقياس إلى شعراء العربية ، ولو أن الفتح المغولى لم يحدث في هذا القرن لظل الشعر العربى هو المسيطر على روح الجماعة الإيرانية . ومع ذلك فقد ظل أشواطاً من التاريخ والزمن ، على الرغم

(١) ترجمت شاهنامه بمصر في العصر الأيوبي ، ترجمها عبد الرهاب عزام .
أبو الفتح البندارى ، ونشر ترجمته في القاهرة الدكتور

من الخراب الذى رافق المغول والذى عمَّ إيران ، فقد حرقوا ودمروا كل ما صادفهم من حضارة ، وكانت الحضارة العربية هى التى تسود فى كل تلك الديار ، وكان يسود معها الشعر والعلم العربيان ، فتراجعت تلك الحضارة أمام السيول المغولية وأمام ما أنزل بها جنكيزخان وهولاكو من تدمير ، حتى لقد كانا يحرقان المكتبات . أما المدن فقد أنزلا بها خرابا لا مثيل له فى التاريخ ،

وما أنزل هولاكوبيغداد من دمار معروف مشهور . وكان ذلك كله ضربة قاصمة للحضارة العربية فى إيران وبالتالي للشعر والعلم العربيين ، ومع ذلك فقد ظل العلم العربى حيا وبالمثل الشعر ، وإن فقدنا كثيراً من نشاطها الهائل القديم . ولا بد أن نعرف أن لغة العلم فى إيران ظلت حتى القرن العاشر الهجرى هى العربية ، فيها كان يكتب علماءهم وفلاسفتهم من أمثال ابن سينا والبيرونى فى القرن الخامس والزمخشري والفخر الرازى فى القرن السادس ونصير الدين الطوسى والكاتبى القزوينى المعروف بدبيران فى القرن السابع . وسعد الدين التفتازانى وعضد الدين الإيجى فى القرن الثامن والسيد الشريف الجرجانى فى القرن التاسع . فى كل هذه القرون - وخاصة حتى القرن السابع - لم تستطع الفارسية أن تستولى تماماً على ألسنة العلماء الإيرانيين ، حقا قد يكتب العالم بها رسالة أو يترجم بها عملاً من أعماله ، كما حدث أحياناً عند ابن سينا والبيرونى ، ولكن تظل العربية لغته الأساسية التى يذيع بها كتبه ومعارفه ، ومرجع ذلك إلى أن العربية كانت تفوق الفارسية فى القدرة على التعبير العلمى بفضل ما تتسم به من مرونة فى الاشتقاقات ، وأيضاً لأنها كانت قد أصبحت فعلاً لغة علمية ، تزخر بمصطلحات العلم ، فكان من الصعب أن تحل الفارسية محلها ، ويصوّر ذلك البيرونى قائلاً : « إلى لسان العرب نُقلت العلوم فى أقطار العالم ، فازدانت وحلّت إلى الأفئدة ، وسرّت محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة . . . والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية . ويعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نُقل إلى الفارسية . [ففسرى أنه] قد ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسودَّ وجهه ، وزال الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة [الفارسية] إلا للأخبار الكسروية والأسفار الليلية ^(١) . »

وظل هذا الشعور مائلاً فى نفوس كثيرين من العلماء الإيرانيين حتى القرن العاشر الهجرى ، فكانوا يشبّون فى مهاد العربية وينهلون من ينابيعها الأدبية ، بل إننا نجد ذلك نفسه عاما بين الشعراء الذين اتخذوا الفارسية لسانا لهم منذ الرودكى ، ولذلك مظهر عام

(١) انظر كتاب الأدب الفارسى فى العصر العزوى كتاب الصيدلة للبيرونى .
للدكتور على الشافى (طبع تونس) ص ٣٣٨ نقلًا عن

عنده وعند غيره ممن جاءوا بعده من شعراء الفارسية ، فإن الألفاظ العربية تكثرت في أشعارهم ، بل لذلك مظهر أبعده عمقاً وعموراً ، فإن ضروب النظم التي صاغوا فيها أشعارهم ضروب عربية ، بل قل كل عروض الأشعار عندهم من نفس عروض الشعر العربي ومادة تفاعيله وأوزانه .

وقد اشتهرت عندهم طائفة من ضروب النظم العربي وأنماطه أولها المثنوي ، وهو نفس الضرب المعروف في العربية باسم المزدوج الذي أخذ يشيع - كما مر بنا في كتاب العصر العباسي الأول - منذ بشار ، وأشاعه بعده أبان بن عبد الحميد في ترجمة كليله ودمنة وما نظم من الشعر التعليمي^(١) ، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت في حين تتحد في الشطرين المتقابلين ، وقد اختاره الفردوسي لشاهنامته والترم فيه وزن المتقارب .

والضرب الثاني القصيدة ، وموضوعها ونسقها لا يختلف في شيء عن موضوع القصيدة العربية ، فقد يكون مديحاً أو هجاء أو ديناً أو فلسفة .

والضرب الثالث الغزل ، وموضوعه غزلي أو صوفي وأبياته لا تزيد عن اثني عشر بيتاً إلا في النادر ، وهو بذلك المعروف في العربية باسم المقطعات الغزلية .

والضرب الرابع الرباعيات ، وهي تتألف من أربعة شطور ، يتفق أولها وثانيها ورابعها في قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يُختم بنفس القافية وقد لا يُختم وهو بدوره نطم عربي ظهر عند بشار وأبي نواس وأبي العتاهية^(٢) ، وكل ما للفرس أنهم مع الزمن التزموا فيه وزن خاصين سبق أن تحدثنا عنهما في قسم العراق .

والضرب الخامس المسمط ، وهو يتألف من أدوار وكل دور يتكوّن من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور في قافية واحدة ، ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية يتحد فيها مع الشطور الأخيرة في الأدوار المختلفة . وقد أخذ هذا الضرب يشيع في العربية منذ أبي نواس قبل نشأة الشعر الفارسي الحديث .

ومعنى ذلك أن الشعر الفارسي الذي أخذ ينظمه شعراء الفرس بإيران منذ القرن الثالث الهجري فصل عن الشعر العربي كما يفصل الرضيع عن أمه ، بل لقد ظل الشعر العربي يعذب طوال القرون التالية ؛ ولذلك مظاهر مختلفة فيه ، فإن موضوعاته من مديح وغير مديح هي نفس موضوعات الشعر العربي ، وإذا أخذنا موضوعاً مثل المديح وجدناه ينظم بنفس الصورة العربية ، فللمدحة مقدمة من النسب ومن وصف الطبيعة ، وكأننا نقرأ مدحة

(١) العصر العباسي الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ (٢) العصر العباسي الأول ص ١٩٧ .

عربية مترجمة على نحو ما يتضح عند شعراء الدولة الغزنوية : منوچهرى والمسجدى والعنصرى والفرخى . وإنما عندهم - على نحو ما هو معروف - شعر التصوف ، ولكنه يتغذى فى نشوئه ونموه جميعاً بشعر التصوف العربى عند الخلاج وأضرابه من القدماء وعند ابن العربى وابن الفارض والسهرورديين . ولا يوجد شاعر صوفى من فريد الدين العطار إلى عبد الرحمن الجامى إلا وهو يحسن العربية ويتربى ثقافياً فى مهادها ، ولذلك دائماً نجد لشعرائهم الصوفيين شعراً عربياً ، وهو يقل عند بعضهم حقاً ، ولكنه على كل حال يرمز فى قوة إلى هذا التواصل الوثيق^(١) بين شعراء الفارسية وشعراء العربية . وشاعت بينهم طريقة هى أن يقتبسوا فى بعض منظوماتهم شطوراً أو أبياتاً عربية ، ويسمون ذلك الممتع ، فالشطر أو البيت العربى يلمع فى المنظومة كما تلمع المنارة وتتألق . ويكثر عندهم وراء هذه الشطور والأبيات أن يضمّنوا كثيراً من أبيات منظوماتهم معانى أبيات عربية ، فضلاً عما يضمّنوها من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . وللدكتور حسين محفوظ بحث طريف بعنوان « متنبى وسعدى » طبعه فى طهران ، وفيه يذكر آيات الذكر الحكيم فى شعر سعدى الشيرازى . وتشغل من البحث نحو عشرين صحيفة . ويتلوها ما استظهره سعدى من الأحاديث النبوية فى نحو ثلاثين صحيفة ، ويعرض تضمينه لمعانى أبيات الشعر العربى فى أشعاره فى نحو خمسين صحيفة ، وهى أبيات تمتد من العصر الجاهلى إلى العصر العباسى مصورة بقوة ثقافة سعدى الشيرازى بالشعر العربى على مر العصور ، وبلى ذلك تضمين سعدى أشعاره معانى أبيات المتنبى فى نحو خمسين صحيفة . ويجانب ذلك يذكر أشعار سعدى العربية الخالصة . وسعدى أو الشيخ سعدى هو أحد ثلاثة يعدّون أنه شعراء الفرس فى تلك الحقب ، والاتنان الآخران جلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى ، بل ربما كان هو أكثر الثلاثة شعبية ومحبة بين أبناء قومه . فإذا قلنا إن الشعر الفارسى كان دائماً الاتجاه إلى الشعر العربى ، وكان هذا الشعر دائماً يقع منه موقع اليوصلة أو موقع الإبرة المغناطيسية يجذبه إليه فى قوة لم تكن مغالين .

وليس هذا كل ما يلاحظ من ولاء الشعر الفارسى للشعر العربى فى تلك القرون ، فإننا نجد أصحابه يُعْتَوْنَ منذ نشأته بمصطلحات البديع التى أخذت تتزايد وتتراكم بين شعراء العربية فى إيران وغير إيران ، وأكبر مثل يوضح ذلك « كتاب حدائق السحر فى دقائق الشعر » لرشيد الدين الوطواط المنوفى سنة ٥٧٣ للهجرة ، وقد أورد فيه ستة وخمسين قصيداً

(١) من يرجع إلى كتابات المتعالي والباهرى يعرف أن هذا التواصل قديم فقد كان كثير من الشعراء يحسن

من فنون البديع ، ونراه في كل فن يذكر أمثلة من الشعر العربي وأمثلة أخرى من الشعر الفارسي تحاكيها جرت على ألسنة الرودكي والعنصرى والفرخى والعسجدى ومنوجهرى والمنطقى وأصراهم ، وكان شعراء الفرس لم يتركوا لشعراء العربية فنا إلا حاكوه فيه ، مهما يكن معقداً أو شديد التكلف ، فن ذلك تقليدهم « لزوم ما لا يلزم » في القافية بحيث يلتزم فيها الشاعر حرفاً قبل حرف الروى ، وتقليدهم الأبيات التي يمكن بحذف أجزاء أخيرة منها أن تقرأ على وزنين ، ومن ذلك المقطع وهو أن يورد الشاعر بيتاً لا تتصل حروف كلماته في الكتابة ، والموصل وهو أن يقول الشاعر بيتاً لا تقبل كلماته التقطع في الكتابة ، والأرقط وهو البيت الذى يتوالى فيه حرف منقوط وحرف غير منقوط بالتعاقب ، والأخيف وهو الذى تتوالى الكلمات فيه كلمة منقوطة وكلمة غير منقوطة . وقد أنشدنا أمثلة من هذه الصور المتكلفة في قسم العراق ومن ذلك استخدامهم كثيراً للجز . والتضمين ، والتقسيم ، وحسن التعليل ، والمثل .

ولعل في هذا ما يوضح كيف أن الشعر الفارسي كان يتبع خطوات الشعر العربي الماضى والمعاصر له خطوة خطوة ، يتبعه في الصياغة والسهات ونحاكيه محاكاة دقيقة . وكان الشعر العربي هو الأكثر شيوعاً ، وهو الذى يدور على كل لسان ، أما في القرون الرابع والخامس والسادس فليس في ذلك شك ، حتى لرى كثيرين ممن كانوا ينظمون بالعربية والفارسية من الشعراء إنما يشتهرون بشعرهم العربي ، مثل بديع الزمان الهمداني إذ تُروى له بعض أبيات فارسية بينما له ديوان بالعربية ، وبالمثل أبو الفتح البستي ، إذ يقول الرواة إنه كان ينظم بالفارسية . ولكن هذا النظم ضاع ، وبقى له ديوانه العربي ، ومثلها الباخري ضاع شعره الفارسي إلا ما احتفظ به محمد عوف في كتابه الباب . وظل ديوانه العربي تتناقله الأجيال حيناً من الدهر . ومنذ حروب المغول وتخريبهم لإيران انعكست الحال ، فكثر من ينظمون بالفارسية ، وأصبح المعول في شهرة الشاعر على ما ينظمه بتلك اللغة ، كما هو الشأن في سعدى الشيرازى الذى مرّ بنا حديث عنه ، أما قبل ذلك فكان الشعر العربي هو الأكثر ذيوغاً . وكأنه العملة الشعبية المتداولة في بيئات المثقفين جميعاً ، فالفلاسفة والعلماء ينظمونه كما ينظمه الكتاب ، غير من كان ينظمه من الشعراء . ويُعدون بالمئات .

كثرة الشعراء

راجت سوق الشعر العربي بإيران في القرن الرابع الهجري رواجاً عظيماً ، وكان من العوامل التي أدت إلى هذا الرواج اهتمام ملوك البويهيين ووزرائهم بالشعر وأصحابه ، وفي مقدمتهم عضد الدولة ، وكان ينظم شعراً حسناً ، كما كان يؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ، كما يقول صاحب البيعة ، وقد أنشد له أبياتاً طريفة في الشراب والطرب من مثل قوله (١) :

ليس شُربُ الكأسِ إلا في المطرِ وغناء من جوارِ في السحرِّ
 وكان الشعراء يقدون عليه ويُجزل لهم في صلاتهم ومكافأتهم ، غير من كان يفرض لهم الرواتب الحسنة . وقد استحال مجلس وزيره ابن العميد إلى ما يشبه ندوة أدبية كبيرة ، فكان الشعراء يروحون ويغدون على مجلسه ، وكثيراً ما كان يطلب إليهم أن يعارضوا بيتاً يلقيه ، أو يصفوا شيئاً عرض لهم ، ونضرب لذلك مثلاً : أن بعض الوافدين حياه بآترجة حسنة ، فطلب إلى من حضره من الشعراء أن يتجاذبوا وصفها (٢) ، وابتدأ بقوله : « وأترجة فيها طبايعُ أربعُ » فقال أبو محمد بن هندو : « وفيها فنونُ اللهب للشرِّب أجمعُ » فقال أبو القاسم : « يشبهها الرائي سبيكة عسجدي » فقال أبو الحسين بن فارس : « على أنها من فارة المسك أضوعُ » فقال أبو عبد الله الطبري : « وما اصفرَّ منها اللونُ للعشق والهوى » فقال أبو الحسن البديهي : « ولكن أراها للمحبين تجمَعُ » . وبذلك تكوَّنت ستة شطور أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات على البديهة ارتجالاً . وكانت تكثر هذه المقارضات في مجالس الوزراء وغيرهم من المتأدبين ، ولعل مجلساً لم يبلغ منها ما بلغه مجلس الصاحب بن عباد إذ يقول الثعالبي في كتابه البيعة : « احتفَّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل وفرسان الشعر ، من يُرَبِّي عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ومِلْكِ رِقِّ المعاني ، فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فعولة الشعراء المذكورين كأبي نواس وأبي العتاهية والعتابي والثمري ومسلم بن الوليد وأبي الشَّيْص ومروان بن أبي حفصة ومحمد بن

(٢) البيعة ١٧٦/٣ وما بعدها .

(١) البيعة ٢/٢١٨ .

مناذر ، وجمعتُ حضرةَ الصاحب بأصبيان وبالرئى وجُرْجان مثل أبي الحسين السَّلامى وأبى بكر الخُوَارِزْمى وأبى طالب المأمونى وأبى الحسن البديبى وأبى سعيد الرُّسْتَمى وأبى القاسم الرُّعْفَرائى وأبى العباس الضَّببى وأبى الحسن بن عبد العزيز الجرجانى وأبى القاسم بن أبى العلاء وأبى محمد الخازن وأبى هاشم العلوى وأبى الحسن الجوهرى وبني النجم وابن بابك وابن القاشانى وأبى الفضل الهمدانى وإسماعيل الشاشى وأبى العلاء الأسدى وأبى الحسن الغُوَيْرى وأبى دُكْف الخرجى وأبى حفص الشهرزورى وأبى معمر الإسماعيلى وأبى الفياض الطبرى وغيرهم ممن لم يبلغنى ذكرهم أو ذهب عنى اسمه . ولذكر كل من هؤلاء مكان من هذا الكتاب إما متقدم أو متأخر . ولكل منهم ولكثيرين وراءهم فيه مدائح لا تكاد تُحصى ، ومع كل مدحة كان يأمر بصله . وكان يتبادل مع من يحضرون مجلسه مقارضات الشعر ومطارحاته وإجازاته . وكثيراً ما كان يعرض موضوعاً ، فيتنافس فيه الشعراء ، وكل يحاول أن يظهر براعته وتفوقه ، من ذلك أنه بنى قصراً بأصبيان ، فتبارى نحو عشرين شاعراً فى وصفه^(١) ، منهم أبو سعيد الرُّسْتَمى ، وفيه يقول^(٢) :

وسامية الأعلام تلحظ دونها سنا النجم فى آفاقها مُتضائلا
نسخت بها إيوان كسرى بن هرْمُزٍ فأصبح فى أرض المدائن عاطلا
متى ترها خلت السماء سُرُاداقاً عليها وأعلام النجوم موثلا
وماء على الرُّضراض يجرى كأنه صفائح تُيرُ قد سُبُكن جداولاً^(٣)

ولما حصل الصاحب ، وهو بجرجان ، على فيل ضخم كان فى عسكر السامانيين أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه فى تشييب قصيدة على وزن قافية قول عمرو ابن معد يكرب الزبيدى :

أعددتُ للحَدَثان ما بغةً وعداءةً علنَدَى^(٤)

وأشد أبو الحسن الجوهرى فى هذه المباراة قصيدة استهلها بمدح الصاحب ، ثم أخذ فى وصف الفيل وصفاً مَرِحاً يمثل قوله^(٥) :

يُزْهِى بِخُرُطُومٍ كَمَث ل الصَوْلجان يردُّ رَدًّا
أو كَمُّ راقصةٍ تش يرُّ به إلى النُدمان وجَدًّا

(١) البيمة ٢٠٣/٣ .

(٤) البيمة ٢٢٩/٣ والسابقة الدرغ . والعلندى :

(٢) الغليظ ، وأراد به القوس .

(٢) البيمة ٢٠٦/٣ .

(٥) البيمة ٢٣١/٣ .

(٣) الرضراض : الحصى الصغار فى مجارى المياه .

وكانه بوقٌ نَحَا رُكَّه لتنفخ فيه جَدَا
أذناه مِرْوَحَتَانِ أَسَا سَدْنَا إِلَى الْفَوْدَيْنِ عَقْدَا

ونفق بَرْدُونٌ (بغل) أبا عيسى بن المنجم ، بعد أن طالت صحبته له ، فأوعز
الصاحب إلى من حوله من الشعراء الندماء أن يُعَزِّوا أبا عيسى فيه وبيكوه له ،
ونظم منهم عشرة قصائد فكاهية سُمِّيت بِالْبَرْدُونِيَّاتِ منها بردونية أبا القاسم
ابن أبي العلاء وفيها يقول ^(١) :

لقد أنصفته الخيلُ ما ذُقنَ بَعْدَهُ شَعِيرًا وَلَا تَبْنَا وَمُتَنَ غَلِيلَا
وفي كلِّ إِضْطَبَّالٍ أَنِينٌ وَزَفْرَةٌ تَرَدَّدُ فِيهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلَا
ولو وَفَّتِ الْجُرْدُ الْجِيَادَ حَقْوَقَهُ لَمَا رَجَعْتَا حَتَّى الْمَابِتِ صَهِيلَا

وفي هذا كله ما يصور من بعض الوجوه حياة الشعر العربي في أصفهان والرِّي
لعهد بني بويه ، وبالمثل كان الزياريون وفي مقدمتهم قابوس بن وشمكير يشجعون
الشعراء ويجزلون لهم في العطاء ، ويذكر الباخري في دُمَيْتِه أبا بكر الخُسْرَوِي الَّذِي
كان ينظم باللسانين العربي والفارسي ، ويقول : « كانت له وظائف كل سنة من
الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير والصاحب أبا القاسم بن عباد تُدْرَعُ عليه ،
وتسابق إليه ^(٢) » . وكانت لكثيرين غيره هذه الوظائف أو الرواتب من الدولتين ،
وكذلك من الدولة السامانية ، وفي عاصمتها بخارى يقول الثعالبي : « كانت بخارى
في الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أديباء
الأرض ومؤسّم فضلاء الدهر ^(٣) » ويذكر مجلساً من مجالسها ضمَّ أبا الحسن اللِّحَّامَ
وأبا محمد بن مطران وأبا جعفر بن العباس بن الحسن وأبا محمد بن أبي الشاب وأبا
النصر الهَرْتَمِيَّ وأبا نصر الطرَبِيَّ ورجاء بن الوليد الأصفهاني وعلى بن هرون الشيباني
وأبا إسحق الفارسي وأبا القاسم الدينوري وأبا علي الرُّوزْنِيَّ إلى غيرهم ممن ينتظم في
سلكتهم من الشعراء . وليست الحواضر وحدها هي التي اقتصت بالنشاط الشعري ،
فكثير من المدن شاركها هذا النشاط مثل بلاد الجبل وجرجان وطبرستان وحوارزم
وفارس والأهواز ونيسابور وهراة . وقد بلغ عدد الشعراء الذين ترجم لهم الثعالبي في
يتميته من الإيرانيين خاصة أكثر من مائة وثمانين شاعراً ، وزادوا عن المائتين
في الندمية إلى من ترجم لهم العباد الأصفهاني في الحريدة وترجمات ضافية .

(١) البنية ٢١٨/٣ .

(٢) البنية ١٠١/٤ .

(٣) دمية القصر (ضعة دار الفكر العربي) ٢٥٩/٢ .

وكان بجانب أمراء الدويلات الإيرانية كثير من حباة الأدب والشعر في كل بلدة كبيرة ، منهم آل ميكال في نيسابور ، وفيهم يقول الثعالبي : « القول في آل ميكال وقدم بيتهم وشرف أصلهم وتقدم أقرانهم (سادتهم) وكرم أسلافهم وأطرافهم وجمعهم بين أول المجد وآخره وقديم الفضل وحديثه وتليد الأدب وطريفه يستغرق الكتب ويملا الأدرج ويحني الأفلام ، وما ظنك بقوم مدحهم البحترى وخدمهم ابن دريد وألف لهم معجم الجمهرة وسير فيهم المقصورة التي لا يُلبها الجديدان ، وانخرط في سلكهم أبو بكر الخوارزمي وغيره من أعيان الفضل وأفراد الدهر^(١) . » وبدل أكبر الدلالة على ما كان ببلدان إيران من نشاط أدبي وشعري أن نجد هذه البلدان لا تكتظ بأدبائها وشعرائها وحدهم ، بل يفد عليها كثيرون غيرهم من بلاد قريبة وبعيدة في العراق وغير العراق . على نحو ما يلقانا في نيسابور ، فقد ترجم الثعالبي لطائفة من الشعراء الطائرين عليها من بلدان شتى ، وبلغ عددهم ستة عشر شاعراً اختاروها مقاماً لهم .

وتيسابور من بلدان الدولة السامانية ، وهي صالحة لأن تكتب في شعرائها دراسة قيمة عن نشاط الشعر بها لا في عهد السامانيين وحدهم بل أيضاً في الحقب التالية ، وبالمثل بلدان إيران الكبيرة المختلفة مثل أصبهان والري والجرجانية عاصمة الزياريين وخوارزم وهرة عاصمة خلف بن أحمد ممدوح بديع الزمان الهمداني وخرزنة عاصمة الغزنويين ، فكل هذه البلدان وما يماثلها ، وحتى بلاد الشاش فيما وراء النهر يمكن أن تفرد لها دراسة تضم شعراءها في البيتة والدمية وغيرهما من كتب التراجم مثل طبقات الشافعية للسبكي ومعجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان . ومن يرجع إلى هذه الكتب يتجلى إليه أن الشعر بإيران إلى ما وراء النهر كان على كل لسان ، وكان الأمراء ورعاته في كل بلدة يقيمون له مواسم كالأعياد ، وكان الوزراء والأمراء لا يزالون يهبون الشعراء آلاف الدراهم والدنانير ، وكانوا يعيّنون لهم مرتبات ، كما مر بنا ويُعدقون عليهم إغداقاً كثيراً ، حتى ليقال إنه حصل للأيوردي الشاعر السلجوقي من الملوك والأمراء ما لم يحصل للمتنبي في عصره ولا ابن هاني في مصره . فلا عجب أن بتكاثر الشعراء ، فقد كان الشعر وسيلة لحياة رغدة . ولذلك قلنا ترى شاعراً من المئات التي ترجم لها الثعالبي في البيتة والباخرزي في الدمية والعماد الأصهباني في الخريدة إلا وهو يتكسب بأشعار لعلها تفتح له أبواب النعم .

وليس هذا وحده كل مادعا الشعر إلى النشاط في إيران ، فقد كان يُعدّ جزءاً لا يتجزأ من الثقافة العربية التي كان الناس يعكفون عليها في شغف ، وهذا هو السر في أنك قلما تجد فقيهاً أو فيلسوفاً في تلك البيئة إلا وهو ينظم الشعر ، ويتخذ أدياته في التعبير عن مشاعره ، تجد ذلك عند البيروني في ترجمته بمعجم الأدباء كما تجده عند ابن سينا ، ويتسع ذلك عند الفقهاء ، وكأنهم كانوا يُعدّون الشعر من آلات عملهم ، وارجع إلى السبكي في طبقاته فإنك تجد من وقت إلى آخر حين يترجم لفقير يذكر له أشعاراً مختلفة في الغزل وغير الغزل ، من ذلك أن نراه يترجم لمحمد بن عبد العزيز النخعي أحد أئمة خراسان المتوفى سنة ٤٣٦ هـ فيذكر له أشعاراً منها هذه الأبيات الغزلية البديعة (١) :

ما حالُ مَنْ أَسْرَ الهوى ألبابَهُ ما حالُ مَنْ كَسَرَ التصانِيَّ بابَهُ
نادى الهوى أَسْماعَهُ فأجابهُ حتى إذا ما جازَ أغلقَ بابَهُ
أهوى لتمزيقِ الفؤادِ فلم يجد في صدرِهِ قلباً فشقَّ ثيابَهُ

ومن كبار أئمة الشافعية في العصر القفال الشافعي ناشر مذهب الشافعي فيما وراء النهر ، وكان أكبر من صالح في قومه لغزو الروم عام النّفير ، وذلك أن يُقفور إمبراطور الروم أرسل إلى الخليفة المطيع قصيصة يتوعده فيها ويتوعد المسلمين بمثل قوله (٢) :

ثغوركُم لم يبقَ فيها لو هنتكم وضعفكم إلا رُسومُ العالم

ومضى يفاخر بانتصاراته وانتصارات أسلافه في كريت (إقريطش) وسروج وعلى أبواب سُميساط والحُدث ومرّعرش والمصيصة وطرسوس. وردّ عليه فخره ونقضه نقضاً الشيخ القفال بقصيصة طنانة يذكر له فيها انتصارات المسلمين عليهم قروناً متطاولة وما قتلوا من مئات الألوف من رجالهم وماسبوا من آلاف الجوارى الروميات ، بل ما قتلوا وسبوا من آلاف الآلاف على مر السنين ، وإن صواعق الموت لتوشك أن تنزل به ويجنوده ، ترسلها عليهم زحوف الخراسانيين جنود الملك الساماني منصور بن نوح (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) التي تزحف بقصصها وقضيضها ورعودها وبروقها المميته ، يقول :

أنتك خُراسانُ تجرُّ خيرَها مُسومةٌ مثلَ الجرادِ السَّوامِ

كهولٌ وشبانٌ حِماةٌ أحاميسٌ ميامنٌ في الهيجاءِ غيرَ مشائمٍ (١)
ونرجو بفضلِ الله فتحاً معجلاً نالُ يقسطنطينَ ذاتِ المحارمِ
هناك نرى يقفوراً واللهُ قادرٌ ينادى عليه قائماً في المقاسمِ
ويجري لنا في الرومِ طراً وأهلها وأموالها جمعاً سيهاً المغامرِ
فيضحك منا سنٌ جذلانٌ باسمِ ويقرّعُ منه سنٌ خزبانٌ نادمِ
وراء القفال أمةٌ في الفقه الشافعي كثيرون أنشد لهم السبكي أشعاراً في
الزهد ، وسترجم منهم للقسري بين شعراء الزهد والتصوف . وأنشد
السبكي أيضاً أشعاراً لقاضيين هما علي بن عبد العزيز الجرجاني والأرجاني وسترجم
لها بين شعراء المديح ، كما أنشد أشعاراً مختلفة للفقيه الأبيوردى وسترجم له بين
شعراء الفخر، وله ديوان كبير مثل الأرجاني ، وكان لعلي بن عبد العزيز ديوان سقط
من يد الزمن . وعلى نحو ما كان الفقهاء ينظمون الشعر كان المحدثون ينظمونه أيضاً ،
مثل حمد بن محمد الخطابي البستي الذي مرّ حديثنا عنه بين المحدثين ، وقد ترجم له
صاحب اليتيمة في جزئها الرابع وأنشد له طائفة من شعره ، وكان ينظمه أيضاً
المفسرون للقرآن الكريم من مثل الزمخشري ، وله ديوان شعر لما ينشر ، وهو زاخر
بالأدعية والابتهالات . وتروى كتب التراجم للفخر الرازي أشعاراً مختلفة ، وكان
كثيرون من اللغويين والنحويين ينظمون الشعر ، منهم الجوهري إسماعيل بن حماد
صاحب معجم الصحاح ، وله ترجمة في الجزء الرابع من اليتيمة أنشد فيها الثعالبي
طائفة من أشعاره ، ومنهم أبو الحسين أحمد بن فارس صاحب معجمي الجمل
ومقاييس اللغة ، وقد ترجم له الثعالبي في الجزء الثالث من اليتيمة وأنشد طائفة من
شعره من مثل قوله (٢) :

مَرَّتْ بنا هَيْفَاءَ مَقْدودَةٍ تَرْكِيَّةٌ تُنمِي لُتْرُكِيَّ
ترنو بطرفٍ فاتنٍ فاترٍ أضعفَ من حُجَّةٍ نَحْوِيَّ
ومنهم ابن فورجة البروجردى ، وله ترجمة في الجزء الأول من تمة اليتيمة
وكذلك في الجزء الأول من دمية القصر ، وله أشعار بديعة من مثل قوله الذي أنشده
الثعالبي (٣)

ألم تطرب لهذا اليوم صاحٍ إلى نغمٍ وأوتارٍ فصاحٍ

(٣) تمة اليتيمة ١/٦٢٤ .

(١) أحاميس : أشداء .

(٢) اليتيمة ٣/٤٠٢ .

كَأَنَّ الْأَيْتَانَ بوسعنا نثاراً من الورق المكسر والصّحاح
 تَمِيدُ كَأَنَّهَا عَلَّتْ بِرَاحٍ وما شربت سوى الماء القراح
 كَأَنَّ غُصُونَهَا شَرِبَتْ نَشَاوِي تَصَفَّقُ كُلُّهَا راحاً بِرَاحٍ
 ومرّبنا أنه كان ناقداً بصيراً ، كما كان شاعراً قذاً ، وذكر له الثعالبي معنى نقله عن شاعر
 فارسي معاصر له يسمّى المعروفي على هذا النمط .

يظنون ما تَدْرِي جفوني أدماً بل الدم منها يستحيل فيقطر
 تُعِيدُ بِيَاضاً حَمْرَةَ الدَّمِ لَوْعَى كَمَا أبيضُ ماءُ الورد والوردُ أحمرُ
 ومن أصحاب المباحث البلاغية والنقدية الذين اشتهروا بنظم الشعر أبو هلال
 العسكري صاحب كتاب الصناعتين ، وقد ضمّنه كما ضمّن كتابه ديوان المعاني طائفة
 من أشعاره ، وأنشد من ترجموا له بعض أشعاره . ومثله الثعالبي صاحب البيّمة
 ومرّبنا حديث عن بعض نظرات نقدية له ، وله أشعار مختلفة أنشد أطرافاً منها في
 كتاب لطائف المعارف وفي كتبه الأخرى . ومنها عبد القاهر الجرجاني صاحب
 دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وفي ترجمته بدمية القصر طائفة من أشعاره . وهو
 باب يطول إذا أخذنا نحصى شعراء العلماء من كل صنف ، إنما هي أمثلة فحسب ،
 أردنا بها أن نُصوِّر تفتح ينابيع الشعر العربي على ألسنة المثقفين من كل لون . وكان
 من أقربهم إلى هذه الينابيع كُتّاب الدواوين ، ولا تكاد تجد كاتباً كبيراً يترجم له
 الثعالبي في البيّمة والباخرزي في الدمية والعماد في الخريدة إلا وشعره يكاد يغلب
 نثره . بل إن كثيرين منهم تقتصر ترجمتهم على ما لهم من أشعار ، حتى إنه يكاد
 يكون من العسير أن نتعقب دواوين الرسائل وكتّابها وآثارهم النثرية عند السامانيين
 والحوارزميين والغزنويين والسلاجقة إلا ما يأتي عفواً . وكثير من كُتّاب هذه الدول
 والإمارات كانت لهم دواوين شعرية مثل أبي بكر الخوارزمي الكاتب المشهور ومثل
 بدیع الزمان وأبي الفتح البُستِي والباخرزي وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى دواوينهم ،
 ومثلهم الصاحب بن عباد والعماد الأصبهاني ، وكانهم وأضرابهم كانوا يرون أن
 الشعر هو العملة العربية المتداولة التي تحوز لصاحبها الشهرة الأدبية .

شعراء المديح

يكثر شعر المديح في هذا العصر كثرة مفرطة ، إذ كان يطلبه الملوك والأمراء والوزراء والولاة والقضاة . ومن يقرأ اليتيمة وتمتها والدمية والخريدة يرى الشعراء جميعاً يمدحون معاصريهم ، وكأن عمل الشاعر الأساسي أن ينظم في المديح ، وهو شيء طبيعي إذ كان أداة للكسب ورفاهة العيش ، ومرّت بنا كثرة الأعطيات التي كان يأخذها الشعراء وأنهم كانوا - أو كان كثير منهم - يأخذ رواتب من الوزراء والحكام . وكان لكل إمارة شعراؤها الذين يقدمون لأصحابها المدائح والتهاني في المناسبات والأعياد المختلفة الإسلامية وغير الإسلامية ، بل كان لكل أمير ولكل وزير شعراؤه الذين يروحون عليه ويغدّون بالمدائح الرائعة ، ونقف قليلاً عند الدولة البويهية فإن ما نظم في عضد الدولة يكاد يؤلف ديواناً مستقلاً ، إذ لم يكذب شاعر في إيران إلا قصده ، وقدم له مدائحه ، وقصده المتنبي بشيراز في سنة ٣٥٤ ومدحه بعدة قصائد بديعة ، كما قصده شعراء العراق وفي مقدمتهم السّلاميُّ الشاعر ، وفيه يقول مواطنه أبو بكر الخوارزمي^(١) :

غريبٌ على الأيام وجدانٌ مثله وأعربٌ منه بعد زوئته الفقيرُ
عجبتُ له لم يلبس الكبر حُلَّةً وفينا لأنْ جُرنا على بابهِ كثيرُ

وكانوا كثيراً ما بشيرون إلى النوال في مدائحهم على نحو ما صنع الخوارزمي في البيت الأول . ونظمت في مؤيد الدولة وفخر الدولة مدائح كثيرة ، ولأبي سعيد الرُستمي مدائح بديعة في أولها من مثل قوله^(٢) :

بقيتَ مدى الدنيا ومُلْكك راسخٌ وظلُّك ممدودٌ وبابُك عامرُ
يُرْدُ سَنَّاك البدرُ والبدرُ زاهرٌ ويقفو نَدَاك البحرُ والبحرُ زاهرُ

وبالمثل كان وزراء بني بويه مدحيين ، وخاصة ابن العميد والصاحب بن عباد ، أما ابن العميد فلم يقصده فقط شعراء إيران ، بل قصده أيضاً جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد البعيدة مثل المتنبي الذي وفد عليه بمدينة أَرَجَان ومدحه بقصائد

(٢) اليتيمة ٣٠٣/٣

(١) اليتيمة ١٢٢/٤

رائعة ، ومثل ابن نباتة السعدي الشاعر العراقي ، وله فيه مدائح جيدة ، وكذلك للصاحب بن عباد من مثل قوله في قدومه إلى أصبهان (١) :

قَدِمَ الرَّئِيسُ مَقْدَمًا فِي سَبْقِهِ فَكَأَنَّمَا الدُّنْيَا جَرَّتْ فِي طَرْقِهِ
وَكأَنَّمَا الأَفلاكُ طَوَّعُ بِمِينِهِ كَالعَبْدِ مَنْقَادًا لِمَالِكِ رَقِّهِ
قَد قاسمته نَجْمُهَا فنحوسُها لعدوِّه وسعودُها في أفقهِ

ولعل وزيراً بُوِيهياً لم ينل من المدائح ما ناله الصاحب بن عباد ، ومرت بنا أسماء طائفة من الشعراء الذين كانوا يلزمون بابه . وكان وراءهم كثيرون يقدون عليه من شتى البلدان الايرانية والعراقية ، وعقد لهم الشعالي في يتيمة الباب السادس من جزئها الثالث ، وذكر لكل منهم بعض مدائح فيه ، وكان من مادحيه أبو سعيد الرستمي ، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله (٢) :

وَرِثَ الوِزارَةَ كَابِراً عَن كَابِرٍ مَوصُولَةَ الإِسنادِ بالإِسنادِ
يَرَوِي عَن العِباسِ عَبادَ وِزَا رَتِهِ وإِسماعيلُ عَن عَبادِ
وهو يمدحه بأنه نشأ من الوزارة في حجرها ودرج إلى الناس من وكرها إذ ورثها عن آبائه ، وكان أبو سعيد يبالغ مبالغة مفرطة في مديحه أحياناً على عادة الشعراء في العصر ، من مثل قوله فيه (٣) :

لو كان غيرُ الله يُعبدُ ما انثنتُ إلا إليك أَعنَّةُ العُبادِ
وهي مبالغة تمجُّها الآذان . ونراه في نفس القصيدة يذكر للصاحب أنه قمع أهل الجبر ومن يقولون بأن كل شيء قدر مقدور ملغين حرية الإرادة في الإنسان ، يقول :

ونصبت للإسلام أكرمَ رايةٍ وقصمتَ أهلَ الجبرِ والإلحادِ
وكان الصاحب إمامياً معتزلياً ، والصلة بين مذهب الإمامية والمعتزلة بل بين المعتزلة والشيعة عامة معروفة من قديم ، وهو ما جعل الصاحب يتعقب أهل الجبر بالنكال إن صح ما يقول أبو سعيد الرستمي . ويقول له أبو بكر الخوارزمي من قصيدة فيه (٤) :

ومَن نَصَرَ التَّوحيِدَ والعدَلَ فعِلُهُ وأيقظَ نُوامَ المعالي شائِلُهُ
وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن المدائح لم تكن ثناء فحسب ، بل كانت أيضاً تسجيلاً لأعمال الأمراء والوزراء ، وهي لذلك ذات قيمة تاريخية مهمة ، وهي قيمة

(١) البيمة ١٥٨/٣ .

(٣) بيمة ٣٠٧/٣ .

(٢) بيمة ١٩٠/٣ ، ٣٠٧ .

(٤) بيمة ٢١٤/٤ .

تغيب عن أذهان كثيرين فيظنون أن المديح كان في العصور السابقة ملقا ونفاقاً ، متناسين أنه كان أيضاً تسجيلاً لأعمال الدولة واتجاهاتها المذهبية وما خاضت من حروب وكسبت من انتصارات . وعلى نحو ما نجد في كتاب اليتيمة وتتمتها من مدائح بنى بويه ووزرائهم نجد أيضاً مدائح السامانيين ووزرائهم من مثل البلعمى مترجم تاريخ الطبرى إلى الفارسية كما أسلفنا ، وفيه يقول أبو محمد المطرانى الشاشى^(١) :

بلوناك حين يرجى الولد سى عرُفاً ويخشى العدو النكيراً
فلم تك إلا اختياراً نفوعاً ولم تك إلا اضطراراً ضروراً
وكان أبو الحسن بن سيمجور قائد السامانيين ممدحاً ، وللمأمونى الشاعر فيه مدائح مختلفة . وبنفس الصورة يلقانا أمراء الدولة الزيارية وفي مقدمتهم قابوس بن وشمكير الذى لقبه الخليفة بلقبه : شمس المعالى ، فقد مدحه كثير من الشعراء ، وكان غيثاً مدراراً ، فأكثرُوا من مديحه .

ولابد أن نشير إلى أن هذه المدائح التى عرضنا لها سريعاً عند الزياريين والسامانيين والبيهيين تضمنت وصف ما بنى القوم من قصور مشيدة ، وأشرفنا فيما مضى إلى ما نظمه الشعراء في دار بناها الصاحب بن عباد بأصفهان . وأيضاً لابد أن نشير إلى أن الشعراء ضمنوا مقدمات مدائحهم النسيب القديم ووصف الأطلال من حين إلى حين . وأكثرُوا أيضاً من تضمينها وصف الربيع وكانوا يقفون عنده طويلاً في مقدمات المدائح بعيد التيروز . واطَّرد ذلك في مدائح سلاطين الدولة الغزنوية ووزرائها . وقصائد كثيرة نظمت باللغتين العربية والفارسية في مديح محمود الغزنوى الملقب بيمين الدولة وأمين الملة والإشادة بفتوحه في إيران وما وراء النهر وفي الهند ، ومن رائع ما مدح به قصيدة لبيدع الزمان الهمذاني يقول فيها^(٢) :

تعالى الله ما شاء	وزاد الله إيماني
أأفريدون في التاج	أم الإسكندر الثاني
أم الرجعة قد عادت	إلينا بسليمان
أطلت شمس محمود	على أنجم سامان
وأمسى آل بهرام	عبدأ لابن خاقان
إذا ما ركب الفيل	لحرب أو لبيدان
رأت عيناك سلطاناً	على منكب شيطان

(٢) اليتيمة ٤/٢٩٦ .

(١) بنية ٤/١١٦ وضروراً : مضراً .

فمن واسطةِ المسدِّ إلى ساحةِ جرجانِ
ومن قاصيةِ السندِ إلى أقصى خراسانِ

وأفريدون من ملوك الفرس الأسطوريين ، وآل بهرام هم السامانيون الذي قضى عليهم محمود وامتلك ديارهم ، ويسميه ابن خاقان لأنه تركي ، وقد ضم إيران جميعها إلى ملكه ماعدا إقليمي فارس وكرمان ، كما مر بنا في غير هذا الموضع . ويكثر بعده مديح السلاجقة ووزرائهم ، وخاصة نظام الملك . ومدأحه يتعاقبون في كتاب دُمِيَّة القصر بالعشرات ، مع أن مؤلفها البخارزي توفي قبله بنحو سبعة عشر عاماً ، ومن ذكرهم بين مدأحه الفيّاض الهروي ، وله فيه وفي فتوح سلطانه ألب أرسلان في آسية الصغرى وأسرّه لإمبراطور بيزنطة قصيدة بديعة . يذكر فيها جيش رومانوس الجزار ومناه في احتلال ديار السلطان السلجوقي ، وكيف ردّ الله كيده في نحره ، فسحق جيشه سحقاً ، وقتل منه ما لا يُحصى ، وأسر الإمبراطور ووقف بين يدي ألب أرسلان ذليلاً خانعاً ، وأهوى على الأرض يلثم التراب بين يديه . ويصوّر ذلك كله الفيّاض الهروي مشيداً بنظام الملك وقيادته مع ألب أرسلان لجيش المسلمين قائلاً^(١) :

إذا ما ملوكُ الأرضِ عُذُّوا فإنما لكم كاهلُ المجدِ الأشمِّ وغارِبُةِ
أحاسدِه مهلاً فهذي سيوفُه وهاتيكِ يومَ المكرّماتِ مواهبةِ
ويتوالى سلاطين الدولة السلجوقية ووزرائهم ويتوالى مديحهم عند الطغراني والأرجاني وغيرهما من معاصريهما . وكان وراء أمراء العصر ووزرائه كثيرون من عليّة القوم يخصّهم الشعراء بمدائحهم ، وقد ذُيِّبَت فيهم قصائد كثيرة . وكانوا يهتئون كثيراً بالأعياد فحسب ، بل أيضاً بالمواليد ، وفي اليتيمة والدُمِيَّة من ذلك قصائد ومقطوعات مختلفة . وكثُر في العصر مديح الفقهاء والعلماء بمدحهم تلاميذهم ومريدوهم والمعجبون بهم ، من ذلك ما أنشده البخارزي لأبي المطهر الأصفهاني في أستاذه الإمام الموفق محمد بن هبة الله وكان من أئمة الشافعية في نيسابور ، وله يقول تلميذه من قصيدة طويلة^(٢) :

يا أيها المولى الأجلُّ ومنْ بهِ أصبحتُ آمنٌ منْ تحصن في الدرّي
أنتبني ورعيتني وسموت لي عُصناً بأبكار البيان موراً
ولا بن عُنين قصيدة رائعة سيرّها من نيسابور إلى الفخر الرازي بهراة ، وفيها يشيد بقضائه على البدع في عصره . ويرفعه فوق ابن سينا وأرسطو وبطليموس درجات

(١) الدمية ٢٨٦/٢ وما بعدها .

(٢) الدمية ٤٣٤/١ .

في الفلسفة والطب ، غير أن ابن عنين دمشق . وعلى كل حال هو تكلمة لهذه الظاهرة التي رآها في إيران ، ظاهرة مدائح التلاميذ والمريدين لشييوخهم وأساتذتهم من العلماء والفقهاء . وجدير بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء المديح في تلك البيئة لتتضح لنا صورته ، وهم علي بن عبد العزيز الجرجاني والطُّغْرَائِي والأرْجَانِي .

علي^(١) بن عبد العزيز الجرجاني

من جُرجان ، وفد على نيسابور في صباه ، وسمع على شيوخها ، وتخرَّج بهم فقيهاً شافعيًا نابهاً ، وولى قضاء موطنه جُرجان ثم ولأه الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة قضاء الرِّيِّ ، ثم جعله قاضي القضاة بها ، وظل في هذه الوظيفة إلى أن توفي سنة ٣٩٢ وحُمل تابوته إلى جُرجان فدفن بها ، وترجم له الثَّعَالِي في يتيمة فقال : « هو قَرْدُ الزمان ، ونادرة الفلك ، وإنسان حَدَقَةُ العلم ، ودُرَّةُ تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعر ، يجمع خط ابن مُقَلَّة إلى نثر الجاحظ ونظم البحرى » . ومرَّ بنا حديث عن كتابه « الوساطة بين المتنبي وخصومه » وكيف أنه فيه يصدر عن ناقدٍ ممتاز ، بل لعله أهم ناقد ظهر في عصره . وهو في الكتاب يصور ثقافة واسعة بالشعر العربي قديمه وحديثه ، كما يصور ذوقاً شعرياً مصنوعاً . وبهذا الذوق كان ينظم أشعاره في المديح وغير المديح ، وقد روى له الثعالي طائفة من مدائحه في قواد عصره وولاية جرجان وفي شمس المعالي قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان ، وللصاحب بن عباد القِدْحُ المعلى من مدائحه من مثل قوله :

يا أيها القَرْمُ الذي بعلوِّه نال العلاء من الزمانِ السُّولا
قسمتُ يَدَاكَ على الوَرَى أرزاقها فكنتوك قاسمَ رزقها المسؤلًا

وهي مبالغة أن يجعل الصاحب يقسم على الناس أرزاقهم ، ولكنها كانت تُسْتَحَبُّ في عصره ، وكان كل شاعر يحاول أن يأتي منها بمعنى طريف . وكان الصاحب مجراً فياضاً أغدق الصلوات على زواره وقاصديه ، وله يصف بلاغته التي عُرف بها في النثر والشعر جميعاً :

سَبَقَتْ بأفراد المعاني وألْفَتْ
خواطرك الألفاظ بعد شرايرها

(١) انظر في ترجمة علي بن عبد العزيز وشعره معجم الأدباء ١٤/١٤ والبيضة ٣/٤ وما بعدها وابن خلكان ٢٠٥/٤ .
٢٧٨/٣ والسبكي ٤٥٩/٣ والمتنظم ٢٢١/٧ وشذرات

فإن نحن حاولنا اختراعَ بديعةٍ حَصَلْنَا على مسروقها ومُعَادِهَا وهو معنى طريف ، وكانت له ملكة خصبة لا تزال تمدّه بالمعاني الغربية النادرة ، وكان يعرف كيف يقتنصها وكيف يوردها في مداخه من مثل قوله للصاحب :

لا وجفونٍ يَغْضُهَا العَدْلُ عن وجناتٍ تذيبها القُبْلُ
ما عاش من غاب عن ذرّاك وإن آخرَ ميقاتٍ يومه الأَجَلُ^(١)
وله في عياداته حين يمرض قصائد بديعة ، وأخرى في تهنئته حين يُبَلِّ من مرض ألمّ به أو حُمى نزلت بجسده ، وكان يتخيلها من تلهب ذهنه وتوقد ذكائه ، ومن قوله في تهنئة له بالشفاء :

بك الدهرُ يَنْدَى ظِلُّهُ وَيَطِيبُ وَيُقَلِّعُ عَمَّا ساءنا ويتوبُ
وأشد له الثعالي قصيدة طويلة في وصف دار الصاحب التي بناها بأصبهان وتبارى الشعراء في وصفها على نحو ما مر في حديثنا ، كما أنشد له أيضاً قصيدة فكهة في رثاء برذون أبي عيسى بن المنجم ، استهلها بقوله :

جَلَّ اللهُ مادهاك وعزّا فغزّا إن الكريمَ مُعزّي
هي ما قد علمت أحداثُ دهرٍ لم تدع عُدةً تُصان وكترّا
وكان يمزج بين الطبيعة والمديح مزجاً بديعاً لا يكتفى فيه بأن يجعل الطبيعة مقدّمة للمديح كما كان يصنع الشعراء كثيراً من حوله ، بل يجعلها جزءاً من المدح ومن عمله وشيمه وفكره ، وكأنها صورة منه ، أو كأنها مرآة له ، يقول في وصف بعض الرياض الجميلة الساحرة مادحاً لأبي مضر محمد بن منصور والي جرجان :

أبانتْ يَدُ الأَسْتاذِ بين رياضها تدفقُ أم أهدتْ إليها سَحابها
أَلْبَسَهَا أخلاقَه العَرَّ فاغتدتْ كواكبها تجلّو علينا كواكبها
أوشّتْ حواشيتها خَواطِرُ فكره فأبدتْ من الرّهر الأنيق غرائبها
أخالته يَصْبُو نحوها فترَبَّنتْ تؤمّل أن يختار منها ملاعبها

ولعل في ذلك ما يدل على قدرة الشاعر التصويرية ، وهي قدرة تلقانا في غزله كما تلقانا في مديحه ، على نحو ما نقرأ في قوله يصف بعض ليالي أنسه مع مَنى قلبه :

وليالٍ كأنهن أمانُ من زمانٍ كأنه أحلامُ
وكان الأوقات فيها كئوسُ دائراتُ وأنسهن مُدامُ

(١) الذرّاء : الكنف والظل .

زمنٌ مُسْعِدٌ وإِلْفٌ وَصُولٌ وَمُنَى تَسَلِّدُهَا الأوهام
وواضح ما في الآيات من خيال دقيق ، فكأنه كان يعيش في حلم ، يتعاطى خمرة
الأنس المسكرة ، ومن قوله في الغزل :

قد بَرَّحَ الشوقُ بِمَشَاقِكُ فَأَوْلِهِ أَحْسَنَ أَخْلَاقِكُ
لا تَجْفَهُ وَارِعَ لَهُ حَقَّهُ فَإِنَّهُ آخِرَ عُشَّاقِكُ

والبيتان يحملان شعوراً مرهفاً رقيقاً ، وكان إلى ذلك كله شغوفاً بالعلم ، يراه متعة
لا تعدلها متعة ، ولذلك كان يألف دائماً الخلوة للقراءة في منزله ، وفي ذلك يقول :

ما تطعمتُ لَذَّةَ العيشِ حتى صرتُ للبيتِ والكتابِ جَلِيساً
ليس شيءٌ أعزُّ عندي من العِلْمِ سم فما أبغى سواه أنيساً
فلذة القراءة لا تعدلها عنده لذة . وكانت نفسه أتيه شديدة الإباء ، لا يهينها ولا يذلها
فدون الذل والهوان الموت ، وفيم يذل الإنسان ويهون أفي سبيل المال والغنى ؟ بؤساً لها وله
إن هو اقترف في نفسه هذه الجنابة الكبرى ، وفي ذلك يقول :

كأني أَلَاقِي كُلَّ يَوْمٍ بِنُوبِي بِذَنْبٍ وَمَا ذَنْبِي سِوَى أَنِّي حُرٌّ
وَقَالُوا تَوَصَّلْ بِالخُضُوعِ إِلَى الغِنَى وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الخُضُوعَ هُوَ الفَقْرُ
وَبيني وبين المالِ شَيْئَانِ حَرَمًا عَلَى الغِنَى : نَفْسِي الأَيُّهُ وَالذَّهْرُ
إن مثل هذا الغنى الذي يكسبه صاحبه بالخضوع هو الفقر الحقيقي الذي يدمر حياة
الإنسان ، فتعساً لمن يطلبه عن هذه الطريق وتباً له . وله أبيات رائعة في عزة النفس ،
وخاصة عزة نفس العلماء ، اشتهرت في عصره وبعد عصره ، وهو يمضي فيها على هذا
النمط :

يقولون لي : فيك انقباضٌ وإنما رأوا رجلاً عن موقفِ الذلِّ أَحْجَبًا
إذا قيل : هذا مُنْهَلٌ قلتُ : قد أرى ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتَمِلُ الظَّمًا
ولم أقضِ حقَّ العلمِ إن كان كلما بدا طمعٌ صَبْرَتُهُ لِي سَلَامًا
ولم أبتذلْ في خدمةِ العلمِ مُهْجَتِي لأخْذَمَ من لا قِيَتُ لَكِنْ لأخْذَمًا
أَشَقَى بِهِ غَرَسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةٌ إِذْ نَ فَاتَّبَعُ الجَهْلَ قد كان أَحْزَمًا
ولو أن أهلَ العلمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ولو عَظَمُوهُ في النفوسِ لِعَظَمًا
ولكنَّ أَهَانُوهُ فَهَانَ وَدَسُّوا مَحْيَاهُ بِالْأَطْمَاعِ حتى تَجَهَّأَ

وهو يصور في الآيات نفس الحر الذي يأبى الهوان مستشعراً كرامته إلى أقصى
حد ، وإنه ليأبى في شمم ما بعده شمم أن يرّوى من منهل قد يصيبه منه ما يؤذى نفسه ،

وإنة ليزدرى الطمع فى الدنيا الذى يتحول بالعالم إلى ما يشبه دَوَّارة الريح فهو يدور مع نفعه المهين ، ناسياً لمن شأن علمه أن يجعله مخدوماً لا خادماً وسيداً لا عبداً ذليلاً ، والا كان الجهل خيراً منه وأكثر عائدة على صاحبه . ويحمل حملة شعواء على من يراهم حوله من العلماء صغار النفوس الذين لم يصونوا حرمة العلم بل دنسوه ولطخوه بهوان أليم .

الطُّغْرَانِيُّ (١)

هو أبو إسماعيل مؤيد الدين الحسين بن على بن محمد ، الكاتب الشاعر الذى غلب عليه لقب الطُّغْرَانِيُّ لعمله فى دواوين الطُّغْرَاء ، وهى الطُّرَّة التى يكتبها عادة رئيس ديوان الإنشاء فى أعلى الكتب فوق البسمة بالخط الغليظ متضمنة نعوت السلطان أو الحاكم الذى يصدر الكتاب باسمه . وقد وُلد بأصفهان سنة ٤٥٣ هـ لأسرة عربية تنتسب إلى أبى الأسود الدؤلى ، ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولكن ثقافته الأدبية والعلمية العميقة تدل على أنه اختلف إلى دور العلم وحلقات العلماء منذ نعومة أظفاره وأنه تفتف على أيدي جهابذة موطنه من اللغويين والفقهاء والأدباء وأصحاب الصنعة (الكيمياء) وله فيها مصنفات مختلفة (٢) . ويبدو أن ملكته الشعرية استيقظت فى نفسه مبكرة ، فسأل الشعر على لسانه ، ووفد به على الرؤساء ، وكان من أوائل من وفد عليهم فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء لألب أرسلان ، وأعجب به وبشعره ، فعينه كاتباً فى الديوان وأوصله إلى الوزير نظام الملك فاستمع إلى مدائحه فيه ، ورحب به . وحدث أن اشترك الفضل فى مؤامرة كبرى على نظام الملك وانكشفت المؤامرة ، وألقى به فى غياهب السجون ، وظل الطُّغْرَانِيُّ يحفظ له صنيعه معه ويواسيه فى محنته ببعض أشعار يدبجها فى مديحه . وكان نظام الملك حَصيفاً ، فلم يأخذ على الشاعر شيئاً من وفاته لصاحبه ، وظل الطُّغْرَانِيُّ يعمل فى دواوينه ، كما ظل على صلته به بمدحه فى المناسبات ومن مدائحه البديعة فيه باثنتان ، يشيد فيها به وبانتصارات جيوش الدولة فى الشرق وفى الغرب على شاكلة قوله :

(١) انظر فى ترجمة الطُّغْرَانِيُّ وشعره معجم الأدباء ٥٦/١٠ وابن خلكان ١٨٥/٢ والأسباب للسماوى ٥٤٣ والشذرات ٤١/٤ ومقدمة الصفىدى لشرحه على قصيدة الطُّغْرَانِيُّ : لامية العجم المسمى بالغيث المسجم وكتاب الطُّغْرَانِيُّ للدكتور على جواد الطاهر (طبع بغداد) وكتابه الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر

السلجوقى . وديوان الطُّغْرَانِيُّ مطبوع قديماً بإستانبول وطبعت لاميته مع شروح لها وأهم شروحها شرح الصفىدى (طبع القاهرة) .

(٢) العلم عند العرب لألدومبيل ص ٣٠٧ - ٣١٠ وكتاب الشعر العربى السالف للدكتور على جواد الطاهر ١٥٥/٢ .

خَمِيسٌ أَقاصِي الشَّرْقِ تَرزُمُ تَحْتَهُ وَتَرنِجٌ مِنْهُ أُخْرِياتُ المِغْرابِ^(١)
يَلْفَهُمُ بِالرُّعْبِ قَبْلَ طِرَادِهِمْ وَيَهْزِمُهُمُ بِالكَتْبِ قَبْلَ الكِتَابِ
وفى هذه الأثناء يتزوج ، وما تلبث زوجته أن تتوفى وتترك له رضيعاً لا يزال يجد في

نفسه منه شجى عميقاً عليها ، ومراثيه فيها تفيض بالحزن المرير على شاكلة قوله :
بِنَفْسِي مِنْ غَالِبَتِي فِيهَا بِمِجْهِنِي وَجَاهِي وَمَا حَازَتْ يَدَايَ مِنَ الوَفْرِ
وَفَزْتُ بِهَا مِنْ بَيْنِ يَأْمِسِ وَخِيَتِي كَمَا اسْتَخْرَجَ العَوَاصُ لَوْلُؤَةَ البَحْرِ
فَجَاءَتْ كَمَا جَاءَ المُنَى وَاشْتَهَى الهَوَى كَمَا لَ وَنُبْلًا فِي عَفَافٍ وَفِي سِتْرِ
فِيَا مَوْتَ الحَقْنِي بِهَا غَيْرَ غَادِرٍ فَإِنْ بَقَايَ بَعْدَهَا غَايَةُ القَدْرِ
وهي مربية بديعة ، فقد أظلمت الدنيا في عيني الطفراني بعد زوجته الشابة الجميلة .

ولم يعد له منها سوى الأنين والدموع والزفرات ، وإنه ليشيح بوجهه عن الصبر وأجره وثوابه
مفضياً إلى لوعات قلبه وحسرات نفسه ، إذ تركت بين جوانحه ناراً لا تنطفى ، ويتوجه
إليها بالخطاب نادياً لحظه العائر ، منشداً :

لَأَسْتِينَا حَتَّى إِذَا مَا يَهْرَتْنَا سَنَا وَسَاءَ غَيْبِ غَيْبِوَةِ البَدْرِ
وَقَدْ كَانَ رَبِّي أَهْلًا بِكَ مُدَّةً أَحْرَجُ إِلَيْهِ حَنَّةَ الطَّيْرِ لِلوَكْرِ
وَأَوَى إِلَيْهِ وَهوَ رَوْضَةٌ جَنَّةٍ بِدَائِعِهَا يَحْتَلِنُ فِي حُلَلِ حُمْرِ
فَدِ بِنْتِ عَن صَارَ أَوْ حَسَّ مِنْ لَطْفِي وَأَضِيقُ مِنْ قَبْرِ وَأَجْدَبَ مِنْ قَفْرِ

لقد غاب عنه بدره وانقضَّ وكره ودمرت جنته وعاد يتقلب بعد أعطاف النعيم في
لطفى الجحيم ، وحتى مسكنه أصبح قبراً مظلماً وقفراً مجدباً . ويظل يبكيها وتغمره الأيام ،
فيسلو عنها ويتزوج ويُرزقُ الولد ، وهو في أثناء ذلك يعمل في دواوين السلاجقة ، ويتوفى
نظام الملك ، وتضطرب به الحياة ، فيتعرض لبعض الوزراء بالهجاء ولبعضهم بالمدح
والثناء . وتتوفى صنته بالسلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٩ - ٥١٢ هـ) ويصبح في عهده
نائباً في ديوان الطغراء أو بعبارة أخرى وزيراً للقلم والإنشاء . ونراه في مدحة له يتحدث

عن جيوشه ووقائعها مع الروم وما تُلقي في قلوبهم من فزع بمثل قوله :

خَيْلٌ بِأَرْضِ الرِّقْتَيْنِ وَرَاءَهَا نَفْعُ كَمَرَتِكُمْ العَامِ مُتَارٌ
رَبِيعَ العَدُوِّ وَقَدْ أَحْسَسَ بِقُرْبِهَا فَالْحَبُّ نَابٍ وَالرَّقَادُ غِرَارٌ^(٢)
وَعَلَى خَلِيجِ الرُّومِ مَلِكٌ مَهَابَةٌ مِنْ خَوْفِهَا يَتَطَامَنُ التَّيَّارُ
وَلَقَدْ دَرَى الرُّومِيُّ أَنَّ وِرَاءَهُ خَطَرًا تَقَاصَّرُ دُونَهُ الأَخْطَارُ

ويتحدث في نفس القصيدة عن مقاومة السلطان محمد للباطنية الحشاشين وقضائه المبرم على ابن عظامش في حصن « شاه دز » بقرب أصفهان واستيلائه على قلعته ، على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع . ويتولى السمرمي الوزارة ويتوفى السلطان محمد ويخلفه ابنه محمود وتفسد العلاقة بين الطغراني والوزير ، ويرحل إلى بغداد وينبوه به المقام فيذم في بائية مقامه في العراق مستهلاً ذمه بقوله :

ملتت نوائى بالعراق وملئى رفاقي وكانوا بالعراق طرابا
وينظم حينئذ لاميته التي اشتهرت خطأ باسم لامية العجم ، وقائلها عربي كما مر بنا في نسبه ، وليس فيها أى تعصب للعجم ضد العرب ، ولعلها سميت بذلك لأن قائلها كان يعيش في بلاد العجم وجعلها على روى لامية العرب للشنفرى وقد نالت شهرة واسعة منذ عصره وشرحها الأسلاف مراراً وأهم شروحها شرح الصفدى ، وموضوعها الشكوى من الزمان وأهله ، شكوى لا تنكسر فيها نفسه ، بل يظل له طموحه وتظل له صلابته ، وتظل له فضائله التي يفخر بها ، وهو يستهلاً بقوله :

أصالة الرأي صائنتني عن الخطل وحليّة الفضل زائنتني لدى العطل
وربما أشار بالعطل إلى تعطله من وظيفته الديوانية حينئذ ، أوروبما يشير إلى ما حدث له أحياناً من هذا العطل ويهتف :

فيم الإقامة بالزوراء لاسكني بها ولا ناقتي فيها ولا جملي
ويشكو طويلاً الغربة بالزوراء (بغداد) وأن لا صديق له فيها ولا أنيس سوى الوحشة وبعد الوطن والدار ، مع بوار الأمانى وانعكاس الآمال . ويرحل مع صديق ، ويقتربان من حى أضمّ بالقرب من المدينة ، حى الحبيبة التي ضرب إليها أكباد الإبل ، ولكن دونها الحجة بالسهام والبيض والسمر ، أو السيوف والرماح ، والأسد رابضة حول الكيناس . ويتمنى إمامة بالحى تيرته من علله ، بل ليتمنى الموت في سبيل نظرة ، وكل هذا رمز عن مطامحه التي لا يستطيع تحقيقها ، وإنه ليصرح بأن طالب المجد لا بد له أن يغامر وأن يركب الأخطار ، فإن لم يتحقق له في بلدة طلبه في أخرى ، ويصيح :

إن العلاء حدّثني وهى صادقة فيما تحدّث أن العزّ في الثقل
ويقول إنه لا يزال يعلل نفسه بالآمال في أن تقبل عليه الأيام ثانية . ويشكو من الدهر ومن الناس ، مع شعور غير قليل بالكرامة ، ومع التحذير الشديد من الأصدقاء الأعداء قبل الأعداء . ويختم القصيدة بالدعوة إلى القناعة ورفض المناصب فكل ما على الدنيا ظل

زائل ، ومستند قطعة من هذه اللامية في حديثنا عن شعراء الحكمة والفلسفة .
ولاندرى كيف رغب ثانية في العمل لدى السلاجقة ، إذ نراه يقصد إمارة السلطان
مسعود بالموصل سنة ٥١٣ ويعيّنه وزيراً له ، وتنشب الحرب بين مسعود وأخيه السلطان
محمود وتدور الدوائر في سنة ٥١٥ على مسعود وجيشه ويؤسر الطُّغراني ويقتل بتهمة
الزندقة . ويبدو أن خصومه استغلوا عكوفه على الكيمياء ، فاتهموه بالسحر والإلحاد ،
واستمع السلطان محمود إلى اتهامهم له وأمر بقتله . والشكوى كثيرة في أشعار الطُّغراني وتكفي
منها لاميته السالفة . وفي ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة يستوحى فيها حجازيات الشريف
الرضي ومهيار ، ومن طرائف غزله :

يا قلبُ مالكَ والهوى من بعدما طابَ السُّلُوْ وأَقْصَرَ العُشاقُ
أو ما بدا لك في الإفاقة والألَى نازَعْتَهُمْ كَأَسَ الغرامِ أَفاقوا
يا حَبِداً نَجِدُ وأَعراقُ الثَّرى لُدُنُّ وأَنفاسُ النعيمِ رِفاقُ

وكان يدعو إلى مجلس الشراب أحياناً وسماع المثلث والمثاني والانتشاء بالخمر في مباحج
الربيع . وطبيعي أن يتردّد الفخر في أشعاره ، على نحو ما ترددت منه رنات في لاميته ، وله
يفتخر بثقافته الواسعة وإلمامه بشتى العلوم :

أما العلومُ فقد ظَفِرَتْ بِبُعْيِي منها فما أحتاجُ أَنْ أتعَلِّما
وعرقتُ أسرارَ الخليقةِ كلها علِّما أثارَ لِي البَهِيمَ الظلِّما

واشتهر كما قدمنا بمعرفته العميقة بالصنعة أو كما نقول الآن علم الكيمياء ، وله فيها
أشعار يضمها مخطوط تحتفظ به مكتبة جامعة القاهرة بعنوان مفتاح الرحمة ومصابيح
الحكمة ، ونقل منها الدكتور على جواد الطاهر طائفة ^(١) تصور هذا الضرب من شعره
العلمي أو التعليمي . ويكثر عند الطُّغراني ومعاصريه جميعاً معارضته الشريف الرضي
ومهيار في بعض قصائدهما ، بل أيضاً معارضته من سبقهما من الشعراء ، وربما كانت
لاميته السالفة أروع قصائده من حيث السبك والصياغة ، ومع ذلك حاول الصفدي في
شرحه لها جاهداً أن يرد معاني أبياتها بيتاً بيتاً إلى سابقه . وكان الطُّغراني كشعراء عصره
يتصنع لفنون البديع ولكل ما أتوا به من فنون التكلف ، وفي الحق أنه كان شاعراً بارعاً ،
وبلغ من إعجاب السابقين به وبلاميته أن عارضها منهم كثيرون ، كان آخرهم البارودي في
لامية له مشهورة .

(١) انظر الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر

الأرجاني (١)

هو ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني نسبة إلى أرجان من كور الأهواز من بلاد إقليم خوزستان ، وُلد سنة ٤٦٠ ويقول العماد الأصفهاني فيه : « منبت شجرته أرجان ، وموطن أسرته تُستَر وعسكر مُكْرَم من خوزستان ، وهو وإن كان في العجم مولده فن العرب محنّده ، سلفه القديم من الأنصار » فهو عربي النجار ، فارسي الموطن . وقد أرسل به أهله إلى المدرسة النظامية بأصفهان حين شَبَّ عن الطوق ، فظل بها ، حتى تخرج فيها فقيهاً شافعيًا ، يُحسن الحكم بين الخصوم والمفتيًا . وتفجر الشعر على لسانه ، فقصد به الوزير السلجوقي المشهور نظام الملك . منذ سنة نيف وثمانين وأربعمائة ، وظل ينظمه إلى وفاته بُتسْر سنة ٥٤٤ وكانه مات عن سن عالية ، وكان يفتخر بأنه فقيه ويحسن الشعر وفي ذلك يقول :

أنا أشعرُ الفقهاء غيرَ مُدافعٍ في العصر ، بل أنا أفتقهُ الشعراء
وأعدتُه معرفته العميقة بالفقه لكي يشغل بالقضاء في موطنه ببلاد خوزستان ، تارة بتستَر ، وتارة بعسكر مُكْرَم عن قاضيها ناصر الدين أبي محمد ومن بعده عن عماد الدين أبي العلاء ، وفي ذلك يقول :

ومن النوائب أني في مثل هذا الشغل نائبٌ
ومن العجائب أن لي صبراً على هذي العجائب
وكان يُحسن الفارسية وترجم منها عدداً من الرُباعيات ، وأكثر شعره في المديح ، ونراه كما مر بنا يمدح نظام الملك حتى إذا خلفه الوزير تاج الملك مدحه بلامية يقول فيها :
كم موقفٍ دون العلاء وقفته والخيلُ بالأسل الطوال تصولُ
ونراه يمدح وزراء بركياروق حين استولى على صولجان الحكم بعد أبيه ملكشاه ، وفي مقدمتهم الوزير الدهقاني وفيه يقول :

فأتى به العصرُ الأخيرُ وقصرتُ عن شأوه وزراء كلِّ الأعصرِ
ويظلُّ على صلة وطيدة بسلاطين السلاجقة ، يروح إليهم ويغدو بالمدايح ، وله في السلطان محمود مدايح مختلفة ، من مثل قوله :

(١) راجع في ترجمة الأرجاني ابن خلكان ١٥١/٦ والنجوم الزاهرة ٢٨٥/٥ والأنساب ٢٤ ومعجم البلدان والسيكي ٥٢/٦ وشذرات الذهب ١٣٧/٤ ومرآة الزمان ٢٨١/٣ وتذكرة الحفاظ ١٣٠٦/٤ والمتنظم ١٣٩/١٠ .

أعلى السلاطين في يَوْمِي نَدَى ووعَى رَأْيَا وَأَفْضَلُهُمْ سِرًّا لِإِعْلَانِ
ويمدح وزيره السمرمي الذي يقول فيه ابن الأثير كان ظالماً كثير المصادرة للناس
سبى السيرة ، ولعله اضطرَّ إلى مديحه خوفاً من بطشه به كما بطش بالطُّفْرَانِي ، وله يقول
في بعض مديحه .

وَأَنْقَذْتَ دِينَ اللَّهِ مِنْ شَرِّ مَارِقٍ وَكَانَ كِشْلُو بَيْنَ نَابِيهِ نَاشِبٍ
وخصَّ معين الدين أحمد بن الفضل وزير السلطان سنجر بمدائح كثيرة ، وصلته به قديمة
منذ كان على ديوان الإنشاء للسلطان محمد ، وله يقول :

أَحْلَكُ سُلْطَانَ السُّلْطَانِ رَتْبَةً يَضِيقُ بِهَا ذَرْعُ الْحَسُودِ الْمَسَاجِلِ
وكان يزور بغداد كثيراً ويمدح خلفاءها ووزراءها ، وله في الخليفة المستظهر (٤٨٥ -
٥١٢هـ) غير مدحة ، ونراه يلجج فيما لجج فيه قديماً مروان بن أبي حفصة وغيره من شعراء
العصر العباسي الأول حين كانوا يتحدثون عن شرعية الخلافة وأن العباسيين أولى بها من
العلويين لأن العم يرث ابن أخيه ولا يرثه ابن العم ، ويزعم الأرجاني أن الرسول عليه
السلام بشر بها عمه وأنها تكون في أبنائه ، يقول :

بِكُمْ قَدِيمًا رَسُولُ اللَّهِ بِشَرْنَا كَمَا بِهِ بِشَرْنَا سَالِفُ التُّدْرِ
وقال مِنْ بَعْدُ لِلْعَبَّاسِ فِي مَلَأِ أَفْحَرَ فَأَتَى أَبُو الْأَمْلَاقِ فِي مُضَبَّرِ
وولي المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩) فظل يقدم إليه مدائحه ، واصفاً له بالبأس
والشجاعة والإقدام محذراً أعداءه من جيوشه وما تدمر وتحطم وتَسْحَقُ كُلُّ مَنْ يَقِفُ فِي
طريقها سَحَقًا . وبالمثل يمدح وزراء بغداد وفي مقدمتهم بنو جهير ، وفيهم يقول :

لِلَّهِ دَرٌّ بِنِي جَهِيرٍ إِنَّهُمْ جَهَرُوا بِدِينِ الْمَجْدِ حَتَّى أَعْلَنَّا
ونوه طويلاً بجلال الدين بن صدقة وبأنوشروان بن خالد ، وله فيه نحو عشرين مدحة
يتحدث فيها عن كرمه وشجاعته وعلمه وعدله ومواقبه . كما نوه أيضاً طويلاً بالوزير سديد
الدولة محمد بن عبد الكرم ، وله يقول في بعض مدائحه :

أَمِينَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي اصْطَفَى وَسَهَمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَسْدُودَا
وله غزليات رقيقة ، وهي مطبوعة مثل غزليات الطفراني بطوابع الشريف الرضي
ومهبيار ، ونقصد الطوابع البدوية ومن طريف غزلياته :

أَحْبَبْتِي الشَّاكِينَ طَوْلَ تَغْيِي وَالذَّاهِبِينَ عَلَى الْهَوَى فِي مَدْهِي
مَا جُنْتُ آفَاقَ الْبِلَادِ مَطْوُفَا إِلَّا وَأَنْتُمْ فِي الْوَرَى مُتَطَلِّي
سَعِي إِلَيْكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَالَّذِي تَجِدُونَ مِنِّي فَهُوَ سَعَى الدَّهْرِ لِي

أنحوكمُ ويردّ وجهي الفهقرى سبّرى ، فسبّرى مثلُ سبّ الكوكبِ
فالقصدُ نحوَ المشرقِ الأقصى له والسبّرى رأى العينِ نحوَ المغربِ
نالله ما صدق الوشاةُ بما حكّوا أنى نسيّتُ العهدَ عندَ تغربى
والأبيات تحمل معاني وصوراً دقيقة تصور شاعرة الأرجاني وأنه كان يعرف كيف
يُطرف بصوره ومعانيه ، مما جعل القدماء يشيدون به ، ومن معانيه الغريبة :

رئى لى وقد ساوَيْتهُ فى نُحوْلِهِ خيالىَ لَمَّا لم يكن لى راحمُ
فدلّس لى حتى طرقتُ مكانه وأوهمتُ إلى أنه بى حالمُ
ويئنا ولم يشعر بنا الناسُ ليلةً أنا ساهرٌ فى جفّته وهو نائمُ

وهو بعد فى الخيال والتصوير إلى درجة مفرطة من الوهم ، وكان مثل الطغراني
يشكو من الزمن ومن الناس ، وقلما نجد شاعراً فى هذا العصر لا يشكو ، ومن شكواه
قوله :

ولما بلوتُ النامسَ أطلبُ عندهم أخوا ثقةٍ عند اعتراضِ الشدائدِ
تطلعتُ فى حالى رخاءٍ وشدّةٍ وناديتُ فى الأحياء هل من مساعدِ
فلم أر فيما ساءنى غيرَ شامتِ ولم أر فيما سبّنى غيرَ حاسدِ
تمتعمًا يا ناظرى بنظرةٍ وأوردتُما قلبى أمرَ المواردِ
أعينى كُفّاً عن فؤادى فإنه من البغى سعى اثنين فى قتل واحدِ

فحتى عيناه لا ترحانه بما تدلمان فى قلبه من جحيم الفتنة بالجمال . وله رباعيات
كثيرة غير أنه فيها شديد التكلف ، وقد نظم فى مديح أنوشراون قصيدة تشتمل على
ثمانين رباعية . ومن باب هذا التكلف أو التصنع عنده إظهار قدرته فى نظم بيت يُقرأ
طرداً وعكساً مثل قوله :

أحبُّ المرأةَ ظاهراً جميلٌ لصاحبه وباطنه سليمٌ
مودته تدوم لكلِّ هولٍ وهل كلُّ مودته تدومٌ

فالبيت الثانى يقرأ عكساً من آخره إلى أوله كما يقرأ من أوله إلى آخره ، ونجد عند
الأرجاني أرجوزة يمكن أن تقرأ لا على قافيتين فحسب ، بل على أربع قواف ، وهى تدل
على مقدرة لغوية أكثر منها على مقدرة فنية خالصة . ولعل فى كل ما أسلفنا ما يوضح
شخصية الأرجاني الشعرية .

شعراء المراثى

نشط الرثاء طوال هذا العصر، فلم يمت سلطان ولا أمير ولا وزير ولا قائد إلا رثاه الشعراء، وخاصة إذا كان شخصاً خطيراً له تاريخ مجيد أو أعمال مجيدة، وانضم إلى ذلك كرم فياض، على نحو ما هو معروف مثلاً عن الصاحب بن عباد الذى كان غنياً مدراراً للشعر والشعراء، فأتوه من كل فج، حتى قيل إن من مدحوه بلغوا المئات، ونرى الثعالبي في يتيمنته يتوقف مراراً ليذكر لنا بعض الأشعار التى قبلت في مديحه، وبالمثل الأخرى التى قبلت في رثائه، من ذلك قول أبى سعيد الرستمي^(١).

أبعدَ ابن عبادٍ يهشُّ إلى السرى أخو أملٍ أو يُستأحُّ جوادُ
أبى الله إلا أن يموتا بموته فما لها حتى المعادِ معادُ
وحمل تابوته من الرى إلى أصفهان، ودُفن في محلة تُعرف بباب دُزبه، وتبارى الشعراء على قبره يرثونه، وتقدّم أبو منصور أحمد بن محمد اللّجيميّ يُنشد معبراً عنه بلقبه: «كافى الكفاة»^(٢):

ثوى الجود والكافى معاً فى حفيرة ليأنس كلُّ منها بأخيه
هما اصطحبا حينئذٍ ثم تعانقا ضجيعين فى قبرٍ بباب دُزبه
ومرّ بنا الحديث عن محمود الغزنوى وفتوحه فى إيران والهند وملازمته للجهاد ونشر الإسلام، وكان مثقفاً وطلب - كما مر بنا - إلى بلاطه العلماء والأدباء، وأقبلوا عليه يصنّفون له كثيراً من الكتب فى فنون العلوم، وقصده الشعراء من جميع البلدان فى إيران، فكان يسبغ عليهم كثيراً من عطايه، فلما توفى بكاه غير شاعر، وفى مقدمتهم أبو على الحسن بن محمد الدامغانى، وفيه يقول^(٣):

مضى الأفغوان الصلُّ والأسدُ الورْدُ وتاجُ ملوكِ الأرضِ والفارسُ النّجْدُ
ولم أدرِ أن الشمسَ يسترها ثرى ولا الفلكُ الأعلى يُغييه لحدُ
وأحسّ الشعراء هذا الإحساس بالخسارة الكبيرة إزاء نظام الملك الوزير السلجوقى المشهور، الذى عمّ العلماء والشعراء ببرّه، وألّفت باسمه مصنفات كثيرة، وكان مجلسه

(٣) تمة البيئمة ١٥٣/١ والأفغوان الصل: الذى لا

تفيد معه الرقية، والورد: الفانك

(١) البيئمة ٢٨٠/٣

(٢) البيئمة ٤٠٩/٤

يَفْصُ دَائِمًا بِالْفَقْهَاءِ وَالْقُرَّاءِ وَالْأَدْبَاءِ ، فَلِمَا تَوَفَّى أَكْثَرَ الشُّعْرَاءِ مِنْ رِثَائِهِ ، وَمِنْ جَيْدٍ مَا قِيلَ فِيهِ قَوْلُ خَتْنِهِ شَيْبَلُ الدُّوْلَةِ مِقَاتِلُ بِنِ عَطِيَّةِ (١) :

كَانَ الْوَزِيرُ نِظَامُ الْمَلِكِ لَوْلُؤَةً يَتِيْمَةً صَاغَهَا الرَّحْمَنُ مِنْ شَرْفِ
عَزَّتْ فَلَمْ تَعْرِفْ الْآيَامُ قِيَمَتَهَا فَرَدَّهَا ، غَيْرَةً مِنْهُ ، إِلَى الصَّدْفِ

وظاهرة جديدة في الرثاء لهذا العصر ، قد تكون لها مقدمات في العصر العباسي ، ولكنها شاعت إلى أقصى حد حينئذ ، ونقصد رثاء الفقهاء والعلماء في كل فن ، فلم يتوفَّ عالم كبير إلا تبارى تلاميذه وغير تلاميذه في رثائه ، فمن ذلك رثاء أبي الحسن عبد الرحمن البوشنجي لأبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام بخراسان ، وفيه يقول (٢) :

أَوْدَى الْإِمَامُ الْحَبْرُ إِسْمَاعِيلُ لَهَيْتُ عَلَيْهِ فُلَيْسَ مِنْهُ بِدَبِيلُ
بَكَتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ يَوْمَ وَفَاتِهِ وَبَكَى عَلَيْهِ الْوَحْيُ وَالْتَّزِيلُ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ الْمُنِيرُ تَنَاوَحَا حَزَنًا عَلَيْهِ وَلِلنَّجْمِ عَوِيلُ

ومن يرجع إلى طبقات الشافعية للسبكي سيجد من هذا الرثاء للفقهاء واخذتئين وأئمة الإسلام كثيراً ، وبالمثل من يرجع إلى كتب الشعراء مثل التيمة ودُمية القصر وكتب التراجم مثل وفيات الأعيان لابن خلكان ومعجم الأدياء لياقوت ، من ذلك قول أبي الفرج حمد بن محمد الهمداني في رثاء الشيخ الإمام أبي محمد الجويني (٣) :

عِلْمٌ عَلَتْ أَعْلَامَهَا غَيْرَاتُهَا وَأَعْيُنُ أَعْيَانٍ طَغَتْ عِبْرَاتُهَا
وَأَفْلَاحُ أَكْبَادٍ مِنَ الْفَضْلِ قُتَّتْ فَدَلَّتْ عَلَى تَفْتِيحِهَا زَفْرَاتُهَا
تَدَاعَتْ مَبَانِي الدِّينِ وَانْهَدَّ رُكْنُهُ وَهَدَّمَ مِنْ أَطْوَادِهِ صَخْرَاتُهَا

ويبلغ ابنه إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني من الشهرة العلمية ما لعل أباه لم يبلغه غزارة مادة وتفننا في العلوم من الأصول والفروع . ولما توفى أغلقت الأسواق في نيسابور إجلالاً له وتكرمة ، وكسر مبثّره في الجامع وقعد الناس لعزائه . كما يقول ابن خلكان ، وأكثروا فيه من المراثي . كقول بعض تلاميذه (٤) :

قُلُوبُ الْعَالِمِينَ عَلَى الْمَقَالِي وَأَيَّامُ الْوَرَى شِيْهُ النَّيَالِي
أَيْشِرُ غُصْنُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَوْمًا وَقَدْ مَاتَ الْإِمَامُ أَبُو الْمَعَالِي
وَنَجَّدَ بَيْنَ أَسَاتِذَةِ الزُّمَحْشَرِيِّ أَسَاتِذًا مَغْسُورًا دَرَسَ عَلَيْهِ النَّحْوُ ، بِسْمِي أَبِي مَضْر

(١) الدمية ٥٥٧/١

(١) ابن الأثير ٢٠٦/١٠

(٢) ابن خلكان ١٧٠/٣

(٢) السبكي ٢٨٣/٤

منصوراً ، ومع ذلك نراه - حين يلبى نداء ربه - يتأثر عليه تلميذه تأثراً عميقاً ،
فيرثيه بقوله ^(١) :

وقائلة : ما هذه الدررُ التي تساقط من عينك سَمَطَيْنِ سَمَطَيْنِ
فقلتُ هو الدرُّ الذي كان قد حشا أبو مُضِرٍ أذني تساقط من عيني

وهي صورة بديعة ، فدرر دموعه ثمره سماعه على أستاذه ، أودعها الزمخشري في سمعِهِ
فجرت من مَدَمَعِهِ .

وعلى نحو ما تفجعوا على العلماء وبكوههم بدموع غزار تفجعوا على أبنائهم وأمهاتهم
وأبائهم وللباخريزي رثاء لأبويه ، ولأبي الحسن الحسيني البلخي رثاء جيد لأمه ^(٢) ،
ومر بنا عند الطغراني رثاؤه لزوجته التي ماتت في ريعان الشباب ، وفي ديوانه مرثية لها
قافية ، يصور فيها الموت وهو يقبض كفها ويرسلها وعيناها ساهمتان مطرقتان ، وقد
أخذ الحزن منه كل مأخذ ، يقول :

ولم أنسها والموتُ يقبضُ كفَّها وَيَسْطُهَا وَالْعَيْنُ تَرْنُو وَتُطْرِقُ
هلالُ نُورِي من قبل أن تمَّ نورُهُ وَغُصْنٌ ذَوِي قَيْنَانِهِ وَهُوَ مُورِقُ

ويصف زيارته لقبرها وعناقه لأحجاره وترابه والأرض تدور به ، وهو لا يكاد
يصدق أنها ماتت أو أن بينه وبينها حجاباً صفيقاً ، والدموع تنهلُّ على خديه ، وكلُّه
حسرات ولوعات .

ومر بنا في كتابي العصر العباسي الأول والثاني بكاء الشعراء للمدن : حين تنزل بها
صواعق النهب والحريق ، فقد بكوا بغداد لعهد الأمين والمأمون ، وبكوا البصرة حين
هجم عليها الزنج في أواسط القرن الثالث ودمروا مساكنها وفتكوا بأهلها . وكانت كارثة
هذا العصر أعظم وأطم ، وتقصد تدمير المغول لبغداد في سنة ٦٥٦ إذ قتلوا من أهلها
نحو مليون أو يزيدون ، وأشعلوا بها الحرائق وأعملوا النهب حتى في الكتب
والمكتبات ، وكان ذلك دماراً فظيماً لما كان بها من حضارة عربية وحركة علمية ، أو قل
كان ذلك أفولاً لنحمة الذي طالما تألق في سماء البلاد العربية جميعاً ، وطبيعي أن نجد من
شعراء إيران من يبكون المدينة العظيمة ، وفي مقدمة من بكأها منهم الشيخ سعدى
الشيرازي المتصوف الفارسي المشهور المتوفى سنة ٦٩١ عن نحو مائة سنة ، وهو يشهر
بكتاباتهِ الصوفية الفارسية التي يمثلها كتاباه : جُلستان وبوستان ، غير أشعار فارسية وعربية

كثيرة ، وقصيدته ^(١) في دمار بغداد أكثر من تسعين بيتاً استهلها بقوله :
 حبستُ بجفنى المدامع لا تجزى فلما طغى الماء استطال على السكر ^(٢)
 ويتخنى لو مر به نسيم صبا بغداد فأحيا نفسه ، ويصور حزن مدرسة المستنصرية على
 علمائها الراسخين في العلم وكيف تبكى المخابر أمتها وجهابذتها ، وهو يندب ويبكى
 ويذرف الدموع ، ولا يطيق صبراً ولا سلواناً قائلاً :
 أيا ناصحي بالصبر دغنى وزفرنى أوضاع صبر والكبود على الجمر
 ويقول تحولت دجلة دماً قانياً ، ويرثي الخليفة الشهيد : المستعصم والشهداء الأبرار
 ويهتهم بالفردوس ، ويتحدث عن سببا المسلمين ، والمغول يسوقونهم في الصحراء .
 والقصيدة كلها تفجع وتحسر على مصير بغداد ذات التاريخ العربي المجيد وكيف وقعت
 فريسة لذئاب المغول الكاسرة .

ولم نتحدث حتى الآن عن مرثي الشيعة للإمام علي بن أبي طالب والحسين ،
 ولا ريب في أنها كانت كثيرة ، إذ انتشر التشيع في إيران منذ عصر بني بويه ، واعتاد
 الشيعة أن يعقدوا سنوياً مأتماً كبيراً في يوم عاشوراء حداداً على الحسين وذكرى حزينه
 لاستشهاده ، وكان الشعراء يرثون الحسين في تلك الذكرى القائمة مرثي كلها أنين
 وزفرات . ونشر الشيخ محمد آل ياسين للصاحب ديواناً وفيه غير قصيدة في رثاء الحسين ،
 ونراه يألم ألماً شديداً لهذه الجريمة البشعة ، التي مثل فيها بحفيد رسول الله ﷺ ، وهو يكرر
 في مرثيه الأنين والبكاء والدمع المدرار . وله شعر كثير في فضائل علي بن أبي طالب يدخل
 في الشعر الشيعي بعامة ، وفيه يتحدث عن نظرية الوصية بالإمامة لعلي بن أبي طالب
 المعروفة عند الشيعة الإمامية وعن سابقته في الإسلام وحروره المظفرة وحقوقه في الخلافة .
 ويكثر الحديث عند الشيعة عن الإمام محمد المهدي المحتق ورجعته ليرد حق أسرته الضائع
 ويعيد سنن الشريعة . والأشعار المتصلة به تفرق لا في الرثاء ، بل في المديح ، مثل الأشعار
 المتصلة بالإمام علي ، ويسمونه صاحب الزمان أو قائم الزمان ، وخير قصيدة تصوره
 قصيدة بهاء الدين العامل المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة ، وهو فيها يسميه حجة الله وخليفته
 وظله ^(٣) . وتوقف قليلاً عند شاعر شيعي من شعراء الرثاء .

(٢) السكر : ما سد به النهر .

(١) متني وسعدى للدكتور حسين محفوظ

(٣) انظر الكشكول للعامل (طبعة الحلبي) ١/١٧٦

(طبع طهران) ص ٧٣

أبو الحسن^(١) علي بن أحمد الجوهري الجرجاني

نشأ بجرجان ، واجتذبه صاحب بن عباد إلى حضرته فيمن اجتذبه من أدباء عصره وشعرائه ، ونراه يقربه منه ويرفع مكانته عنده . ويتخذة في ندماه . وتستهل ترجمته في البيعة برسالة كتبها إلى أبي العباس الضبي نائب صاحب في أصبهان يُشيد فيها به ، ويقول إنه يحسن الشعر في اللسانين العربي والفارسي كما يحسن النثر . ويترك أصبهان إلى جرجان فلا تطول به الأيام ، كما يقول الثعالبي ، حتى يلبي نداء ربه ، ويقول من ترجموا له إنه توفي سنة ٣٨٠ . ولا يذكر له الثعالبي شيئاً من شعره الشيعي ولا من رثائه للحسين ، وما يُروى له في بكاء الحسن قوله :

أهل الكساء صلاة الله نازلةً عليكم الدهر من مثني ووحدان
أنتم نجوم بني حواء ما طلعت شمسُ النهار وما لاح السمان

ويشير الجوهري بفكرة الكساء إلى ما يُروى عند الشيعة من أن الرسول أتى عليه وعلى السيدة فاطمة والإمام علي والحسن والحسين كساء ، وقال : نحن أهل البيت . . . ويشير الجوهري في القصيدة إلى مقتل الحسين وسياء كل من كانوا معه من أهله ، وله مرثية أخرى للحسين يبدوها بالحديث عن يوم عاشوراء يوم مقتله باكية نادياً قائلاً :

يا أهل عاشور بالهني على الدين خذوا حدادكم يا آل ياسين
اليوم قام بأعلى الطف نادبهم يقول من لبيم أو لمسكين
يا عين لا تدعى شيئاً لغادية تهني ولا تدعى دمعاً لمخزون
يا آل أحمد إن الجوهري لكم سيفاً يقطع عنكم كل مؤزون^(٢)

والأبيات تصور المأساة تصويراً محزناً ملثماً . والطف هو الموضع الذي استشهد فيه الحسين ، والجوهري لا يرقاً دمه ، بل هو يتمنى أن تسيل من عينيه دموع لا تكف ولا تجف ، لما نزل بال أحمد أو آل ياسين أهل البيت النبوي الطاهر .

وينشد الثعالبي للجوهري أشعاراً كثيرة تتصل بمدحه للصاحب ولسلطانه فخر الدولة ولنائبه أبي العباس الضبي ولبعض الوجهاء ، كما تتصل بالغزل وتتصور بعض الأظعمة وبهجاه بعض الأشخاص ، وله خمريات طريفة يمزجها بالحديث عن الطبيعة ، كقوله في

(١) انظر في الجوهري البيعة ٤/٢٧ وأعيان الشيعة ج (١) بيروت ١٣٠/٢ وما بعدها
٤١ ص ٤١ وأدب الغلف أو شعر الحسين لجواد شير (طبع) (٢) الموضوعون : الدرر المنوج .

دعوة بعض أصدقائه إلى الصُّبوح :

شجرٌ مُدَنَّفٌ وجوٌّ عليلٌ وصباحٌ يميل كالشَّوانِ
صاحٍ إن الزمان أقصرُ عمراً أن يُراعِ المني بصرفِ الزمانِ
رَقَّ عني ملاحفُ الليل فأنهَضُ برقيتي من صوب تلك الدَّنانِ
كعصير الخدود في يَفَقِّ الأو جه أو كالدموع في الأَجفان^(١)

ويبدو من هذه الخمرية ميله إلى الدقة في التصوير ، وأنه كان يحاول الإطراف بأخيلته ، وأن يأتي بصور مبتكرة ، على شاكلة قوله :

صَكَ النَّسِيمُ فِرَاحَ الْغَيْثِ فَانزَعَجَتْ يَنْفُضَنَّ أَجْنَحَهُ مِنْ عَنَبِ الرَّغَبِ

ويقول الثعالبي : لو لم يقل إلا هذا البيت لكان أشعر الناس ، وهو فيه يصور زغب الثلوج المتساقط كشمعيرات الريش المتطائرة .

٥

شعراء المهجاء والفخر والشكوى

ظل الشعراء يرثون سهام المهجاء في هذا العصر كما كانوا يرثونها في العصور السابقة ، تارة يسددها بعضهم إلى صدور بعض ، وتارة يسددونها إلى السلاطين والوزراء وعلية القوم . وقد تُسَدَّدُ إلى أكثر هؤلاء جيداً وكرماً ، لمجرد أنه تأخر في جائزة شاعر ، أولأنه أعطى شاعراً جائزة دون جائزة شاعر آخر ، أو لأنه أسخطه لأي سبب من الأسباب . ومربنا أن الصاحب بن عباد وزير بني بويه كان ينال عليه المديح انهبالاً لكثرة ما كان يُغَدِّقه على الشعراء ، حتى يقال إنه وفد عليه منهم مئات ، ومع ذلك كان لا يسلم من السنة بعضهم مثل أبي العلاء الأَسدي ، وكان كما يقول الثعالبي قديم الصحبة له ، شديد الاختصاص به ، ممتد العرة والتحجيل في شعرائه وصنائه وندمائه . وكان يودّه ويأنس به ويكاتبه نثراً ونظماً . وإليه كتب : « أبا العلاء شيخى أين ذلك الميعاد ؟ وأين تلك العهود سقتها العهاد (الأمطار) . . . وأين كتبك التي هي ألد من انتهاء النفس إلى رجائها ، وابتداء العين في إغفائها » . ويبدو أن أبا العلاء لم يرتض من الصاحب أمراً أو شيئاً يوماً ، فأسرع يهجوه بقوله^(٢) :

(٢) البيمة ٢٧٧/٣

(١) اليقظ : شدة البياض .

إذا رأيتَ مُسَجِّيَ في مرْقعةٍ يأوى المساجدَ حراً ضُرُهُ بادي
 فاعلمْ بأنَ الفتى المسكينَ قد قذفتُ به الخطوبُ إلى لؤمِ ابنِ عبَّادٍ
 وهو يصفه باللؤمِ ، ويصغُرُ من جوده الذى شاع عنه في سخرية مرة . وانتقم
 للصاحب من أبى العلاء الأسدَى زميل له من الشعراء يسمَّى عبدان الأصبهاني جعله عُرْضةً
 وهدفاً لأهاجيه ، ومن قوله فيه ^(١) :

أبا العلاء اسكتْ ولا تُؤذنا بِشَيْنِ هذا النسبِ الباردِ
 وتدعى في أسدٍ نِسْبَةً لا تثبتُ الدعوى بلا شاهدِ
 أقمِ لنا والدةً أوْلاً وأنتِ في حِلٍّ من الوالدِ

وهى سخرية لاذعة . ومن كبار المهجائين في أوائل العصر الشاعر المسمى أبا الحسن
 اللُّحام ، وفيه يقول الثعالبي : لم يسلم أحد من الكبراء والوزراء والرؤساء من هجائه إياه ،
 وكان لا يهجو إلا الصدور . وفي مقدمتهم البلعمى وزير السامانيين وفيه يقول ^(٢) :

وزارةً البلعمى متقلبةً وهو كَقْفَلِ غدا على خربةٍ
 لم يرعَ للأولياء حُرْمَتَهُم فيها ولا للوجوه والكُتَبِ
 فهو أحمقُ الورى بداهيةً تضحى لها رأسه على خَشَبِ

وهو يريد له أن يصلب ويصبح مُثَلَّةً للناظرين . وكان عبدان آنف الذكر يستثيره كثيراً
 فما زال يفكر في أن يورد عليه هجاء شديد الإيلام ، وهداه طول تفكيره إلى قوله فيه ^(٣) :
 عبدانُ هامتهُ للصفعِ معتاده لاسيَّما من أكفَّ السادةِ القادةِ
 كأنَّ أيدى الدَّامى في تناولها أيدى صِيامٍ إلى كيزانِ برَّادهِ
 والبرَّادةُ : إناء يبرِّد الماء . وكان السخط على السلاطين والملوك يبلغ أحياناً
 عند بعض الشعراء حدّاً يجعلهم يعمّونهم به غير مفرقين بين مصلح وفساد . فإذا هم
 يهجونهم جميعاً على شاكلة يوسف بن محمد الجلودى الرازى في قوله ^(٤) :

لا يصحبنَ ملوكنا إلا امرؤُ إصَّ مغنٌ مُفلسٌ قوادُ
 فلهُ لديهمُ زُلْفَةٌ ومنالةٌ ولن نخرُجَ واستعفَّ كسادُ

والبيتان يسخان الملوك حينئذ مسخاً . وكانوا كثيراً ما يهجون البلدان وأهلها ، ويخيل
 إلى الإنسان أنهم لم يتركوا بلدة إلا سلطوا عليها سهام هجائهم . وقد يتعرضون لصفة في

(٣) البيمة ١١٢/٤

(١) البيمة ٢٩٨/٣

(٤) تمة البيمة ١/١٢٣ .

(٢) البيمة ١٠٨/٤

الشخص ذميمة ، فيهجونه بها ، كصفة الحمق ، ولابن حَسُول يهجو المتكبرين عليه ^(١) :
 دخلتُ على الشيخِ فيمن دَخَلْ فغربلُ عَصَصَهُ وانتحلُ ^(٢)
 وأظهر من نخوة الكبرياء مالم أقدرُ ومالم أُخَلْ
 فقلتُ له مؤثراً نُصَحَهُ وقد يُقْبَلُ التُّصَحُّ من نَخَلْ
 إذا كنتَ سيدنا سُدَّتْنَا وإن كنتَ للخالِ فاذهبْ فَخَلْ
 أُخَلْ بحقِّ دُهَاءِ الرِّجَالِ فإزال يُصْفَعُ حتى أُخَلْ

وهو يصور هذا الشيخ المتكبر المتعجرف ، وقد دخل عليه فلم يقم له ، وكأنما هم أن يرفع نفسه وعصصه أو مؤخرته ، ثم تحلّى عن ذلك وتمكّن من مجلسه ، فعرف أنه متكبر متعظم ، وهو مالا يكاد يظنه ، فحاول أن ينصحه نصيحة من نخل القول وعرف صوابه وخطأه ، وتعرض له قائلاً إن كنت سيدنا حقاً سدتنا دون حاجة إلى كبرياء والإفخل عنك ، غير أنه لم يستمع نصحه فإزال يُصْفَعُ ، حتى أصابه الخلل .

وكان الفخر في هذا العصر يرافق الهجاء كما رافقه في العصور السابقة ، وقلما يحسن الشعراء أمير أو وزير أو قائد إلا وهو يفتخر بنفسه ، وفي كتاب اليتيمة فصل خاص بسلاطين بني بويه ، ونجد أشعارهم موزعة بين الفخر والغزل والخمر . ويلقانا فخر كثير للشعراء ، وكثيراً ما يسوقون فخراً لهم بأشعارهم وجودتها وبلاغتها ، من مثل قول علي بن عبد العزيز الجرجاني الذي ترجمنا له بين شعراء المديح ^(٣) :

ألا إنني أرمي بكلِّ بديةٍ يَبْتِنُ بالبابِ الرِّجَالِ لواعبا
 تسيرُ ولم ترحلُ ، وتدنو وقد نأتُ ونُكْسِبُ حَقَاطَ الرِّجَالِ المراتبا
 ترى الناسَ إما مُسْتَهَامَا بذكرها ولُوعًا وإما مُسْتَعِيرَا وغاصبا

فأشعاره كلها - في رأيه - بدائع وطرائف ، تنتشر في الناس حتى أقاصى الأرض ، لكثرة روايتها والمعجبين بها ، ويتداولها الشعراء ويغيرون على معانيها المتكررة . وكثر الفخر في العصر عند العلماء بسعة المعرفة وغزارة المحصول والتعمق في الأفكار والنفوذ إلى أغوارها البعيدة .

وشاعت مع الفخر الشكوى من الدهر ومن الناس ، وهي شكوى قديمة ، غير أنها اتسعت في هذا العصر سعة شديدة ، لما شاع فيه من كثرة البؤس والفضنك في حياة

(١) دمية القصر ١/٤١٥ .

ما ليس له .

(٢) العمصص : نهاية العمود الفقاري ، وغريلة

(٣) اليتيمة ٤/٢٠

العمصص : تمكته في الجلوس . اتحل : ادعى لنفسه

الشعب ، فضلاً عن الشعراء . وداثماً يتضاعف إحساس الشاعر ببؤسه حين لا يتصله الجوائز الكبيرة ، وحين يجد من بعض الناس إعراضاً عن شعره ، فتظلم الدنيا في عينيه ، ويرأها سواداً في سواد وظلاماً وحرماناً لا آخر له . ومثله العالم الفاضل الذي يرى علمه كاسداً ، وأنه لن يروج إلا إذا لثم التراب وقبّل الأبواب ، فبؤساً للعلم يكون هذا جزاءه ، وبؤساً للشعر يكون هذا ثوابه . ويصور ذلك من بعض الوجوه عبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وهما أروع ما صنّف في البيان العربي ، وكان مقصد الطلاب في عصره من كل فحج ، ومع ذلك يرى عشرات من دونه يعلنونه في نعم الحياة مخلفين له البؤس والشظف ، مما جعله يهتف بمثل قوله (١) :

هذا زمانٌ ليس فيه سوى النذالة والجهالة
لم يرق فيه صاعدٌ إلا وسلّمه النذالة

وأقرأ في البيتمة ودُمية القصر والخريدة فتجد سيول هذه الشكوى تندافع من كل جانب . وكثيراً ما كان يحدث لأمر أن يُسلب سلطانه كما كان يحدث ذلك للوزراء ، فكان منهم من ينظم الشعر يُودعه شجونه ، ومرت بنا مأساة قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان إذ عزكه عن سلطانه حاشيته وألقت به في غياهب السجون بإحدى القلاع حتى مات لوعةً من شدة البرد وأسفاً على ضياع سلطانه ، وكان شاعراً كما كان كاتباً ، فمضى يشكو شكوى مرة من الناس دون أن تنكسر نفسه ، بل مع غير قليل من الصلابة ، على شاكلة قوله (٢) :

قُلْ للذي بِصُرُوفِ الدَّهْرِ عَيْرَنَا هل حاربَ الدهرُ إلا مَنْ له خَطْرُ
أما ترى البحرَ تعلو فوقه جِيفُ وتَسْتَقِرُّ بأقصى قَعْرِهِ الدُّرُ
فإن تكن عبثتْ أيدى الزمان بنا ومسنًا من تمادى بؤسه ضَرُ
ففي السماء نجومٌ ما لها عَدَدُ وليس يُكسِفُ إلا الشمسُ والقَمَرُ

وقد تتحول الشكوى من الزمان وأهله إلى ضرب من التشاؤم الشديد ، فالزمان كله بؤس وتعاسة ، والناس ليس فيهم فاضل ولا كريم ، بل كلهم أحسَاءُ أنذال ، حتى ليقول الفضل بن إسماعيل التيمي الجرجاني (٣) :

ما في زمانك ماجدٌ لو قد تأملتَ الشواهدُ
فاشهدْ بِصِدْقِ مقالتي أولاً فكذبني بواحدُ

(٣) الدمية ٢/٢٨

(١) الدمية ٢/١٨

(٢) البيتمة ٤/٦١ وابن خلكان ٤/٨٠

فهو لا يرى في الدنيا ما جدا واحدا ، وكأنما الناس كلهم أشرار ، ليس فيهم من تجد عنده شيئاً من العون يملأ القلب رضا وطمأنينة ، بل جميعهم يملأون القلب حسرة ولوعة . ونقف عند شاعرين من شعراء العصر هما الخوارزمي والأبيوردى .

أبو بكر^(١) الخوارزمي

أصله من طبرستان ومولده ومنشؤه خوارزم ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المعروف ، وقد فارق موطنه في ريعان شبابه ، وأقام بالشام مدة . وهو أحد الشعراء والكتاب المجيدين في عصره ، وأيضاً أحد أساتذة الأدب ورواته ، رحل إلى الشام والعراق وبخارى ونيسابور وسجستان ، ثم قصد الصحاح بن عباد ، فأكرمه وأعلى منزلته ، وغمره بما كان سبباً لثرائه وارتياشه ، فعاد إلى نيسابور واستوطنها واقتنى فيها عقاراً وضياعاً ، وكان لا يزال يأتيه رسم أوراتب من قبل الصحاح منذ انصرافه عن حضرته . وكان ذلك سبباً في أن يتعصب تعصباً شديداً للبويعيين ضد السامانيين أصحاب نيسابور وبخارى ، وناله من ذلك بعض السوء ، لولا توسط الصحاح بن عباد له عند بعض وزرائهم . وكان شيعياً وكانت نيسابور سنية ، فاستوحش منه كثيرون وانتهزوا فرصة وفود بديع الزمان الهمداني على بلدتهم ، فعقدوا مناظرة بينهما انتصروا فيها للبديع ، وتصادف أن توفي الخوارزمي عقبها سنة ٣٨٣ فصفا الجو لمنافسه . وقد خلف الخوارزمي ديوان رسائل كبير وهو مطبوع ، وخلف أيضاً ديوان شعر سقط من يد الزمن ، غير أن في كتاب اليتيمة طائفة كبيرة من أشعاره في النسيب والغزل والمديح والمراثي وفي فنون مختلفة في مقدمتها الهجاء ، وكان طبعياً أن يصبه سياتاً على ظهور السامانيين حين استخرجوا منه ، أو صادروا ، بعض ماله وزجوا به في سجونهم ، وأفرجوا عنه ، غير أنه مضى ينتقم منهم بمثل قوله :

جَزَى اللهُ عَنِّي أَهْلَ سَامَانَ مَا أَتَوْا وَفِي اللَّهِ لِلنَّارِ الْمُضَيِّعِ طَالِبُ
هُمْ زَوْجُونِي أَلْهَمَّ بَعْدَ طَلَاقِهِ وَذَلِكَ عُرْسٌ لِلْمَاتَمِ جَالِبُ
وَأَنْحُوا لَزَرْعِي بِالْحَصَادِ وَأَنْضَبُوا مِيَاهَا لَهَا أَيْدِي سِوَاهِمُ مَذَانِبُ
أَمْحُصُّدُ أَيْدِيكُمْ وَيَزْرَعُ غَيْرَكُمْ فَأَنْتُمْ جَرَادٌ وَالْمَلُوكُ سَحَابُ
فهم يحصدون ما زرعه آل بويه ووزراؤهم ، ويأكلونه ناراً ، وكأنهم جراد منتشر

(١) انظر في الخوارزمي وشعره اليتيمة ١٩٤/٤ وابن

خلكان ٤٠٠/٤ والوفاي بانوفيات ١٩١/٣ والشذرات دارالمعارف ص ٢٣٠ وما بعدها

يصب البلاد بالخراب والويل بينا البويهيون سحائب غيث منهلة ، تروى من يعيشون في بقاعهم القريبة وفي بقاع السامانيين البعيدة وغير السامانيين . وبحكم تشيعه كان غاضباً على الخلفاء العباسيين السنين ، غير أنه اكنى في هجائهم بالإشارة إلى صنيعهم السيئ في توزيع الألقاب على السلاطين والوزراء والقواد ومن يستحق ومن لا يستحق ، يقول :

مالي رأيتُ بني العبَّاسِ قد فتحوا من الكُنى ومن الألقاب أبواباً
قلَّ الدراهمُ في كَفَى خَلِيفَتِنَا هذا فأنفقَ في الأرقام ألقاباً

ولا شك في أنها تدل على ما أصاب المجتمع في إيران وغير إيران من تدهور ، وكان يعيظ الخوارزمي الشيعة المتعصب لتشيعة الغالي في تعصبه أن يرى أحياناً قبيها يلحق ابنه مبادئ أهل السنة الذين يسميهم المتشيعة ناصبية فيدعى عليه أنه من القائلين بالجبر ويهتف :

مُجِبُّ صِرِّ ابنه ناصبياً مجبراً مثله وتلك عجيبة
والجبر الذي يقول بالجبر وأن الإنسان لا حرية له في فعله ولا اختيار وأنه مسير كريحته في يد القدر يوجهه كيف شاء . وأسخطه طاهر بن شار الطبرستاني ، فتولاه بهجاء مقذع من مثل قوله :

لله في كل ما قضاهُ لطائفٌ تحتها بدائعُ
سُبْحَانَ من يُطْعَم ابنِ شارٍ ويترك الكَلْبَ وهو جانع

وهو إقذاع مرير ، فقد جعله دون الكلب وأقل منه ، وحتى يد الصاحب بن عباد الذي طالما أسخغ عليه من نواله ، بل لقد جعل له راتباً معلوماً ، كما قدمنا ، يصله في نيسابور ، نجده يخذلها بل يعضها ويسيل الدم منها بأظفار هجائه . ويبدو أنه لم يرض منه يوماً لقاء له ، فإذا هو يذمه ذمّاً قبيحاً قائلاً :

لا نحمدنُ ابنَ عبادٍ وإن هَطَلتْ يَداه بالجود حتى أَخَجَلَتِ الدِّهَانَ
فإنها حَظراتٌ من وَسَاوسِه يُعْطَى ويمنع لا بُخْلاً ولا كَرَمًا

فمطاياها التي طَبَّقت الشعراء في إيران وغير إيران إنما هي وساوس وهو اجس تلم به أحياناً . وهو كفران شديد للمعروف ، وكأنها طبيعة للخوارزمي أن لا يستطيع احتمال الصبر وأن ينجأ سريعاً إلى قلته وشعره ، ويحيله سوط عذاب ينزل به حتى على ولي نعمته . ونراه يتابع سخطه على من يريد هجاءهم حتى بعد وفاتهم كقوله في رثاء صديق ، حدث بينهما ما يوجب شتاً من العتاب ، فإذا هو يضحك عتابه ويحيله هجاء قائلاً :

بكِتْ عليك بالعين التي لم تزل من سوء فعلك بي تجودُ

فها أنا ذا المهتأ والمعزى وها أنا ذا الشقى بك السعيد
وما أصبحت إلا مثل ضير من تاكل فهو موجود ففيد
ففي تركي له داء دوى وفي قلعي له ألم شديد
وطبيعي لمثل الخوارزمي الذي كان ينسب أظفاره في الحكام والأصدقاء والناس أن
يترم بهم جميعاً وبدنياه وبالدهر ، حتى ليقول :

لا تشكر الدهر لخير سببه فإنه لم يتعمد في الهبة
وإنما أخطأ فيك مذهبه كالسئل إذ يسئ مكانا خربة

وله وراء ذلك كله مدائح في البويهيين والصاحب وغيرهم وله غزليات وخمريات
ووصف للطبيعة وورودها ورياحيتها . وفتح الشعالي له فصلاً طويلاً لبيان تضميناته
أشعاراً غيره في شعره ، وهم يمتدّون على الحقب من العصر الجاهلي حتى عصره .

الأبيوردى^(١)

هو أبو المظفر محمد بن أحمد ، من أبناء معاوية بن محمد حفيد عبّسة بن
أبي سفيان بن صخر بن حرب الأموي ، مولده ومنشؤه بأبيورد في خراسان ، وقد تفقه على
إمام الحرمين الجويني بنيسابور ، وله فيه مدائح بديعة . وسمع عبد القاهر الجرجاني ، ولعل
له أثرًا في رهاقه ذوقه الأدبي . وأكبّ على المعارف يحصلها ، ولعل ذلك ما جعله فيما بعد
يصنف كتباً مختلفة في الأنساب وغيرها . وفتح له الشعر والأدب العمل في دواوين
السلاجقة في بغداد وأصفهان وغيرها من بلدانهم . ويبدو أنه ظل في بغداد طويلاً ، إذ
يروى عنه أنه قال : كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرن طبعي على العربية ، وبعد أنا
أرتضخ لكتنة أعجمية . وفي بغداد التحق بخدمة مؤيد الدولة بن نظام الملك ، فلما عادي
هذا الوزير عميد الدولة بن منوچهر هجاه الأبيوردى ، فدمس عليه عند الخليفة أنه هجاه
ومادح صاحب مصر الفاطمي . وخشى الأبيوردى على نفسه فترك بغداد إلى همدان حتى
سكن جأشه وهدأ روعه . وتدل على الحقبة التي أمضاها ببغداد قصائده في الخليفة المقتدى
(٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) وله فيه إحدى عشرة قصيدة . ويقول بعض الرواة إنه إنما هجر بغداد

(١) انظر في الأبيوردى وشعره معجم الأدباء ١٩٦/٣ والأنساب ٤٩٠ وتذكرة الحفاظ ١٢٤١/٤
وروضات الجنات ١٨٥ وشذرات الذهب ١٨/٤ وإنباه ٢٣٤/١٧ وابن خلكان ٤٤٤/٤ والوافي بالوفيات ٩١/٢
والسبكي ٨١/٦ والملتزم ١٧٦/٩ والنجوم الزاهرة الرواة ٤٩/٣ وديوانه مطبوع بالمطبعة العثمانية بلبان .
١٥١/٥ ، ٢٠٦ وابن الأثير ٢٨٤/١٠ ومراة الجنان

لأنه كان يرشح من كلامه نوع تشييب بالخلافة التي كانت لأسلافه الأمويين مدعياً استحقاقه الإمامة . فاضطرَّ إلى مفارقتة بغداد إلى همدان ، وبقى فيها مدة يدرس ويفيد ويصنّف . وقال العماد في الحريرة : تولى في آخر عمره أشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨ - ٥١١ هـ) ، وسقوه السم وهو واقف عند سريره لسنة ٥٠٧ فخانتة قدماه وتوفى على الأثر ، فحُمِلَ إلى منزله بأصفهان ، ويقال : بل لم يُسَقَ السم ، وكل ما في الأمر أنه حين مثل أمام السلطان أصابه الفزع فارتعد وسقط ميتاً .

ويعُدُّ الأبيوردي من أشهر شعراء هذا العصر ، وديوانه كبير ، وقد وزعه على أقسام ، من أهمها العراقيات والنجديات والوجديات . وله شعر كثير في الفخر بنسبه الأموي وبيان فضله وحقه في الخلافة ، ويقولون إنه كان إذا صلى قال : اللهم ملكني مشارق الأرض ومغاربها ، ولعل لهذا الهوس فيه هو سبب حفته على يد السلطان محمد ، ومن شعره المعبر عن طموحه وقوة نفسه قوله :

يا مَنْ يُسَاجِلُنِي وليس بمدركٍ	شأوى وأبينَ له جلاله مَنْصِيبِي
لا تتعبنَ فدونَ ما أمَلتَهُ	خَرَطُ القَتَادَةِ وَاْمِطْطَاهُ الكوكِبِ ^(١)
والمجدُ يعلمُ أينا خيرُ أبَا	فاسأله تعلمُ أيَّ ذى حَسَبِ أَبِي
جَدِّي معاويةَ الأغرَّ سَمَتَ به	جُرْثُومَةَ من طِينِهَا خَلِقَ النَّبِي
وورثته شرفاً رفعتُ منارَهُ	فبنو أميةَ يفخرونَ بهِ وَيِي

وهي صورة جاححة من الاعتداد بالأباء ، وأين بنو أمية في القرن الأول الهجري منه في القرن الخامس ؟ وهل جده معاوية أقرب رحماً إلى الرسول ﷺ من بني هاشم ؟ إن هذا ومثله لغو وما يشبه اللغو . وهو لا يتوقف عند هذا الحد في فخره العريض ، إذ يسوقه في شكل أحلام لا يمكن تحقيقها إذ يقول :

الناس من خولِي والدهرُ من خَدَمِي	وقمّةُ المجدِ عندي مَوْطِئِي القَدَمِ
والنَّسْرُ يَتَّبِعُ سَبْقِي حينَ يَلْحَظُهُ	والدهرُ يُنْشِدُ ما يَهْمِي بهِ قَلَمِي
لو صيغتِ الأرضُ لي دونَ الوَرَى ذهباً	لم تُرَضِّها لِعِرجِي نائلي هِمَمِي
وعن قليلِ أَرَى في مَازِقِ حَرَجِ	به تُشَامُ السَّرِيحَاتِ في القَمَمِ ^(٢)
والبيضُ مُرْدَقَةٌ تبدو خَلَاخِلُهَا	في مسلكِ وَحِلٍ من عِبْرَةٍ ودم

(١) القنادة: نبات له ثوب كالإبر، وفي المثل : من شديدة .

دونه خرط القنادة يضرب للشيء لا ينال إلا بمشقة (٢) تشام : ترى . السريحيات : ضرب من السيوف

فالمجدُّ في صهوات الخيل مطلبه والعزُّ في ظبَّة الصمصامة الخَدِمِ (١)
وهو يعلم حليماً غريباً بأنه سيقود معركة مظفرة تُسبى فيها النساء التاديات
للأزواجهن وأبنائهن وأهلن، وتحمول وتصلو فيها الخيل مردية للأقران، ونسور القلا
تتبعه لتأكل من أشلاء قتلاه، والدهر ينشد مجده الحربي شعراً حماسياً ملتبياً. وطبيعي أن
يقترن هذا الفخر العاصف عنده بالشكوى من الزمن الذي لا ينيله مطاعه، وهي
شكوى تخرج بغير قليل من القوة والجلد وتحمل الشدائد على شاكلة قوله:

تَنكَّر لي دهرى ولم يَدِرْ أني أَعزُّ وأحداثُ الزمانِ تهونُ
فبات يُرِيني الخطبَ كيف اعتداؤه وَبِتُّ أريه الصَّبْرَ كيف يكون

وهذا الجانب في الأبيوردى واعترازه بنفسه وقومه جعله يستشعر غضباً لا حد له على
الصليبيين حين أغاروا لأول مرة سنة ٤٨٨ للهجرة على بيت المقدس، وهو استعمار يُحمدُ
له، فإنه أحسن الكارثة التي نزلت بالإسلام وأهله، حين دَسَّ الصليبيون بأقدامهم الحرمَ
القدس، فصاح بأعلى صوته يهيب بالمسلمين أن يذودوا عن حياهم المستباح في قصيدة
طويلة يقول فيها:

مرجنا دماءً بالدموع السَّواجِمِ فلم يبق منا عُرْضَةٌ للمَراجِمِ (٢)
وكيف تنام العينُ ملء حَفونها على هفواتٍ أيقظتْ كلَّ نائمِ
وإخوانكم بالشام يَضْحِي مَقِيلُهُمْ ظهورَ المذاكِي أوبطون القَشاعِمِ (٣)
وكم من دماءٍ قد أبيضتْ ومن دُمِّي تُوارى حياءَ حُسَّتْها بالمعاصِمِ
أرضي صناديدُ الأعرابِ بالأذى وَيُعْضِي على ذلِّ كِباءِ الأعاجِمِ
فنيهمُ إذ لم يذودوا حَمِيَّةً عن الدين ضنوا غيرةً بالمحارِمِ

والقصيدة استنفار قوي للمسلمين من العرب والأعاجم كي يقفوا سداً منيعاً دون
حياهم وحمى الإسلام يذودون عنه بسلاحهم وأرواحهم حتى يذيقوا الصليبيين وبال
حربهم ويردوا كيدهم إلى نحورهم، وهي أولى القصائد التي أخذت طوال قرن تصوب
أبياتها، بل سهامها. إلى صدور أعداء الإسلام، حتى استطاع صلاح الدين أن
يستنقذ منهم بيت المقدس وغيره من ديار الشام، ويسفك دماء ملوكهم وقادتهم،
وكان حقاً على الله نصر المؤمنين.

وللأبيوردى وراء ذلك مدائح كثيرة في الخلفاء وسلاطين السلاجقة ووزرائها،

(١) الصمصامة: السيف الخدم: الخيل. القشاعم: السور.

(٢) المراجم: القاطع.

(٣) المراجم: القبيح من الكلام.

وله غزليات سنعرض لبعض أمثلة منها في مطالع الفصل التالي ، وكانت له مرثية بديعة للحسين تحدث عنها ياقوت ، غير أن ديوانه خلا منها ، كما خلا من مرثيته للغزالي ، التي أشار إليها ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان . وله بيتان طريفان في هجاء أبي النجيب عبد الرحمن بن عبد الجبار المراهي ، وكان شاعراً ، ويستعمل في شعره لزوم ما لا يلزم الذي اشتهر به أبو العلاء في لزومياته ، فقال فيه :

شعر المراهيِّ - وحوشيتُم - كعقله أسلمهُ أسقَمهُ
يلزَمُ ما ليس له لازماً لكنّه يترك ما يلزمه

والسخرية واضحة ، إذ يشير إلى أن شعره مغسول مما يلزم الشعر من المشاعر والأخيلة وفنون البديع ، بينما يُفرقه فيما لا يلزم من تعقيد الروى وعدم الاكتفاء في الشعر بروى واحد ، مما يصور تكلفاً شديداً إن لم يكن الشاعر بارعاً في صنع الشعر ونظمه .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

ظل تيار الغزل حاراً متدفقا طوال هذا العصر، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يشدُ شاعر بشعر إلا وجرى الغزل على لسانه، لا يشدُّ عن ذلك سلطان ولا وزير ولا كاتب ولا قائد. وظلَّ للغزل لونه المتقابلان على مر العصور: الغزل المادى والغزل العُدْرى العفيف، وكان طبيعياً أن تظل للغزل سوقه الكبيرة لكثرة الإماء والجواري وكان كثيرات منهن يحسنُ الغناء، فلأن قلوب الرجال شغفا وهياما. وقرأ في تراجم الشعراء لهذا العصر فتجد دائما مقطوعات الغزل لتختار منها ما يطيب لك جمالَ معنى وجمالَ صورة وجمال صوت، على شاكلة قول ابن العميد^(١).

ظَلَّتْ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ نَفْسٌ أَعْرُ عَلَيَّ مِنْ نَفْسِي
فَأَقُولُ وَاعْجَبًا وَمِنْ عَجَبِ شَمْسُ تُظَلِّلُنِي مِنَ الشَّمْسِ

وهي صورة بدیعة لما فيها من لفت قوى إلى جمال صاحبه، وكان خليفته في وزارته المصاحب بن عباد أشعر منه، وله غزل كثير أنشد منه الثعالبي طائفة من المقطوعات، من ذلك قوله^(٢):

قَالَ لِي إِنَّ رَقِيبِي مَسِيئُ الْخُلُقِ فَسَادِرَةٌ
قَلْتُ دَعْنِي وَجَهْكَ الْجَنَّةُ حَقَّتْ بِالْمَكَارِهِ

وواضح أنه عمد في البيت الثاني إلى الاقتباس من الحديث النبوي: «حُقَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ» وهو اقتباس طريف لإحكام صلته بما قبله. وكثرة الاقتباس من الحديث والقرآن الكريم ظاهرة من ظواهر العصر الأدبية.

وكانوا يتورطون أحيانا في الغزل بالغلان، وهو وصمة في جبين العصر، تضاف إلى

(٢) البيمة ٣/١٥٤

(١) البيمة ٣/١٧٨

مثيلتها في العصر العباسي ، وربما كانوا ينظمونه تندرأ ودعابة ، أو تقليداً لأسلافهم ، وهو تقليد بغيض . ومن الحق أن كثيراً من الشعراء نحو هذا النوع المقيت عن غزلم ، مؤثرين أن يطبعوا أشعارهم بطوابع الغزل العفيف الطاهر الذي لا يعرف المتاع المادى للحب ولا اجتناء ثمراته من العناق وغير العناق ، إنما يعرف ليرانه المحرقة كما يعرف الحب الظامى الذى لا يرؤى صاحبه أبداً ، فداًئماً فراق وداًئماً حنين واشتياق ، ودعاء كما قال أبو العلاء الأسدى (١) :

شئتوا بالفراق شملئ ولكن جَمَعَ الله شملهم أين كانوا
وكثير من هذا الغزل العذرى كان بصوغه العلماء والفقهاء صورةً لطهارة نفوسهم ونقاها وما يتجشمون في الحب من آلام دون أن يشوب تفكيرهم شىء من الفريزة النوعية ، فقد تساموا عن الحسّ وكل ما يتصل بالحس . ويكثر في هذا الغزل الحنين المستمد من حنين العذريين ، الحنين إلى نجد وديار نجد مع الحشرات من الفراق والشوق إلى اللقاء . وربما لم يكثر من ذلك شاعر كما أكثر الأبيوردى ، فقد جعل للنجديات أو الغزل النجدى العذرى قسماً مستقلاً من أقسام ديوانه الكبير ، ومن نجدياته :

نزلنا بَنَعَانَ الأراكِ ، وللندى سَقِيطٌ به ابتلت علينا المَطَارِفُ (٢)
فبتُّ أعانى الوجدَ والركبُ نُومٌ وقد أخذتُ منى السرى والثنائفُ (٣)
وأذكر خَوْداً إن دعانى على النوى هواها أجايته الدموعُ الدوارفُ
لها في مغانى ذلك الشعبِ مترٌ لئن أنكرته العينُ فالقلبُ عارفُ
وقفتُ به والدمعُ أكثره دمٌ كأنى من جفنى بَنَعَانَ راعفُ (٤)
وعلى نحو ما يجعلون محبوبتهم نجدية يجعلونها ممّعة ، فحولها أسدٌ يجمونها ، بحيث لا يستطيع الحب الوهان أن يلقاها أو يقرب من حياها ، فدونها الموت الرؤوم ، وفى ذلك يقول الطغرأتى فى لاميته (٥) :

إنى أريد طُروقَ الحى من إضمٍ وقد حماه رُماةُ الحى من نُعلٍ
يحمون بالبيض والسمر اللدان به سود الغدائر حُمر الحلى والحللى
فالحبُّ حيث العدا والأسدُ رابضةٌ حول الكناس لها غابٌ من الأسلى
فهو يريد الإلمام بحى معشوقته فى إضم ، فىرى دون ذلك أهوالاً ، فقد حاه رماة من

(١) اليتيمة ٣٣٦/٣ .
(٢) نَعْمَان : واد بين عرفات والطائف . الأراك : من (٣) الثنائف : المقاربات . السرى : السير ليلاً .
(٤) راعف : من الرعاف وهو الدم السائل من الأنف .
(٥) ديوان الطغرأتى ص ٥٤ .
أشجار البادية ، المطارف : الثياب .

عشيرة ثعل المشهورون منذ امرىء القيس بحذقهم في رمي السهام ، وهم مسلحون بالسيوف والرماح ، يحمون نساءهم الفاتنات ، الرياضات في الحدور وكأنهن طباء في كِنَاس تحوطه غابة ضخمة من الرماح ، والأسد جثومٌ ، والموت الأحمر ينتظر كل من يدنو أو يقترّب .
وتقف عند شاعرين من شعراء الغزل في العصر .

أبو الفرج^(١) بن هندو

هو علي بن الحسين بن هندو ، وسقطت كلمة علي من اليتيمة وصحح الاسم الثعالبي في تسميتها . وكان من النابغين في الطب والفلسفة والأدب والشعر ، وله من الكتب مفتاح الطب والمقالة المشوقة في المدخل إلى علم الفلسفة وكتاب الكلم الروحانية من الحكم اليونانية وهو مطبوع ومنشور بالقاهرة . وقد تلمذ في الفلسفة والطب على يد أبي الخير بن الحمّار وكان من أجل تلاميذه ، ووفد على الصاحب بن عباد . فقرأ به إليه ، وكان أحد كتاب الإنشاء في ديوان عضد الدولة البويهى ، وعاش بعده طويلاً إلى أن وافته المنية بمرجان سنة ٤٢٠ . وكان له ديوان شعر لم يصل إلينا ، ويقول الثعالبي : « هو مع ضربه في الآداب والعلوم بالسهام الفائزة . وملكه رِقّ البلاغة والبراعة ، فَرَدَّ الدهر في الشعر وأوحد أهل الفضل في صيد المعاني الشوارد . ونظم القلائد والفرائد ، مع تهذيب الألفاظ البليغة وتقريب الأغراض البعيدة وتذكير الذين يسمعون ويروون بقوله تعالى : (أفسِحْ هذا أم أنتم لا تبصرون) » . ويُشَدُّ له كثيراً من غزلياته وخاصة في التثمة ، من ذلك قوله :

تقول : لو كان عاشقاً دَنَفًا إِذْ بَدَتْ صُفْرَةٌ بِخَدَّيْهِ
لَأَتَشَكَّرِيهِ فَإِنْ صُفَّرْتَهُ غَطَّتْ عَلَيْهَا دَمَاءُ عَيْنَيْهِ

وهو برهان بديع ، وطبيعي لمن درس الفلسفة أن يحسن التعليل ، فصفرته متوارية في خَدَّيْهِ ، توارى بها دماء عينيه . وتكثر هذه العلل الطريفة في غزله على شاكلة قوله :

عارضَ وَرْدُ الغصونِ وَجَنَّتُهُ فَاتَّفَقَا فِي الجِمالِ واخْتَلَفَا
يزداد بالقُطْفِ وَرْدُ وَجَنَّتِيهِ وَيَنْقُصُ الوردُ كلِّها قُطْفًا

فوجه صاحبته وردها غريب . ورد يزيده القطف ، إذ يزداد خدها به خجلا واحمرارا ، فيزداد الورد ويكثر ولا ينقص أبداً ولا تغيض حمرة ، بل لا يزال يولد فيه

(١) انظر في ترجمة أبي الفرج بن هندو اليتيمة ٣/٣٩٤ أنى أصبغة (طبعة مكتبة الحياة - بيروت) ص ٤٢٩ وتتمة اليتيمة ١/١٣٤ والدمية ٢/٥٧ ومعجم الأدباء وفوات الوفيات ٢/٩٥ وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ١٣/١٣٦ وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن

المقطف وردا لا ينتهى ، ويتلطف لصاحبه له قائلا :

أيا بدرا بلا كَلَفٍ به دونَ الوَرَى كلنِي
أَبْنُ لِي دُرٌّ تُعْرِكُ ما بهاءُ الدُّرِّ في الصَّدَفِ
وواضح أنه يطلب إليها في رقة أن تبسم له ، حتى تفتح له أبواب النعم على مصاريعها ، وعلى مثال هذا التلطف قوله :

قُولاً لهذا القَمرِ البادى مالِكَ إصلاحى • وإفسادى
زَوْدٌ فَوَادٍ راحلاً قُبَلَةً لأبَدَ للرَّاحِلِ من زادِ
فكل مسافر لا بد له من زاد ، وهو يريد أن يأخذ زاداً لروحه : قُبلة من محبوبته ، تظلُّ تغذِّى مشاعره ، حتى يعود إليها من رحلته الطويلة . ويحاول في غزله دائماً أن يأتي بصور مبتكرة ، فيجلب كثيراً من الصور الغريبة كقوله :

ليس بي من أذى الفراق اكتئابٌ قد كَفَنِي عَيْنِي جَمِيعَ اكتئابِ
كلما شئتُ أسبَلْتُ دَمَ قَلْبِي فأرى فيه صورةَ الأحبابِ (١)
فهو لا يكتب للفراق كثيراً من العشاق الذين طالما شكوا منه واكتبوا ، إذ تردُّ عينه عنه اكتابه بدموعها التي تنزف فيها دماء قلبه ، تلك التي يرى من خلالها صورة الأحباب ، فصورتهم لا تغادر دموعه . وإذا كان المحبون طالما شكوا من طول الليل وظلامه الداجي فإنه يناقضهم قائلاً :

ليت أن الليلَ دامتْ ظُلْمَتُهُ فلقد جَلَّتْ لدينا نِعْمَةُ
مَثَلْتُ صُدُغَيْكَ لِي ظُلْمَتُهُ وَأرْتِ خَدَيْكَ عَيْنِي أَنْجُمُهُ
فهو يتمثل في الليل محبوبته ، إذ يرى في ظلمته حُصَلَ شعرها المنسدلة على خديها ، ويرى خديها في نجومه المتألقة ، وهو يُعَدُّ في الوهم والتخيل ، وله :

قالوا اشتغل عنهم يوماً بغيرهم وخادع النفس إن النفس تتخدعُ
قد صيغَ قَلْبِي على مقدار حُبِّهم فا حَبُّ سِوَاهِمِ فيه مَتَّعُ
وهو ردُّ طريف على من يطلبون إليه السُّلوى عن بعض أحبابه بحبِّ سِوَاهِمِ ، فقلبه مشغول دائماً بهم وليس فيه مكان لغيرهم . وله معان طريفة كثيرة في موضوعات الشعر المختلفة ، من ذلك قوله في تخيل :

لو ماتَ لم يأكل الطعامَ إذا ما كان ذلك الطعامَ من كَيْسِهِ
ان لم شاهد دُخَانَ مَطْبَخِهِ فقد شَهِدْنَا دُخَانَ تَعْبِيسِهِ

فهو لا يأكل من كيسه ، بل يجزن المال ولا يرى سروراً إلا في خزنه ، ولم يشاهد أحد له دخاناً يعلو مطبخه ، فدخانه دائماً يعلو وجهه ، تعيس ما بعده تعيس . ويقول في النهى عن اتخاذ الأولاد والافتناع بالوحدة :

ما لِلْمُعِيلِ ولِلْمَعَالِي إِنَّمَا يَسْمَى إِلَيْنِ الْوَحِيدُ الْفَارِدُ
فَالشَّمْسُ تَجْتَابُ السَّمَاءَ وَحِيدَةً وَأَبْرُ بِنَاتِ النَّعْشِ فِيهَا رَاكِدُ
وبنات النعش نجوم معروفة في السماء لا تكاد ترم ، تشاهد بالقرب من القطب
الشمالي ويدعوه أباه . وله في الشكوى أشعار مختلفة منها قوله يشكو من مقامه بمدينة الرُّيِّ
دون طائل :

ضِعْتُ بِأَرْضِ الرُّيِّ فِي أَهْلِهَا ضِيَاعَ حَرْفِ الرَّاءِ فِي اللَّثَغَةِ
صِرْتُ بِهَا بَعْدَ بُلُوغِ الْمَنَى يَعْجِبُنِي أَنْ أَبْلَغَ الْبَلْغَةَ^(١)
ولعل في كل ما قدمنا ما يصور شاعرية أبي الفرج بن هندو وبراعته في نظم الشعر
والإتيان فيه ، وخاصة في الغزل ، بالصور والمعاني الطريفة المبتكرة .

أبو الفضل^(٢) الميكالي

هو عبيد الله بن أحمد من آل ميكال وجَّهَاء نيسابور ، وطلما عملوا مع السامانيين في
دواوينهم وولاءة لهم على بعض البلدان ، ومربنا تنويه الثعالبي بهم ، وفي أبي الفضل يقول :
« الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد يزيد على الأسلاف والأخلاف من آل ميكال زيادة
الشمس على البدر ، ومكانه منهم مكان الواسطة من العقد وما على ظهرها اليوم أحسن منه
كتابة وأتم بلاغة . ثم يورد الثعالبي قول بعض الشعراء في وصف بلاغته وحسن بيانه على
هذا النمط :

لَكَ فِي الْمُحَاسِنِ مَعْجَزَاتُ جَمَّةٍ أَبْدَأُ لَعِيرِكَ فِي الْوَرَى لَمْ تُجْمَعِ
بِحِرَانٍ : بِحَمْرٍ فِي الْبَلَاغَةِ زَانُهُ شِعْرُ الْوَلِيدِ وَحُسْنُ حِفْظِ الْأَصْمَى^(٣)
وَإِذَا تَفْتَقَ نَوْرُ شِعْرِكَ نَاصِرًا فَالْحُسْنُ بَيْنَ مَرْصَعٍ وَمَرْصَعِ
أَرْجَلَتَ فَرْسَانَ الْقَرِيضِ وَرُضَّتَ أَفْ رَلَسَ الْبَدِيعِ وَأَنْتَ أَمَّجِدُ مَبْدَعِ^(٤)
وليست عندنا معلومات واضحة عن حياة أبي الفضل ، ويذكر ابن خلكان أنه دخل

(١) البلغة : ما يمكن لسد الحاجة .

(٢) الوليد : البحري

(٣) انظر في أبي الفضل البيهقي ٣٥٤/٤ وفوات (٤) أفراس : ج فرس ، فرسان : ج فارس .

الوفيات ٥٢/٢ ، وابن خلكان ٢٠٢/٣ ، ١٠٩/٥

بغداد بعد صدوره من الحج سنة ٣٩٠ وأن له مصنفًا يسمى المتخل جمع فيه مختارات شعرية . ويروى الثعالبي له شعرا قاله في نكبة ، ويبدو أنه حُبس في عهد الغزنويين حين استولوا على إمارة السامانيين . وقد أنشد الثعالبي طائفة كبيرة من أشعاره منها بُدِّ في الغزل من مثل قوله :

لقد راعني بَدْرُ الدُّجى بِصدودهِ ووَكَلَّ أجفاني بِرَعِي كواكِبِهِ
فياجزعني مهلاً عساه يعود لي ويا كبدى صَبْرًا على ما كواكِبِهِ به

وواضح أنه قصد إلى الجناس قصدا في قافيتي البيتين ، فكلمه «كواكبه» في البيت الأول لا تنقص عنها شيئا كلمه «كواكبه» . وهذا هو البدع الذي يشير إليه مادحه . إذ شُغف الإيرانيون أو قل كثير منهم بصنعة الجناس ، حتى ليروى الثعالبي في يتيمة أن شاعرا يسمى أبا حفص عمر بن علي المطوعي ألف في أجناس التجنيس كتابا ، ويقول الميكالي :

أنكرت من أدمعى تَثْرَى سواكِبُها
سَلَى جُفونِي هل أبكى سواكِبُها

والبيتان خفيفان في موسيقاهما ، ولكنه أثقلها بهذا الجناس المتعمد في القافيتين : «سواكبا» و «سواك بها» . وقد يجعل الجناس بين كلمتين في البيت الواحد كقوله :
وأصداعُهُ يَلْسَعُنِي كالعقاربِ والحاظُهُ يَفْعَلَنَ فعلَ العَقَارِ بي
وقوله :

ألا ليت الجوابَ يكون خَيْرًا فَيَشْفِي ما أحاط من الجوى بي
والعقارب الأولى في البيت الأول : جمع عقرب ، والعقار في نهاية البيت : الخمر ،
والجوى في نهاية البيت الثاني : حُرقة الوجد ولوعته ، وقد أضاف إليها كلمة «بي» ليتم له
الجناس بين آخر البيت وكلمة الجواب في أوائله ، ويقول :

طَبِي بِحارُ البرقُ في بِريقِهِ غَنِيْتُ عن إِبْرِيقِهِ بِريقِهِ
فلم أزل أَرشُفُ من رَجِيْقِهِ حتى شَفِيْتُ القلبَ من حَرِيْقِهِ

وقد أدخل على كلمة «ريقه» وهو رُضاب الفم الباء ليتم له الجناس بين نهايتي
الشرطين المتقابلين ، والجناس في البيت الثاني أكثر قبولًا إذ جانس بين «رَجِيْقِهِ»
و «حريقه» لتداخل الصورة معه ولأن الجناس ليس تاما ، فالتكلف فيه يبدو أقل قليلا ،
ويقول :

شافَهُ كَفَى رَشًا بِقبلِهِ ما شَفَتِ
فقلتُ إذ قَبَلها يا ليت كَفَى شَفَتِي

والجناس مقبول في البيت الثاني ، وربما الذي جعله مقبولاً أن كلمة « كفى » هيأت له واستدعته ، فحذف التكلف فيه ، ولم تمنح النفس ، ومثله قوله :
 ماذا عليه لو أباح ريقه لقلب صب يشككي حريقه
 والجناس هنا بين « ريقه » و « حريقه » مقبول لأنه ليس جناساً تاماً يبدو فيه القصد والتكلف ، وكأنه جناس طبيعي استدعاه الكلام ، وقارن ذلك بقوله :

صَدَفَ الحبيبُ بوصلِهِ فجفا رُقادي إذ صَدَفَ
 ونثرتُ لؤلؤَ أدمعِ أَضحى لها جفني صَدَفَ

فقد جناس بين قافيتي البيتين باستخدامه كلمة « صدف » الأولى بمعنى أعرض ، والثانية بمعنى غشاء اللؤلؤة ، والتكلف شديد الوضوح . وكثيرون غيره من معاصره كانوا يذهبون مذهبه في هذا الجناس الثقيل الذي كثيراً ما تقابل فيه كلمتان كلمة واحدة ، ويقرب منه في هذا التصنع بل ربما زاد عليه وأرى أبو الحسن أحمد^(١) بن المؤمل ، وقد روى له منه الثعالبي أبياتاً كثيرة في الغزل وغير الغزل . وللميكالي وراء غزله أشعار في وصف الطبيعة وفي الإخوان ، وله مداعبات ، ولا يحلها أيضاً من تصنعه ، كقوله :
 فتى سخطَ النَّصبِ في قدره كما رضىَ الحَفْضَ في قدره
 وقد تصنع لذكر النصب والحفض المعروفين في النحو ، وأراد أنه لا ينصب قدره ولا يدع فيها شيئاً يطبخ ، كما رضى بالدون في قدره فلا كرم له ولا همة . ومن طريف ما روى له الثعالبي قوله :

كم والدٍ يحرمُ أولادَهُ وخيرُهُ يحظى به الأبعدُ
 كالعين لا تبصرُ ما حولها ولحظُّها يُدرك ما يبعدُ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على شاعرية أبي الفضل الميكالي ، ولو لم يثقلها بكلف الجناسات لبدأ خصبها واضحا ، إذ كان غزير المعاني والصور . وليس من ريب في أن إعجاب الشعراء والأدباء من حوله بجناساته هو الذي جعله يبالغ في ذلك ويغلو فيه .

٢

شعراء اللهو والمجون

كان شعر اللهو والمجون منتشرًا في إيران طوال العصر ، إذ كان هناك من ينغمسون في الملهاهي والخمور إما لتحلل الأخلاق وإما هروباً من مآسي الحياة وما فيها من اضطراب

(١) انظر ترجمته في البيهية ٤/١٤٨

القيم ، وكان يتورط فيها كثيرون من رجال الدولة : سلاطينها ووزرائها . ومرت بنا أبيات لعضد الدولة في غير هذا الموضع يقول فيها إن متاع الحياة إنما هو الشرب في المطر وغناء الجوارى في السحر . وكان وزراؤه على شاكلته يعكفون على الخمر ويتغنون بها في أشعارهم من مثل قول الصحابي بن عباد في وصف كأس مملوءة بالخمر^(١) .

رَقُّ الزَّجَاجِ وَرَاقَتِ الخَمْرِ وتشاها ، فتشاكل الأُمُرُ
فكأنما خمرٌ ولا قَدَحٌ وكأنما قَدَحٌ ولا خَمْرُ
وكان كثيرا ما يحاكي الصَّنَوْبِرِيُّ في ثلجياته أو بعبارة أخرى في ذكره الخمر مع الثلج ونزوله في الشتاء القارس وفي ذلك يقول^(٢) :

أقبلَ الثلجُ فانبسطَ للسرورِ ولشربِ الكبيرِ بعد الصغيرِ
أقبلَ الجُوُّ في غلائلِ نُورٍ وتهادى بسلولُو منشورِ
فكأنَّ السماءَ صاهرتِ الأَرَّ ضَ فصارَ النَّثَارُ من كافورِ
وكأنما يتصور الدنيا تجلج عروسا . وتتكاثر هذه الثلجيات عند غيره من شعراء العصر ، فقد أكثروا من وصف شرب الخمر واحتسانها في أيام الثلج وزمهريره ، ومعروف أن العكوف على الخمر قديم في إيران منذ أعتق عصورها ، وظل ذلك طوال الحقب ، ويقول أبو عبد الله الروزباري^(٣) :

ما لأبْنِ هَمٍّ سوى شَرِبِ ابْنَةِ العِنَبِ فهاتها قهوةٌ فَرَّاجَةٌ الكُرْبِ
أدهقَ كُثُوسَكَ منها واسقني طرباً على الغيومِ فقد جاءتك بالطَّربِ^(٤)
يثارُ غَيْثٍ حكي لَوْنَ الجُحَانِ لنا فاشربْ على منظرٍ مستحسنٍ عَجَبِ
جاد الغمامِ بدمعِ كَاللُّجَيْنِ جَرَى فجذ لنا بالتي في اللون كالذهبِ
فهى فرحتهم ومسررتهم في دنياهم ، وهم يعبون منها أرتالا تلو إرتال حين يكفهر الجو بالسحب ، لما تبعث في النفوس من طرب في أيام الشتاء المفضضة ، التي تنائر فيها الأمطار ، وكأنها يثار عرس مفرح ، نثار فضى مبهج ، ويقول أبو المظفر ناصر بن منصور البُستِيُّ المعروف بالغزالي^(٥) :

وإذا اضمومٌ تطاولتْ فاطلبُ لها عيشاً هنيئاً بانتراعِ مُدامِ
صهباءَ تَسَطَّعُ في الكُثُوسِ كأنها نارٌ تجيشُ بوقدةِ وِضْرَامِ
من كَفِّ سَاقٍ لو سقاك بكفه سَمًا لكان شِفَاءً لكل سَقَامِ

(٤) أدهق : أبلأ .

(٥) الدمية ٣٥٨/٢ .

(١) السجود الزاهرة ١٧١/٤ .

(٢) البيهقي ٢٦٦/٣ .

(٣) البيهقي ٤١٦/٣ .

وكانها معصورةً من خَدْوٍ إذ ظَلَّتْ تَرْمَقُهُ بِلَحْظِ سَامٍ
 وأبو المظفر يريد أن يعيش حياته لتناول الكئوس التي تلهب فؤاده ، من كف ساق
 يقدم له بها ما يشئ سقامه ، ويتخيلها كأنما عصرت من حدود جميلة ، وهو يكبّ عليها
 غير محتشم ولا مفكر في رشاد ، فحسبه الخمر وحسبه احتساؤها ، وليكن من الإثم ما
 يكون ! ودانما تلقانا هذه الخمريات في تراجم الشعراء ، إذ كان يتورط فيها كثيرون من
 مثل عمر الهرندي القائل ^(١) :

لا أحبُّ المُدَامَ إلا العَيْقَا ويكونُ المزاجُ من فيكِ ريقًا
 إنَّ بين الضلوعِ منيَ ناراً تتلظى فكيف لي أن أطيقا
 بحياتي عليك يا مَنْ سقاني أرحيقاً سقبتني أم حريقا

فبين ضلوعه نار متقدة لا يشفيها إلا الخمر وهو يعكف عليها ، ولا يدري أحريق هي أم
 رحيق لأنها تدفعه دائماً إلى المزيد ، بحيث لا يستطيع أن ينصرف عنها ، إذ تأخذ عليه
 طريقه . وإنها لتظلل تملؤه حباً لها وشوقاً لارتشافها ، وهو يرتشف ولا يدري أيرتشف رحيقا
 أو نارا أو قل أيرتشف شرابا هنيئا أو سماً زعافا ، وهو ممن في الشرب متعلق به ، لا
 يستطيع فككا منه ولا خلاصا . وكانت للخمر مواسم عندهم هي الأعياد الفارسية
 والمسيحية ، ففي عيد الشعانين وفي أعياد النيروز والمهرجان والسّدق أو النار الجوسية
 يشربون منها ويعبّون في احتفالات صاخبة . وكانوا يشربونها كثيرا وسط الرياض ، ولذلك
 يكثر عندهم معها وصف الطبيعة والربيع البيهج . وتلقانا في أثناء ذلك أبيات طريفة من
 مثل قول أبي منصور قَسَمَ بن إبراهيم ، وكان ينظم باللسانين العربي والقارسي ^(٢) :

وحجَبَ في الثلجِ الربيعُ وحُسْنُهُ كما اكتنَّ في بَيْضِ فِرَاحِ الطَّوَاوسِ
 وكانوا يخرجون أحيانا للصيد والطرد ، ولأحمد بن عضد الدولة طردية بدبعة ^(٣) .

ونعجب لألفاظ الفحش والمقاذر التي نجدها عند بعض الشعراء ، وهو جانب أشاعه في
 العصر ابن الحجاج الشاعر البغدادي المتوفى سنة ٣٩١ ومواطنه ابن سكرة . ويلاحظ ذلك
 صاحب الدمية حين يترجم للمشطّب الهمداني ، فيقول : « له أشعار سخيفة نسج فيها
 على منوال ابن الحجاج ^(٤) » ويذكر منها قصيدة مليئة بالفحش ، وحتى الصحاب بن
 عباد الوزير الوقور تجرئ أمثلة من هذا الفحش على لسانه في أشعاره ^(٥) ، وهي وصمة لا

(٤) الدمية ٥٧٢/١

(١) البيمة ٤١١/٣

(٥) البيمة ٢٧٧/٣-٢٧٥

(٢) تنمة البيمة ٤٥/٢

(٣) البيمة ٢٢١/٢

شك فيها . وحسبنا الآن أن نعرض شاعرين من شعراء الخمر والمجون في العصر هما أبو بكر القهستاني وأبو الحسن الباخري .

أبو بكر^(١) القهستاني

هو علي بن الحسن القهستاني من قرية رُحَج من قرى كابل ، بزغ نجمة في دولة السلطان محمود الغزنوي ، إذ سلكه بين ندمائه ووظفه في دواوينه ، واتصل بابنه محمد ، وأصبح رئيسا لديوانه في أثناء ولايته لأبيه على خوزستان ، وكان ممدحا ، مدحه كثيرون منهم الباخري والفَرَّخِي السجستاني الشاعر الفارسي المشهور ، وكان يمدح بدوره الأمير محمد الغزنوي ، بمثل قوله :

محمدُ بنُ محمودِ أبو أحِ سَمَدِ مَوْلَى أميرِ المؤمنينِ
جلالُ الدولةِ العَلِيَّاءِ دُنْيَا جِمالُ المِلَّةِ العَلْبَاءِ دِينَا
ولِيُ العَهْدِ عَهْدِ المَلِكِ طُوبَى لَنَا إِذِ ظَلَّ اللهُ ظِلُّهُ فِينَا

وهو يشير إلى تولية السلطان محمود لابنه محمد ولاية العهد من بعده دون أخيه مسعود . وتعدُّ الفترة التي قضاها معه أزهى فترات حياته . فقد كان يحس بإقبال الدنيا عليه ، وخاصه حين كان يتولى قيادة جيوشه . وقد تحول بمجلسه في ديوانه إلى ندوة أدبية كبيرة كان ما ينشأ فيها وفي مجالس أميره بإنشاد بعض الألغاز المعماة وامتحان الأدباء والندماء فيها من مثل قوله :

دقيقَةُ الساقِ لا عروقَ لها تَدوسُ رِزقَ الوَرَى بهامَتِها
وهو لغز أراد به مفرقة الباقلائي يعرفُ بها الماء ويهشم برأسها الخبز والثريد وهو رزق الوري . وتكثر هذه الألغاز منذ فاتحة العصر ، وزاها ماثوثة في كتاب اليتيمة في أشعار ابن العميد وغيره ، وكأنها دعابات كانت تطفو في مجالس الأدباء والوزراء . ويتولى محمد مقاليد الحكم بعد أبيه سنة ٤٢١ غير أن أخاه مسعودا يسلبه منه كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع . ونرى القهستاني يترك بلاط الغزنويين ودواوينهم إلى بغداد ، فيمدح الخليفة القادر بالله (٣٨٢ - ٤٢٤ هـ) قائلا :

ولم يرنِ ذُو مِيتَةٍ غَيْرِ خالتي وَغَيْرُ أميرِ المؤمنينِ بِيابِه
ويمدح وزيره وكتابه أبا طالب بن أيوب ، كما يمدح المرتضى نقيب الشيعة ويبدو أنه

(١) انظر في القهستاني تنمة اليتيمة ٧٣/٢ ودمية القصر
٢١١/٢ ومعجم الأدباء ٢١/١٣ وحدائق السحر في
دقائق الشعر (نشر الدكتور إبراهيم أمين) ص ١٠٠ .

ظل ببغداد إلى نهاية العقد الثالث من القرن الرابع ، حتى إذا استولى السلاجقة من السلطان مسعود الغزنوي على خراسان سنة ٤٣١ وضع يده في أيديهم إلى أن توفي . ولا تُعرف بالضبط سنة وفاته . وكان مثقفا ثقافة واسعة ، إذ يقول القدماء إنه عُني بتحصيل علوم الأوائل حتى اتهمه بعض معاصريه بالمروق من الدين . ويقول ياقوت إنه كان كثير المزاح ، راغبا في اللهو والمزاح ، وله في ذلك خاطرٌ وقادٌ وحكايات متداولة . وله خمريات بدیعة . ، كان يتغنى فيها المغنون بحضرة الأمير محمد الغزنوي من مثل قوله :

قُمْ يَا خَلِيلِي فَاسْقِنِي كَشْعَاعَ خَدِّكَ مِنْ شَرَابِ
فَلَقَدْ يَمُرُّ الْعَيْشُ مِنْ قَرَضًا وَلَا مَرَّ السَّحَابِ
فَانْعَمْ بَعِيثُكَ مَا اسْتَطَعْتَ وَلَا تُضْعَعْ شَرِخَ الشَّابِ
فَلَكُمْ أَضْعَتْ مِنَ الشَّبَابِ وَمَا اسْتَفْدَتَ سِوَى الْكِتَابِ

وهو يدعو صديقه دعوة حارة إلى الشراب ، قبل أن يفنى عمره الذي يمر مُسرِعاً مرَّ السحاب ، وقبل أن تذبل زهرة شبابه ، وكم أضع من أيام الشباب ، ولم يفد - كما يقول - سوى الاكتئاب والغم والحسرات ، ويهتف به ثانية :

تَمَّتْ مِنَ الدُّنْيَا فَأَوْقَاتُهَا خُلْسٌ وَعُمُرُ الْفَتَى - مَلَّتْ - أَطْوَلُهُ نَفْسٌ
وَسَارِعٌ إِلَى سَهْمٍ مِنَ الْعَيْشِ فَاتِرٌ فَمَا ارْتَدَّتْ سَهْمٌ قَطُّ يَوْمًا وَلَا احْتَبَسَ
وَلَا تَقَاضَى الْيَوْمَ هَمٌّ غَدٍ وَدَعَّ حَدِيثَ غَدٍ فَالِإِسْتِغَالُ بِهِ هَوَسٌ
هِيَ الرُّوحُ كَالْمَصْبَاحِ وَالرَّاحُ زَيْتُهَا فَدُونِكَ عَنِّي إِنَّمَا الرَّأْيُ يُقْبَسُ

وهي دعوة ملهية لانتهاز فرصة الشراب ، فليس في الدنيا وراءه - في رأيه - نعم ولا متاع ، ودَعَكُ من المهوم كما يقول ، ودع التفكير في الغد . وهي نفس النغمة التي نجدها في رباعيات الخيام الفارسية ، فالحياة فانية ، وهي سريعة الفناء ، وعلى الإنسان أن يتدارك يومه ، بل اللحظة التي هو فيها ، ليشرب وينعم بالشراب ، إذ هو زيت الروح ، بدونه تنظفي وتظلم ، وبه تضيء ضوء الفرح والبهجة والمرح . ودأبنا تلقانا هذه الخمريات البهيجة عند الفهستائي وأنداده من شعراء إيران ، وإنه ليعلم دائما أنه سيظل ما عاش يشرب الخمر صفوا . وله وراءها غزليات وأهاج في الوزير الميمندي كاتب السلطان محمود الغزنوي وبعض معاصريه ، وله بعض مقطوعات كان يتصنع فيها للجناس ما وسعه التصنع كمقطوعته :

تَمَّتْ بِيَوْمٍ مُسْعِدِ النَّجْعِ مُسْعِفِ وَدَعَّ قَوْلَ لَاحٍ مُعْتَبِ التُّصْحِ مُعْتَبِ
وهي مليئة من بدايتها إلى نهايتها بمثل هذه الجناسات ، وأيضا كان يقبس كثيرا بعض

الآيات القرآنية كقوله في بعض مدحيه :
 سما بك من فوق السموات رُتَبَةً أبُّ لك يدعو الله في السرِّ والجهرِ
 كما قد دعا موسى لهرون ربُّهُ أن (أشدُّد به أزرِي وأشركهُ في أمرِي)
 ولا ريب في أنه كان شاعرا بارعا ، كما كان كاتباً نابها دونت رسائله كما دونت
 أشعاره ، ويقول ياقوت : « له أشعار فائقة ، ورسائل رائقة » .

أبو الحسن ^(١) الباخري

له كنيستان أبو الحسن وأبو القاسم ، واسمه علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب ، من
 باخرز ، من نواحي نيسابور ، ونراه يُعنى في شبابه بالاختلاف إلى حلقات العلماء
 بنيسابور ، ويكبُّ على الاشتغال بالفقه على مذهب الإمام الشافعي ، ويختص بملازمة
 دروس الفقيه المشهور لعصره أبي محمد الجويني والد إمام الحرمين . ويتجه إلى فن
 الكتابة . ويوظف في ديوان الرسائل لدى الغزنويين ، وحين يرتفع نجم السلاجقة نراه
 يرحل إليهم ويشغل في دواوينهم ، إذ يصبح كاتباً للسلطان « طغرل » وله فيه مدائح بديعة
 من مثل قوله :

سِرْنَا ومِرَاةَ الزمانِ بِمالِها فالآنَ قد مُحِقَتْ وصارتُ مِنْجَلًا
 تَخَذُ الرِّكابُ فلا تَعُوجُ بنا على طَلَل الحبيبُ ولا نُحَيِّي المِترَلا ^(٢)
 وتَحَرَّكَ الأَعْطافَ تَشْمِيرا بنا تَتِمُّمُ المَلِكُ المَظْفَرُ طُغْرَلا

وقربه منه الوزير الكندي ، وكانا يتعارفان في شبابهما ، ويبدو أنه هو الذي وصله
 بطغرل ، وكان يلازمه في حله وترحاله ، فلما ورد بغداد صحبه معه ، وفيها مدح الخليفة
 القائم بأمر الله سنة ٤٥٥ بقصيدته التي صدر بها ديوانه مفتتحاً لها بقوله :
 عَشْنَا إلى أن رأينا في الهوى عَجَبًا كَلَّ الشهورُ وفي الأمثال عِشْرَ رَجَبًا
 أليس من عَجَبٍ أني ضُحِي ارتحلوا أو قَدْتُ من ماءِ دَمْعِي في الحشا هَبًا
 وأنَّ أَجْفانَ عيني أَمْطَرَتْ وَرَقًا وأن ساحةَ خَدَيَّ أنبتُ ذَهَبًا
 وإنَّ تَلْهَبَ بَرَقَ من جوانبهم توقَّد الشوقُ في جَنبِي والتهبا
 ولما سمع البغداديون شعره استهجنوه وقالوا فيه برودة العجم ، لما لاحظوا فيه من تكلف

(١) انظر في الباخري كتاب الأنساب ٥٧ ب ومعجم الأديب ١٣/٣٣ وابن خلكان ٣٨٧/٣ والنجوم الزاهرة ٤٥١ .
 (٢) تخذ - تسرح - تعوج : تميل

وتصنع ، على نحو ما نرى في البيت الأول إذ حاول أن يستغل المثل : « عِشْ رَجَبًا تَرَّ عَجَبًا » فقال إن شهور المدوح كلها عجيبة ، ومضى في تصنعه ، فإذ دموعه يوقد جحبا في حشاه وأجفان عينه تمطر ورقا أو دموعا كالفضة الصافية ، بينما تنبت ساحة خده حين الوداع ذبا ، وحين رأى البغداديين يستردون أشعاره انتقل إلى الكرخ وسكنها وخالط فضلاءها وسوقها مدة ، واقتبس من لغتهم وطرفهم . ثم أنشأ قصيدة استهلها بقوله :
 هَبَّتْ عَلَيَّ صَبَاً تَكَادُ تَقُولُ إِنِّي إِلَيْكَ مِنَ الْحَبِيبِ رَسُولُ
 سَكْرِي نَجَسْتِ الرَّبِّي لِتُرَوِّنِي مِنْ عَيْتِي وَهَوْبُهَا تَعْلِيلُ
 فاستحسنها البغداديون ، وقالوا تغير شعره ورق طبعه . وظل ملازما الكندري في مدينة الرِّيَّ عاصمة طغرل عاملا في دواوين الدولة ، ومقدما له مدائح كثيرة ، إلى أن قبض السلطان ألب أرسلان على الكندري وأمر بقتله ، وله مرثية فيه غير أنه يشيد فيها بقاتله ، مما جعل القدماء يأخذون عليه عدم الوفاء . ويبدو أنه أخذ يُعنى منذ ذلك بتأليف كتابه دمية القصر الذي نرجع إليه كثيرا ، مديلا به على يتيمة الدهر للثعالبي ، كما مرَّ بنا في غير هذا الموضوع . واستقال من عمله في دواوين السلاجقة وأخذ يعيش عيشة لاهية ماجنة انتهت بمقتله في إحدى ليالي أنسه سنة ٤٦٨ للهجرة . وكان ينظم ، باللسانين العربي والفارسي ، وله في الفارسية قصيدة طويلة جعل عنوانها « طرب نام » أو رسالة الطرب ، وهي مؤلفة من رباعيات فارسية تتوالى بحسب الترتيب الهجائي للحروف . وكان ما يزال يحاول النفوذ إلى معان وصور غريبة نادرة ، من ذلك قوله يصف شدة البرد وزمهريره .

كَمْ مَوْمنَ قَرَصَتْهُ أَظْفَارُ الشُّتَا فَعَدَا لِسُكَّانِ الْجَحْمِ حَسُودَا
 وَتَرَى طَيُورَ الْمَاءِ فِي وُكُنَاتِهَا تَخْتَارُ حَرَّ النَّارِ وَالسَّفُودَا
 وَإِذَا رَمَيْتَ بِفَضْلِ كَأْسِكَ فِي الْهَوَى عَادَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْعَقِيقِ عُقُودَا
 يَا صَاحِبَ الْعُودِينَ لَا تُهْمِلْهَا حَرَّقْ لَنَا عُودَا وَحَرِّكْ عُودَا

والصور في الأبيات تقوم على المبالغة الشديدة ، فالمؤمن يحمس سكان الجحيم والطيور تؤثر لو تُشوى على السفود . ولو رميت في الهوى بفضل الكأس لتجمدت حبات الحمر وأصبحت عقودا . وينادي على المغني أن يحرك عود طرب للغناء ويحرق عود حطب للصلاء . وله غزليات رقيقة من مثل قوله :

قَالَتْ وَقَدْ سَاءَلْتُ عَنْهَا كُلَّ مَنْ لَافِيْتُهُ مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادِي
 أَنَا فِي فُؤَادِكَ فَارِمٍ طَرَفِكَ نَحْوَهُ تَرْنِي فَقُلْتُ لَهَا وَأَيْنَ فُؤَادِي
 ففؤاده ليس عنده ، بل هو عندها ، إذ ضاع منه ، وهي التي تعرف مكانه ، وماذا

عليها لورده إليه . وله من جملة أبيات :

بصورة الوثن استعبدتني وبها قَتَّنتني وقدما هجَّت لي شَجْنَا
لا غَرَّو أن أحرقتُ نارَ الهوى كبلدي فالنارُ حقٌّ على من يَعْبُدُ الوثنا
والصورة طريقة غير أنه يداخلها شيء من التكلف ، إذ حاول أن يعلل لحرق نار
الهوى لكبده بأن صاحبه استعبدته بصورة الوثن ، وكأنه عبْدٌ وَثْنَا وَحَقَّتْ عليه النار ، ولم
يكن في حاجة إلى إيراد هذه العلة وتكلفتها على هذا النحو ، فإنا الهوى تحرق أكباد
الشعراء من قديم ، ولعل الصورة التالية أكثر تكلفا إذ يقول في غزله :

زكاة رهوسِ الناسِ في عيدِ فِطْرهم يقول رسولُ الله -صاعٌ من البرِّ
ورأسلكِ أغلى قيمةً فتصدَّقِ بفيكِ علينا فهو صاعٌ من الدرِّ

فقد وضع صورة الزكاة في عيد الفطر وما يجب على كل مسلم من تصدقه بصاع من البرِّ
أو القمح في هذا العيد ، ليصل إلى أن صاحبه ينبغي أن تتصدق عن نفسها لا بصاع من
البر وإنما بصاع من الدرِّ ، يريد ثغرها وما فيه من دُرِّ الأَسنان . والصورة في غاية التكلف .
وتكثر مثل هذه الصور منذ مطلع هذا العصر ، وكأنما أخذ يُعْبَى الشعراء أن يأتوا بصور
طبيعية أو كأنما أحسُّوا أن أسلافهم استفدوها ، فأخذوا يحاولون الإتيان بهذه الصور الغريبة
المبعدة في الغرابة من مثل قول الباخريزي أيضا لبعض صواحيبه :

وأبكي لدرِّ الثَّغرِ منكِ ولي أبُ فكيف يُديم الضَّحْكَ وهو يتيمٌ

فهو يبكي لأنها لا تئبله شيئا ، ويعجب أن يبكي وله أب ، بينما ثغرها يضحك ، وهو
يتيم . والتورية واضحة ، فالمعنى المتبادر أنه لا أب لهذا الثغر ، وهو يريد أنه منقطع النظر
حسنا . والتكلف في البيت أو قل في الصورة شديد الواضح .

٣

شعراء الزهد والتصوف

لا شك في أن موجة المجون وما اتصل بها من هو وخمر كانت موجة محدودة ، حتى
لنكاد تكون قاصرة على البيئات المترفة ، أما بيئات الشعب العامة فلم تكن تعرف الترف ولا
ما يستتبعه من الخمر والمجون ، إنما كانت تعرف قسوة الحياة وشظفها مستعينة عليها بتقوى
الله والاستماع إلى الوعاظ في المساجد بنيسابور وغير نيسابور وما يدعون إليه من الزهد في
الحياة ومتاعها الزائل وانتظار ما عند الله من ثواب ونعيم في الدار الآخرة . وكان هؤلاء
الوعاظ كثيرين كثرة مفرطة ، وكانوا يسمُّون مجالس وعظهم مجالس التذكير ، يذكرون

الناس بالمحشر وما فيه من أهوال وبعذاب النار ونعيم الجنان ، موردين عليهم من قصص الأنبياء والأمم السالفة ما يملأ قلوبهم إيماناً وتقوى وورعاً . وكانت العامة تُشغفُ بهم ، وتستدير حول مجالسهم منيية إلى الله مغذيةً مشاعرهما وعواطفها بما تسمعه من مواعظهم . وكان نفر من كبارهم مثل أبي عثمان الصابوني شيخ الإسلام بنيسابور المتوفى سنة ٤٤٩ ، وكان يعظ الناس بالعربية والفارسية لمدة ستين سنة متوالية^(١) ، وطبيعي أن يشعر مع هذا الوعظ شعر الزهد على السنة الوعاظ والفقهاء والنسك ، فهو الشعر الذي تهوى إليه أفئدة الشعب ، ولذلك مضى ينظمه غير شاعر حتى يستولى على ألباب سامعيه ، وتلقانا في العصر مواعظ كثيرة ، من مثل موعظة أبي الفرج الساوي حين توفى السلطان فخر الدولة البويهي ، فقد نفذ من موته إلى صنع موعظة طريفة استلها بقوله^(٢) :

هي الدنيا تقولُ بملءِ فيها	حَذَارِ حَذَارِ من بَطْشِي وَفَتْكِي
فلا يفرركمُ حُسْنُ ابْتِسَامِي	فَقُولِي مَضْحَكُ وَالْفَعْلُ مُبْكِي
يَفْخُرُ الدَّوْلَةَ اعْتَبَرُوا فَإِنِي	أَخَذْتُ الْمَلِكَ مِنْهُ بِسَيْفِ هُذَكِ
وقد كان استظالَ على البرايا	وَنظَّمْ جَمْعَهُمْ فِي سَيْلِكَ مَلِكِ
فلو شمسُ الضُّحَى جَاءَتْهُ يَوْمًا	لَقَالَ لَهَا عَتَّوًا : أَفَّ مِنْكِ
ولوزهرُ النُّجُومِ أَيْتَ رِضَاهِ	تَأَبَّى أَنْ يَقُولَ : رَضِيْتُ عَنْكِ
فَأَمْسَى بَعْدَ مَا قَرَعَ الْبَرَايَا	أَسِيرَ الْقَبْرِ فِي ضَيْقِ وَضْنِكِ
وظنِّي أنه لو عاد يَوْمًا	إِلَى الدُّنْيَا تَسْرِبَلًا تَوْبَ نُسْكِ

ومضى يتخذ من موت هذا السلطان الباغي عبرة وعظة ، فلو أنه عاد إلى الدنيا لطأطأ من كبرياته وعتوه وظلمه بل لرفض الدنيا زاهدا فيها مؤثرا أن يعيش عيشة النَّسْكَ . وفي كتاب البيعة شاعر يسمى أبا محمد إسماعيل بن محمد الدهان ، كان يشغل نفسه حقبة بمدح الأعيان والوجهاء ، ثم آثر الزهد والإعراض عن الدنيا ، ويورد الثعالبي أطرافا من شعره الزاهد^(٣) من مثل قوله :

عَبْدُ عَصَى رَبِّهِ وَلَكِنْ	لَيْسَ سِوَى وَاحِدٍ بِقَوْلِ
إِنْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهُ جَمِيلًا	فَإِنَّمَا ظَنُّهُ جَمِيلٌ

(١) انظر ترجمته في الأنساب ٣٤٦ وطبقات المفسرين

للسيوطي وشمه البيعة ١١٥/٢ والسبكي ٢٧١/٤ .

(٢) البيعة ٣٩٣/٣ .

(٣) البيعة ٤٣٢/٤ .

وهو يصورُ فناء الإنسان السريع وخوفه من ربه ورجاءه في لطفه ، ويذكر الثعالبي أنه لما أزمع الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ ظل ينشد :

أَتَيْتُكَ رَاجِلاً وَوَدِدْتُ أَنْيَ مَلَكَتُ سَوَادَ عَيْنِي أَمْتِطِيهِ
وَمَا لِي لَا أُسِيرُ عَلَى الْمَلَأَى إِلَى قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ فِيهِ

ومن شعراء كتاب اليتيمة الذين شاركوا في هذا الشعر الزاهد الذي يفوح بالتقوى أبو جعفر البحَّاث الزُّوزَنِي أحد القضاة بخراسان ، وله موعظة طويلة يتحدث فيها عن الشباب ورحيله والمشيب ونزوله ، ويقف بإزاء الزمان وما يدير على الناس من كئوس شراب هنئ وشراب بغيض مرير ، ويفيض في الحديث عن الحياة والموت وكيف أتى على الملوك والحشم والجيوش وربات الخدور والحسان ، ويسخر من الأغنياء حين يموتون فإن ورثتهم يستبشرون بموتهم ، وكل منهم يصبح في شغل بميراثه ، يقول (١) :

سَبَّاحُ حَوَالِيهِ زُرُقُ الْعَيُونِ كِلَابٌ وَأَسَدٌ وَذئْبٌ أَزَلٌ (٢)
فَهَذَا يَجَادِبُ مَا قَدْ حَوَاهُ وَهَذَا يُخَالَسُهُ مَا فَضَّلَ
إِذَا وَضَعُوهُ عَلَى نَعْشِهِ أَشَاعُوا الْبُكَاءَ وَأَسْرَوْا التَّجَدُّلَ (٣)
وَإِنْ دَفَنُوهُ نَسُوهُ مَعاً وَكَلُّ بِمِيرَاثِهِ مُشْتَقِلٌ

ويبكي أبو جعفر بدموع غزار على شبابه وما صار إليه من وهن العظم واشتعال الشيب في رأسه ، ويتوب إلى ربه منيباً مستغفراً . وبلقانا هذا الشعر الزاهد على السنة كثير من الشعراء في كتاب دمية القصر ، وخاصة منهم القصاص الوعاظ ، وكان طبيعياً أن يفسح هؤلاء الشعراء لمديح الرسول عليه السلام ، وعم هذا الشعر الزاهد بين شعراء المحدثين والفقهاء . وللزغشري ديوان لا يزال محفوظاً بدار الكتب المصرية وهو مليء بالأدعية والابتهالات وطلب الشفاعة من الرسول عليه السلام . وللغزالي بدوره أشعار زهدية كثيرة وقد يتزع بها سترع المتصوفة السنين على شاكلة قوله (٤) :

سَقَمِي فِي الْحَبِّ عَافِيَتِي وَوَجُودِي فِي الْهَوَى عَدَمِي
وَعَذَابٌ يَرْتَضُونَ بِهِ فِي فَمِي أَحْلَى مِنَ النَّعْمِ
مَا لُضِرُّ فِي مَحَبَّتِكُمْ عِنْدَنَا وَاللَّهِ مِنْ أَلَمِ

(١) اليتيمة ٤/٤٤٥ .

(٢) الجدل : الفرح .

(٣) ذئب أزل : ذئب يتولد بين الضبع والذئب . (٤) انظر ترجمة الغزالي في السبكي ٦/٢٢٢ .

وللفخر الرازي المار ذكره أشعار زهدية طريفة ، وكان علامة في علم الكلام والتفسير والحديث والشرعيات وعلوم الأوائل ، وله في جميعها مؤلفات كثيرة . وكان في الوعظ آية ، وكان يحضر مجالسه أرباب المذاهب والمقالات في هراة ، وكان يعظ باللسانين العربي والعجمي وكان يلحقه الوجد في الوعظ ويكثر من البكاء ، ويشتهر له قوله (١) :

نهاية إقدام العقولِ عِقالُ وأكثرُ سَعْيِ العالمينِ ضلالُ
وأرواحنا في وَحْشَةٍ من جُسُومنا وحاصلُ دُنْيانا أذى ووبالُ
ولم نَسْتَفِدْ من بَحْثنا طولَ عُمُرنا سوى أن جَمَعنا فيه قِيلَ وقالوا
وكم قد رأينا من رجالٍ ودولةٍ فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبالٍ قد علتْ شُرْفاتها رجالٌ فزالوا والجبالُ جبالُ
فكل ما في الحياة حتى العلوم عبثٌ وضلال ، وما الدنيا ؟ إننا لا نجني منها سوى الأذى والوبال ، وسوى العدم والفناء الذي يحيط بالناس جميعاً وبالذول مها عظم سلطانها ، فألها إلى زوال . ومن كبار الشعراء الفقهاء الزهاد الإمام الرافعي القزويني الفقيه الشافعي المشهور المار ذكره المتوفى سنة ٦٢٣ وكان له مجلس في قزوين لسماح الفقه والتفسير والحديث النبوي ، ومن قوله في الدعوة إلى الرضا بالحظ المقسوم وحمد الله في اليسر والعسر دائماً أبداً (٢) :

إن كنتَ في اليُسْرِ فاحمَدْ من جَباكِ بهِ فليس حَقًّا قَضَى لَكِنَّه الجودُ
أو كنتَ في العُسْرِ فاحمَدْه كذلك إذ ما فَوْقَ ذلكَ مصروفٌ ومردودُ
وكيفما دارتِ الأيامُ مقبلةً وغيرَ مقبلةٍ فالحمدُ محمودُ
وكان يقول : «اعلم أن الناس في الرضا ثلاثة أقسام : قوم يحسبون البلاء ويكرهونه ولكن يصبرون على حكمه ويتركون تدبيرهم ونظرهم حيا لله تعالى ، لأن تدبير العقل لا ينطبق على رسوم المحبة والهوى ، وقوم يضمون إلى سكون الظاهر سكون القلب بالاجتهاد والرياضة ، وإن أتى البلاء على أنفسهم :

يَسْتَعذِبُونَ بِبَلَايَاهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَبْتَاسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قُتِلُوا
تسرهم البلية كما تسرهم النعمة ، وقوم يتركون الاختيار ، ويوافقون الأقدار ، فلا يبتغي لهم تلذذ ولا استعذاب ولا راحة ولا عذاب . وفي ذكر الرافعي لكلمة المحبة ما يدل على أنه كان ينزع بزهده نزعة صوفية . والتصوف كثير في العصر ولم يكن النظم فيه يقتصر على

(١) ابن خلكان ٢٥٠/٤ والسبكي ٩٦/٨ . وما بعدها ٢٨٦/٨

(٢) انظر في الأبيات وكلام الرافعي التالى السبكي

شعراء اللسان العربي ، بل كان يشمل المتصوفة الذين ينظمون باللسان الفارسي ، على شاكلة الشيخ سعدى الشيرازي ، وله أشعار صوفية عربية من مثل قوله ^(١) .

يا نديمي قم بلبلي واستقي واسقي الندامي
 خَلَنِي أَنسَهْرُ ليلي ودَعِ الناسَ نياماً
 في أوانٍ كَشَفَ الوَرَّ دُ عَن الوجه اللثاماً
 قُلْ لمن عَيَّرَ أهل الـ حَبِّ بالحَبِّ ولا ما
 لا عَرَفَت الحَبَّ هِبا تَ ولا ذُقَت القَرَامَا

وهي خمرة صوفية طريفة . ومربنا في الفصل الأول أن المتصوفة في إيران كانوا يمثلون اتجاهين : اتجاهاً سنياً واتجاهاً فلسفياً ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند شاعرين يمثلان التزعتين ، هما عبد الكريم القشيري ويحيى السهروردي .

عبد الكريم ^(١) القشيري

ولد في قرية أستا بخراسان سنة ٣٧٦ وفيها بدأ تعليمه ، ثم انتقل إلى نيسابور حاضرة خراسان العلمية لعصره ، واتفق أن حضر مجلس الصوفي الكبير أبي علي الدقاق ، فأعجب به وصلكه بين مرديه ، وأشار عليه بالاشتغال بالعلم والفقه ، فأقبل على دروس أبي بكر الطوسي الفقيه الشافعي ، ثم اختلف إلى دروس ابن فورك حتى أتقن علم الأصول ، كما اختلف إلى دروس أبي إسحق الإسفرايني الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي ، ونظر في كتب القاضي الأشعري أبي بكر بن الطيب الباقلاني . وسرعان ما أصبح علامة في الفقه الشافعي وفي التفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف وعلم الكلام على مذهب الأشعري . وزوجه الدقاق ابنته حباً له ، حتى إذا توفي خلفه في مجالسه سالكاً مسالك المجاهدة والتجريد ، وأخذ في التصنيف ، فصنف التفسير الكبير قبل سنة عشر وأربعمائة وسماه « التيسير في علم التفسير » وهو - كما يقول ابن خلكان - من أجود التفاسير . وخرج إلى الحج في رفقة ، فيها الشيخ أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين وأحمد

(١) الكشكول لبهاء الدين العاملي (طبعة الحلبي) ٢٨٠/٨ وإنباه الرواة للقفطي ١٩٣/٢ وشذرات الذهب

للمعاد ٣١٩/٣ واللباب ٢١٤/٢ والنجوم الزاهرة ٩١/٥ ٢٦٣/١

(٢) انظر في ترجمة القشيري كتاب الأنساب للسمعاني ٤٥٣ ب وتاريخ بغداد ٨٣/١١ وابن خلكان ٢٠٥/٣

٢٥٩/٣ .

وعدة القصر والسبكي ١٥٣/٥ والمتنظم لابن الجوزي

ابن الحسين البیهقي وجماعة من المشاهير ، فسمع معهم الحديث ببغداد والحجاز . وعقد لنفسه في نيسابور مجلس الإملاء في الحديث ومجالس الوعظ منذ سنة ٤٣٧ وقصدہ الطلاب من كل صوب . وذكره الخطيب البغدادي ، فقال : « قدم علينا بغداد في سنة ٤٤٨ وحدث ببغداد وكنا عنه ، وكان ثقة ، وكان يقص ، وكان حسن الوعظ مليح الإشارة » ويقول البخارزي واصفاً وعظه : « لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب ، ولو ربط إبليس في مجلسه لتاب » .

وكان يعتق مذهب الشافعي في الفقه والفروع ومذهب الأشعري في علم الكلام والأصول . وكان يجمع بين الشريعة والحقيقة ، وهو - كما مر بنا في الفصل الأول - من أوائل من رأوا الصدع الذي كان قد تفاقم بين المتصوفة وأهل السنة ، وذلك في رسالته المشهورة التي نقلنا عنها فقرة طويلة في الفصل المذكور ، والتي وجهها إلى الصوفية وأهل السنة ، وخلفه في هذا الصنيع الغزالي السني . ولا ريب في أن له فضلاً كبيراً في الجمع بين الطرفين المتعارضين وإزالة ما بينها من خلاف ، بحيث أصبح أداء الفروض الدينية جزء لا يتجزأ من التصوف ، كما أصبح التصوف نتيجة طبيعية للتمسك بتلك الفروض تمسكاً ينتهي إلى التسك والمحبة الإلهية ، دون مغالاة من شأنها أن تدفع بالمتصوف إلى منازع فلسفية متصل بالحلول وما إلى الحلول من اتحاد بالذات الإلهية . وتلك هي صورة التصوف السني الذي رفع عماده القشيري ، وكان شاعراً وله أشعار كثيرة . تصور تصوفه وزهده من مثل قوله :

وإذا سقيتُ من المحبة جرعةً ألقيتُ من قرطِ الخمارِ بخاري
كم تبتُ قصداً ثم لاحَ عذارُهُ فخلعتُ - من ذاك العذار - عذارى
والخمارِ بضم الحاء بقية السكر والخمار بكسر الحاء الحجاب . يقول إنه يسكر بنشوة الحب الإلهي ، وإنه إذا أخذ يتناول جرعات تلك الخمر الإلهية رفعت الحجاب بينه وبين محبوبه . وإنه ليتوب ثم تراءى له شواهدة . فيعود ثانية إلى سكره والنشوة بحبه ، أو كما يقول . يخلع عذاره كتابة عن أنه يتهمك فيه ويقول :

ومن كان في طول الهوى ذاق سلوةً فإني من ليلى لها غير دائق
وأكثرُ شيء نلته من وصالها أمانئ لم تصدق كحظفة بارق
فهو لا يسلو هواه ولا يكفُّ عنه ، لأنه هوى يتعمق شغاف قلبه فلا يستطيع انفكاكاً عنه ولا خلاصاً منه ، هوى لا يزال يتعمر في شبابه . ومع ذلك لا ينال من وصال المحبوب شيئاً إلا أمانئ تبدو له كما يبدو البرق الخاطف في السحاب . ويقول :

سَقَى اللهُ وَقْتًا كُنْتَ أَخْلُو بِوَجْهِكُمْ وَثَقَّرَ الْهَرَى فِي رَوْضَةِ الْأَنْسِ ضَاكِحٌ
 أَقْمَنَا زَمَانًا وَالْعَيُونَ قَرِيرَةً وَأَصْبَحَتْ يَوْمًا وَالْجَفُونَ سَوَافِكُ
 وهو يتحدث عن الوصال الذي يذكره المتصوفة هذا الحديث الرمزي ، فقد كان
 ينعم به زماناً أو قل كان يحيل إليه أنه ينعم به ، وكانت تمتلئ نفسه بهجة وفرحة ، غير أنه
 أصبح يوماً ، فإذا الوصال كان حلاً ، وإنه ليطلبه باكياً بكاء لا ينقطع ، بكاء كله
 جزع ، وكله لوعة وحسرة . وله وراء ذلك تبتلات طريفة من مثل قوله :

يَا مَنْ تَقَاصَرَ سُكْرِي عَنْ أَبَادِيهِ وَكَلَّ كُلُّ لِسَانٍ عَنْ مَعَالِيهِ
 وَجُودُهُ لَمْ يَزَلْ فَرْدًا بَلَا شَبِيهِ عَلَاً عَنِ الْوَقْتِ مَاضِيهِ وَآتِيهِ
 لَا دَهْرٌ يُخْلِفُهُ لَا قَهْرٌ يَلْحَقُهُ لَا كَشْفٌ يُظْهِرُهُ لَا سِتْرٌ يُخْفِيهِ
 لَا عَدَّةٌ يَجْمَعُهُ لَا ضِدٌّ يَمْنَعُهُ لِاحِدًا يَقْطَعُهُ لَا قَطْرٌ يَحْوِيهِ
 لَا كَوْنٌ يَحْصُرُهُ لَا عَوْنٌ يَنْصُرُهُ وَليْسَ فِي الْوَهْمِ مَعْلُومٌ يُضَاهِيهِ
 جَلَالُهُ أَزْلَى لِازْوَالٍ لَهُ وَمُلْكُهُ دَائِمٌ لَا شَيْءَ يُفْنِيهِ

والتبثل يقوم على التنزيه الشديد للذات العلية ، وأنه فرد لا شبيه له ، سماع كل زمن
 ماض وحاضر ، فلا زمن يحصره ولا دهر ينال منه ، وهو القاهر فوق عباده ، موجود في
 كل زمان ومكان ، دون انكشاف ودون حجاب ، ودون حصر ، ودون حد يطيف به أو
 مكان يحتويه ، ليس كمثلته شيء ، أزلى لازوال لجلاله ولا فناء للملكه . وهو تجريد قوى
 للذات العلية يفصل به القشيري وأصحاب التصوف السني عن أصحاب التصوف الفلسفي
 وما آمنوا به من الحلول والاتحاد بالذات الإلهية . ويقول :

جَنَّبَانِي الْمَجُونَ يَا صَاحِبِيًّا وَاتَّلُوا سُورَةَ الصَّلَاحِ عَلِيًّا
 قَدْ أَجَبْنَا لِزَاجِرِ الْعَقْلِ طَوْعًا وَتَرَكْنَا حَدِيثَ سَلْمَى وَمِيًّا
 وَمَنْحَنَا لِمَوْجِبِ الشَّرْعِ نَشْرًا وَشَرَعْنَا لِمَوْجِبِ اللَّهِوِ طِيًّا
 وَوَجَدْنَا إِلَى الْقِنَاعَةِ بَابًا فَوَضَعْنَا عَلَى الْمَطَامِعِ كِيًّا
 كُنْتُ فِي حَرٍّ وَحَشْنِي لِاخْتِيَارِي فَتَعَوَّضْتُ بِالرَّضَا مِنْهُ قِيًّا (١)

وهو يعلن في الايات سلوكه في الطريق ، وكان الانحراف عن هذا السلوك مجنوناً
 أو يشبه المجون ، وقد لبي عقله ودواعيه وترك اللهو وبواعثه ، فهو يعيش للشرعية المحمدية
 قانعاً ، زاجراً مظامعه في متاع الحياة . ويتصور كأنه كان يقضي أيامه قبل تصوفه في فيافي

وحشة شديدة الحرارة ، حتى أفاء عليه التصوف بظلاله الوارفة ، ظلال نهل فيها كتوس المني . ومن ينهل منها لا يستطيع أن يفارق مواردها وينابيعها الثرة أو يصد عنها ، لأنها ينابيع الصلاح والرشاد . وما زال القشيري غارقاً في هذه المشاعر الصوفية ناعماً بها حتى توفي سنة ٤٦٥ بنيسابور ودفن بجوار شيخه أبي علي الدقاق .

بجى^(١) السهروردى

ولد بجى بن حبش حوالى سنة ٥٤٥ للهجرة بسهرورد في الإقليم الإيراني المعروف باسم إقليم الجبال ، وبموطنه تلقى ثقافته الأولى ، وتركه مبكراً إلى مدينة المراغة ، ثم إلى أصفهان حيث درس الفقه وأكب في أثناء ذلك على كتب التصوف والفلسفة . وأعجب بالصوفية فصحبهم وأخذ نفسه بطرقهم في الرياضة والمجاهدة . وأكثر من الرحيل للقاء العلماء والمتفلسفة والمتصوفة . ومدت تجواله وترحاله إلى ديار الشام . وكان قد أصبح شيخاً من شيوخ التصوف الفيلسفي ، فكان يجادل الفقهاء . واستوت له فلسفة تصوفية إشراقية تعتمد - كما يقول دارسوه - على غنوصية آسيوية ، وخير ما يصور ذلك من كتبه الكثيرة التي بلغت أكثر من أربعين كتاباً مصنفه : « حكمة الإشراق » وهو قسمان : قسم خص به المنطق الذي يضبط الفكر ضبطاً دقيقاً ، وقسم ثان قصره على الأنوار الإلهية ، عرض فيه لنور الأنوار وحقيقته وما يصدر عنه ، كما عرض فيه للمعاد والنبوات والمنامات . وهو يتنقد المنطق والفلسفة نقداً واسعاً ، غير أنه يراها ضروريين للمتصوف ، حتى يتعاقق في داخله العقل والقلب أو الذوق . ولجّ السهروردى في نظرية النور وما يقابلها من الظلمة ، وكأنه يتأثر النحل الفارسية من زرادشتية وغيرها في ثنائية النور والظلمة وتقسيم العالم إلى عالم ظلمة وعالم نور . وفي رأيه أن الموجودات انبثقت عن نور الأنوار بطريق الفيض إلى ما لا نهاية ، ومن ثم كان يقول بوحدة الوجود وبالحللول الإلهي في الكون والكائنات . وذهب إلى النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفي المتوغل في تصوفه أفضل وأسمى من الأنبياء . وكان طبيعياً أن يكفره الفقهاء في « حلب » وأن يحملوا الملك الظاهر ابن صلاح الدين على قتله سنة ٥٨٧ للهجرة . ولما تحقق القتل كان يُنشد :

والنجم الزاهرة ١١٤/٦ ودائرة المعارف الإسلامية وتعليق الدكتور محمد مصطفى حلمي على ترجمته فيها وفتاوى ابن نيمية ٩٣/٥ والفلسفة الصوفية في الإسلام لعبد القادر محمود (طبع دار الفكر العربي) ص ٤٤٠ وما بعدها .

١) انظر في ترجمة بجى السهروردى معجم الادباء ياقوت ٣١٤/١٩ وابن خلكان ٢٦٨/٦ وعميون الأنبياء في طبقات الأطباء ص ٦٤١ وقد خلط ابن أصيبعة بينه وبين الشهاب عمر السهروردى المتصوف البغدادي السني ، وانظر مرآة الجنان ٤٣٤/٣ ولسان الميزان ١٥٦/٣

أرى قَدَمِي أَرَاقَ دَمِي وَهَانَ دَمِي فَمَا نَدَمِي
ولكنه ندم ولات حين مندم . ومن كلامه : حرام على الأجساد المظلمة أن تلج
ملكوت السموات ، فوحّد الله وأنت بتعظيمه ملآن ، واذكره وأنت من ملابس الأكوان
عُرْيَان ، ولو كان في الوجود شمسان لانظمت الأركان ، فأنى النظام أن يكون غير
ما كان :

وَحْفِيْتُ حَتَّى قَلْتُ لَسْتُ بِظَاهِرٍ وَظَهَرْتُ مِنْ سَعْيِي عَلَى الْأَكْوَانِ
والبيت يشير بقوة إلى فكرتي الحلول والاتحاد في الذات العلية وكان يكثر من ترداد
قوله :

لَوْ عَلِمْنَا أَنَّنَا مَا نَلْتَقَى مَا قَضَيْنَا مِنْ سُلَيْمَى وَطَرَا
والشُّهُورِدَى يشير في وضوح إلى فكرة الشهود المعروفة عند المتصوفة وله شعر صوفي
كثير من مثل قوله :

أَقُولُ لِحَارِقِي وَالِدَمْعِ جَارِي وَبِ عَزْمِ الرَّحِيلِ عَنِ الدِّيَارِ
ذَرِينِي أَنْ أُسِيرَ وَلَا تُتَوَحَّى فَإِنَّ الشُّهْبَ أَشْرَفُهَا السَّوَارِ
وَإِنِّي فِي الظَّلَامِ رَأَيْتُ ضَوْءًا كَأَنَّ اللَّيْلَ بُدِّلَ بِالنَّهَارِ
وَيَبْدُو لِي مِنَ الزُّورَاءِ بَرِّقَ بِذِكْرِي بِهَا قَرَبَ الْمَزَارِ
إِذَا أَبْصَرْتُ ذَلِكَ النُّورَ أَفْتَى فَمَا أُدْرِي يَمِينِي مِنْ يَسَارِي

وهو يذكر في الأبيات فكرة نور الأنوار إزاء عالم الظلمة الكثيف ، كما يذكر فكرة
الفناء الصوفية وكيف أنه يفنى عن كل ما حوله فلا يعود يشعر إلا بنور الأنوار أو بإلهه وما
أنعم عليه - كما يتصور - بنعمة الوصال ، بل بنعمة الاتحاد والاندماج بنوره . وله حائية
رائعة يسبها بقوله :

أَبْدَأُ نَحْنُ إِلَيْكُمْ الْأَرْوَاحُ وَوَصَالِكُمْ رِيحَانُهَا وَالرَّاحُ
وَقُلُوبُ أَهْلِ وِدَادِكُمْ تَشْتَاكُمُ وَإِلَى لِذِيْدٍ لِفَائِكُمْ تَرْتَاخُ
وَارْحَمْنَا لِلْعَاشِقِينَ تَكَلَّفُوا سَتَرَ الْحَبَّةِ وَالْهَوَى فِضَّاحُ

وهو يخاطب الذات الإلهية قائلاً إن كل الأرواح معلقة بها هائمة تمني وصلها لتجد فيه
ريحانها وراحها ونشوتها التي لا تماثلها نشوة ، وإن القلوب لتحن إليها دائماً مشتاقة مولعة
شاعرة بنعيم ما بعده نعيم ، ويأسى لعاشق الذات الإلهية ، فهم لا يستطيعون إخفاء عشقهم
ولا كتمانهم ، للموعوم التي تقطر دائماً على خدودهم سحاً وتسكاباً ، ويتضرع إلى المحبوب
قائلاً :

عودوا بنور الوصل من عَسَق الجفأ فالهجر ليلُ والوصالُ صباحُ
صافاهمُ فصفوا له فقلوبهم في نورها المِشكاةُ والمِصباحُ
ومتعموا فالوقتُ طاب بقربكم راقُ الشرابُ ودارتِ الأقداحُ

وهو يعود إلى فكرة النور ويصلها بفكرة الظلمة فالوصل نور مشرق والهجر ظلام
داج ، وهو يشير بالمشكاة والمصباح إلى الآية الكريمة : (الله نورُ السموات والأرض مثل
نوره كمشكاة فيها مصباحُ المصباحُ في زجاجةِ الزجاجِ كأنها كوكبٌ دريُّ يوقد من شجرة
مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نارنورٌ على نور يهدي
الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) وكان في قلوب
الصوفية نور الله ، وهو يريد بذلك الاتحاد بالذات الإلهية النورانية ، وهو اتحاد يعنى السكر
والنعم بنشوة هذه الخمر الربانية التي راقت وأخذت كتوسها وأقداحها تدور على المحبين كما
يقول ، أقداح من شرابِ روحى مصفى ، ويقول مصورا لهم في حال سكرهم :

لا يَظربون بغيرِ ذِكْرِ حَبِيبِمْ أبدأ فكلُّ زمانهم أفرأحُ
حَضروا وقد غابتْ شواهد ذاتهم فتَهَكَّوا لَمَّا رأوه وصأحوا
أفناهم عنهم وقد كُشِفَتْ لهم حجبُ البقا فتلاشتِ الأرواحُ

فهم سكارى فرحون بذكر حبيبهم ، وهم حاضرون غائبون ، وكأنما يفنون عن ذاتهم
وأجسادهم بل هم فانون فعلا ، لا يدركون حساً منهم ولا ما يشبه الحس ، إذ أصبحوا في
الحضرة الإلهية ، وأصبحوا لا يحسُّون ولا يبصرون سواها ، وإنهم ليصبحون وبعلو
صباحهم فرحا وابتهاجا بما صاروا إليه من الفناء والاتحاد بالله ، وبما كشف عنهم من
الحجب والأستار . وواضح ما يداخل هذه الآيات من أفكار صوفية فلسفية كان
ينكرها - كما قلنا - أصحاب التصوف السني ، فهم لا يعرفون فناء ولا اتحادا ،
ولا يدعون غيبة وهم حضور ، كما لا يدعون رؤية الله بأبصارهم فإنه كما قال القشيري أنفاً
لا يبعده زمان ولا مكان ولا تبصره العيون ولا ينكشف لأحد ، ليس كمثل شيء ،
ولا كم له ولا كيف (لا تُدرکه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) وليحيى
السهروردي قصيدة في النفس حاكي فيها قصيدة ابن سينا العينية المشهورة التي صور فيها
النفس سابقة للجسد ، وهي تحل فيه ودائماً متشوقة إلى عالمها المثالي الأول ، وفي ذلك
يقول السهروردي :

خَلَعَتْ هياكلها بجرعاء الحمى وَصَبَتْ لَمَعْنها القديم تَشوقاً

فهى تشاق عالمها القديم ، ولذلك تفارق الجسد الذى حلت فيه راضية مرضية ، ولعل فى هذه القصيدة ما يؤكد صلة السهروردى بابن سينا وفلسفته الإشراقية فضلا عن صلته بالفلسفة عامة .

٤

شعراء الحكمة والفلسفة

الحكمة قديمة فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، ونجدها مترابطة فى مطوِّلة زهير وكانت تجرى على ألسنة كثيرين يقطرون خبراتهم شعرا ، ليتفع بها أبناء قبائلهم ومن حولهم ، وتظل ماثلة فى الشعر العربى طوال العصر الإسلامى ، وتكثر فى العصر العباسى وتتعدد روافدها الأجنبية بتعدد الثقافات التى عرفها العرب والتى نقلت عنها لهم الحكم والأمثال . ومرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن أبان بن عبد الحميد نقل من الفارسية إلى العربية كتاب كليله ودمنة وما فيه من أمثال وحكم فى نحو أربعة عشر ألف بيت ، وأن أبا العتاهية نظم مزدوجة طويلة سماها ذات الأمثال ، وكلها حكم ، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت ، وروى أبو الفرج فى ترجمته بكتابه الأغاني منها قطعة طويلة ، وأكبر الظن أن كثيرا من هذه الحكم نقلها أبو العتاهية عن الفارسية ولعله أخذها من بعض كتب الأدب الفارسي التى ترجمها ابن المقفع وغيره ، وفى شعر أبى نواس بعض أمثال فارسية نصّ عليها القدماء . وقد مضى شعراء العصرين العباسى الأول والعباسى الثانى يسلكون فى أشعارهم بعض الأمثال الفارسية والعربية ، حتى إذا كنا فى هذا العصر بإيران وجدنا الشعراء الإيرانيين ينقلون كثيرا من الأمثال المعروفة فى لغتهم إلى أشعارهم العربية ، بل لقد تصدّى نفر منهم إلى صنع قصائد حكمية ، هى ترجيات لبعض الأمثال الفارسية على نحو ما نجد عند أبى عبد الله الضرير الأبيوردى ، فقد ذكر له الثعالبي قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس ، أنشد منها بعض الأبيات من مثل قوله (١) :

صيامى إذا أفطرتُ بالسُّحْتِ ضَلَّةٌ	وعلمى إذا لم يُجدِ ضربٌ من الجَهْلِ (٢)
وتركبنى مالا جمعتُ من الرِّبَا	رياءٌ وبعض الجود أخزى من البُحْلِ
كسارقة الرُّمَّانِ من كَرَمِ جارها	تعود به المرصى وتطمع فى الفضل
ألأربُ ذنِبٌ مرٌّ بالقومِ خاوياً	فقالوا علاه البُهرُ من كثرة الأكل (٣)

(٣) البير : تابع النفس .

(١) البنية ٤/٩٠

(٢) السحت : الكسب الحرام .

وكان الشعراء يضمّنون قصائدهم وأشعارهم كثيراً من الحكم ، ومن خير من يمثل ذلك الطّرفائى فى لاميته المسماة لامية العجم ، وهى تُفصّل بالحكم والأمثال منذ مطالعها ، ونكتفى بسرد طائفة من طرائفها على هذا النمط :

حبُّ السلامة يثنى همَّ صاحبه عن المعالي ويغرى المرء بالكسل
أعللَّ النفسَ بالآمالِ أرقبها ما أضيق العيشَ لولا فسحةَ الأمل
تقدمتنى أناسٌ كان شوطهمُ وراءَ خطوئى إذ أمشى على مهل
وإن علانى منْ دونى فلا عجبُ لى أسوءُ بالخطا ط الشمس عن زحل
أعدى عدوك أذنى منْ وثقتَ بهِ فحاذرِ الناسَ واصحبهم على دخل^(١)
وإنما رجلُ الدنيا وواحدُها منْ لا يعولُ فى الدنيا على رجل
وأكبر الظن أن الطرفائى لم ينقل شيئاً من هذه الحكم عن الفرس إنما هى ثمرة تجاربه وخبرته بالدنيا وبالناس من حوله .

ونمت الفلسفة فى هذا العصر نمواً واسعاً ، ونمت معها علوم الأوائل على نحو ما مرّ بنا فى الفصل الثانى ، وظهر كثير من المتفلسفة أمثال ابن سينا وله أشعار تشع بشيء من تفلسفه قليلاً أو كثيراً وأثرت له رباعيات فارسية وأشعار عربية فى الزهد والحكمة وبعض مسائل طبية وفلسفية . وأهم تلك الأشعار وأشهرها قصيدته العينية عن النفس ، وهى تصوّرها فى عالمها العلوى الذى كانت تحيى فيه قبل اتصالها بالبدن حين يتخلّق فى الرحم ، وفى عالمها السفلى حين تمّ هذا الاتصال بالجسد . وهو اتصال تُقدّم عليه وهى كارهة ، وتظل فى أثناءه متشوقة إلى عالمها العلوى ، مع ما حدث لها فيه من آفة ، ولذلك تنفصل عنه كارهة كما اتصلت به كارهة ، يقول^(٢) :

هبطتُ إليك من المحلِّ الأرفعِ ورقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمتعِ
محبوبةٌ عن كلِّ مقلّةٍ ناظرِ وهى التى سقرتْ فلم تتبرقعِ
وصلتُ على كرهٍ إليك وربما كرهتُ فراقك وهى ذاتُ تفجعِ
أنفتُ وما ألفتُ فلما واصلتُ ألفتُ بجاورةِ الخرابِ البلقعِ
وأظنّها نسيتْ عهداً بالجِمْى ومنازلاً بفراقها لم تنقعِ
حتى إذا اتصلتْ بهاء هبوطها من ميمٍ مرّكها بذاتِ الأجرعِ
علقتُ بها ناءَ الثَّقيلِ فأصبحتُ بين العالمِ والطلولِ الخُصعِ

(١) نشر دار مكتبة الحياة - بيروت) ص ٤٤٦ وقارن باين

خلكان ١٦٠/٢

(١) دخل : خبث ومكر

(٢) انظر العينية فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة

والورقاء : الحمامة كنى بها عن النفس . وهو يصورها تهبط من علمها الرفيع أو الأرفع ، عالم العقول المجردة أو العقول الكلية ، الذى تجد فيه سعادتها وكماها ، ولذلك هى تهبط منه شاعرة بغير قليل من العزة والشرف ، محجوبة عن كل حس ، ومع ذلك تسفر للعقول فتدركها دون أن تبصرها ، وتنزل فى البدن كارهة لأنه ليس من جنسها ، غير أنها تأنس له مع الأيام ، حتى إذا فارقت توجعت له وتفجعت عليه ، مع أنه بدونها خراب بلقع مقفر ، وكأنما نسيت عهدوها بعالمها العلوى لأنسها لهذا الجسد الفانى الذى هبطت إليه من مركزها الرفيع وعشقت ، عشقت مشخصاته الأرضية التى عبر عنها بالثقل وبذات الأجرع ، وغدت تحن إلى دياره ومعالمه وطلوله حنين الشعراء لمعشوقاتهم ، ويمضى قائلا :

تبكى وقد نسيت عهداً بالجمي بدماع تهمي ولما تفلح
وتظل ساجدة على الدمن التي درست بتكرار الرياح الأربع
حتى إذا قرب المسير إلى الجمي ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت مفارقة لكل خلف عنها حليق التراب غير مشيع
هجعت وقد كشف الغطاء وأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجعت
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق والعلم يرفع كل من لم يرفع

فهى تحن إلى عهدوها القديمة وتبكى بدموع غزار الدمن أو أجزاء البدن التى توشك على الفساد والانحلال ، حتى إذا أوشكت أن تفارق جسدها إلى علمها الأعلى ، بل حتى فارقت فعلا ، فارقت البدن الفانى ، عادت إليها سكيتها واستراحت ، إذ كشف لها الغطاء وأبصرت ما لا تدركه العيون التى ألم بها النوم ، وغدت تغرد فرحة ، فقد عادت إلى علمها وعاد لها علمها بالأشياء ، العلم الكلى الشامل الذى كانت قد نسيت فى سكونها البدن ، ويستمر سائلا متحيرا :

فلأى شيء أهبطت من شاهق سام إلى قعر الحضيض الأوسع
إن كان أهبطها إلهة لحكمة طويت عن القطن الليب اللودعى
إذ عاقها الشرك الكثيف فصدّها قفص عن الأوج الفسيح الأربع
فهبوطها - لاشك - ضربة لازب لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية فى العالمين فخرقتها لم يرفع
وهى التى قطع الزمان طريقها حتى لقد غرت بغير المطلاع
فكانها برق تالت بالجمي ثم انطوى فكانه لم يلمع

وهو يعجب من هبوط النفس من العالم العلوى إلى العالم السفلى ثم رجوعها إلى العالم الأول ويسأل فيم هبطت وفيم عادت ؟ ويجيب إن كان في ذلك حكمة لله جل شأنه تغيب عن العقول الذكية فأكبر الظن أنها هبطت لتسمع ما لم تكن تسمع ولتعلم ما لم تكن تعلم من العالم الأرضى وتقف على أسراره ، بجانب ما كانت تعلم من العالم العلوى ، وكأنها لم تبلغ من ذلك كل ما أرادت ، فعادت وقد انقطع بها الزمان الدنيوى . عادت وقد تَمَّتْ رحلتها في الدنيا من شروق وما تلا الشروق من العلم بخفايا الأرض وعالمها وما انتهى إليه هذا الشروق من غروب . وكأنها في هذه الرحلة القصيرة برق لمع ، ثم طَوَّرَته السحب طيا . وواضح ما تحمل القصيدة من فكرة وجود النفس قبل البدن وخلودها ، متصلة في الحالين بالعقل الكلى إلا ما كان من رحلتها القصيرة في الأرض وخلال البدن ، ومع ذلك فهى في هذه المرحلة تحاول أن تعلم من أسرار عالمنا ماتضيفه إلى علمها بأسرار العالم العلوى . وسرعان ما تنفك عن البدن ويصيبه الانحلال والفساد . ولعل من الخير أن نقف عند شاعرين من شعراء الحكم والأمثال ، كان أحدهما يعنى بنقلها عن الفارسية وكان الثانى يعنى بوضعها ونظمها في أشعاره ، وهما أبو الفضل السكرى المروزى وأبو الفتح البُستى .

أبو الفضل^(١) السكرى المروزى

هو أحمد بن محمد بن زيد ، يقول فيه الثعالبي : « شاعر مَرَّو وظريفها ، وله شعر مليح خفيف الروح كثير المَلَح والأمثال » ويورد بعض أشعاره ، ثم يذكر أن له مزدوجة ترجم فيها أمثالا للفرس ، وكأنه اختار أن ينظمها من وزن الرجز الذى خصَّ به العباسيون منذ عصرهم الأول الشعر التعليمى لوفرة ألحانه وأنغامه ، حتى يتلافوا ما في هذا الشعر من نقص الأحاسيس والمشاعر ، وظل ذلك ثابتا طوال العصور التالية إلا ما ندر . فقد تعارف الشعراء على اختيار الرجز لتنظم المعلومات والمعارف والحكم والخبرات ، واتبعوا ما أحدث العباسيون الأول في الرجز من تغيير القافية فيه من بيت إلى بيت ، مع الاحتفاظ بها في كل شطرين متقابلين بحيث يصبح الشطر في واقع الأمر وحدة الأرجوزة المزدوجة ، فهى تتألف من شطرين شطرين ، وكل شطرين يتحدان في قافيتها . ويقف الثعالبي عند مزدوجة لأبى الفضل ترجم فيها طائفة كبيرة من أمثال الفرس ، ويورد منها ثلاثة عشر بيتا من مثل قوله :

(١) انظر في ترجمة أبى الفضل السكرى البيهية ٨٧/٤

من مُثَلِّ القُرْس ذوى الأبصارِ الثوبُ رَهْنٌ في يَدِ القَصَارِ (١)
نال الحمارُ بالسقوطِ في الوَحْلِ ما كان يَهْوَى ونجا من العملِ
والعَثْرُ لا يَسْمَنُ إلا بالعلْفِ لا يَسْمَنُ العَثْرُ بقولِ ذى لَطْفٍ (٢)
البحرُ عَمَّرَ الماءَ في العيانِ والكلبُ يَرَوَى منه باللسانِ (٣)
من لم يكن في بيته طعامُ فماله في مَحْفَلٍ مقامُ
كان يقال : من أتى خَوَانًا من غير أن يُدْعَى إليه هانًا (٤)

ويعلقُ النعالبي بعد ذكره لبعض أمثال المزدوجة بقوله : « وكان أبو الفضل السكري مولعا بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية » وينشد طائفة كبيرة من الأبيات اختارها من نقله وترجماته الأخرى غير مزدوجة ، من ذلك قوله :

إذا لم تُطِقْ أن تَرْتَقِيَ ذِرْوَةَ الجَبَلِ لِعَجْزِ قِفِّفٍ في سَفْحِهِ هكذا المَثَلُ
وقوله :

في كلِّ مستحسنٍ عَيْبٌ بلا رَيْبٍ ما يَسْلَمُ الذهبُ الإبريزُ من عَيْبٍ
وقوله :

ادْعَى الثَّعْلَبُ شَيْثًا وَطَلَّبَ قِيلَ هَلْ من شَاهِدٍ؟ قال : الذَّنْبُ
وقوله :

تَبَحَّرَ إخْفَاءً لما فيه من عَرَجٍ وليس له فيها تكلفه فَرَجٌ

وأبو الفضل إنما هو رمز لتعلق الناس بالأمثال ، وهو تعلق مرجعه إلى أنها تحمل خبرات الإنسان في عصور طويلة ، ولذلك كان لكل أمة أمثالها التي تحفظها الأجيال من جيل إلى جيل ، وهي لذلك تدخل في باب الآداب الشعبية ، لأنها تُتداول على ألسنة الشعب ، وكأنها عُمَلات لغوية عامة ، كلُّ يستخدمها ، وكل يلفظ بها عند مناسبتها . وكأنما يُلقَى بها الكلمة التي لا تُرد ، ولذلك سميت حكمة ، فهي حكمة الشعوب وخبرتها مركزة في قطرات أو كلمات .

(٣) الماء العمر : الكثير العميق .

(١) القصار : صايغ الثياب

(٤) الخوان : مائدة الطعام .

(٢) لطف : رفق .

أبو الفتح^(١) البستي

هو علي بن محمد ، ويُعدّ من كبار الأدباء الإيرانيين في زمنه ، وكان يُحسّن الكتابة والشعر باللسانين العربي والفارسي وعرف له أمير بُسْت مَكَاتِه ، فاتخذَه كاتبًا له ، حتى إذا فتح بلدته الأمير سُبُكْتِكِين قَرَبَه منه وقلّده الكتابة في ديوانه ، وحلَّ عنده محلّ الثقة الأمين في مهمات شتونه . ونعم بجواره ، واشتهر بما صوّر في كُتبه وأشعاره من فتوحه ، وظلت له نفس المكانة عند ابنه الأمير محمود الغزنوي ، إلى أن غضب عليه ونفاه إلى بخارى وسرعان ما وافته المنية بها سنة ٤٠٠ للهجرة وقيل بل سنة ٤٠١ وكان شافعي المذهب معتزليّ العقيدة .

ويعرّف به الثعالبي فيقول : «صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ويأتي فيه بكل طريقة لطيفة » . ولم يكن يستخدم الجناس استخداما واسعا في أشعاره فحسب ، بل كان أيضا يستخدمه في كتاباته ونثره . ويورد الثعالبي طائفة من جناساته وسجعاته في رسائله ، يدل بها على قدرته في التجنيس البديع الصيغة ، فن ذلك قوله :

«مَنْ أصلح فاسده ، أرغم حاسده . مَنْ أطاع غضبه ، أضاع أدبه . عادات السادات ، سادات العادات . مِنْ سعادة جدك ، وقوفك عند حدك . الحية ، هتك الهية . الدعة ، رائدة الضعة . أجهل الناس مَنْ كان للإخوان مُدْلا ، وعلى السلطان مُدْلا . إذا بقي ما قاتك ، فلا تأس على ما فاتك . المنية ، تضحك من الأمانة . حدّ العفاف ، الرضا بالكفاف . ظلّ الجفاء ، يكسف شمس الصفاء » .

ويأخذ الثعالبي في عرض أغراض شعره بادئا بملحه في الغزل والخمر ، وهي ملح لا تقوم على الاهتمام بالمعاني بقدر ما تقوم على الاهتمام بالجناس ، وكأنما أصبح الجناس وما قد يجلبه من تشبيه أو استعارة أو طباق غايته أو هدفه من صنع أشعاره ، على نحو ما نجد في قوله متغزلا :

وغزالٍ كلُّ مَنْ شَبَّهَهُ بهلالٍ أوبسدرٍ ظلَمَهُ
قال إذ قَبِلْتُ بالوهم فَمَهُ قد تعدّيتَ وأسرفتَ فَمَهُ

خلكان ٣٧٦/٣ وشذرات الذهب ١٥٩/٣ وعبر الذهبي ٧٥/٣ والأنساب ٨٠ ب وروضات الجنات ٤٨٢ والنجوم الزاهرة ١٠٦/٤ وديوانه مطبوع

(١) انظر في ترجمة أبي الفتح البستي وشعره البيهقي ٣٠٢/٤ وما بعدها والمتلظم ٧٢/٧ وتاريخ الحكماء للبيهقي : ٤٩ وطبقات النافعية للسبكي ٢٩٣/٥ وابن

ومَه في آخر البيت الثاني اسم فعل أمر بمعنى اكفف. وواضح أنه جلبها ليصنع منها جناسا تاما بينها ومعها الفاء وبين كلمة «مه» في آخر الشطر الأول. وعلى نفس الشاكلة قوله في الخمر لصاحبه :

أوانٍ أنت في هذا الأوانِ عن الرَّاحِ المروِّقِ في الأوانِ
فقد جناس بين «وان» في أول البيت بعد إدخاله عليها همزة الاستفهام ليم له جناس كامل بينها وبين كلمة «الأوان» في آخر الشطر الأول بمعنى الزمان ، ثم بينها وبين كلمة «الأوانى» في آخر البيت جمعا لإناء . وبالمثل معانيته وأهاجيه ومدائح كقوله في مديح كاتب وكتابه :

لم تَرَ عيني مثله كاتباً لكل شىء شاء وشاء
يُبدع في الكُتُب وفي غيرها بدائعا إن شاء إنشاء
والجناس الناقص واضح بين «شىء» و«شاء» و«و شاء» أو منمق ، وأتى بجناس تام في البيت الثاني بين كلمتي «إن شاء» و«إنشاء» . ويعترف بأنه سمع وهو صبي شاعرا من موطنه «بُست» يستخدم الجناس فاستحسنه وأخذ نفسه بسلوك طريقته^(١) . وكان هو نفسه عاملا مها في إشاعة هذه الطريقة بين الشعراء الإيرانيين في زمنه^(٢) وبعد زمنه . وعنى غير أديب يافراد كتب خاصة بها مثل المطوعى الذى مر بنا ذكره . وكان أبو الفتح يتصنع كثيرا في شعره لاستخدام المصطلحات الفقهية والطبية والفلسفية والفلكية والنحوية كقوله مستظها مصطلح اللازم والمتعدى :

قال لى لما رآنى طالبا مالا ورِفداً
إن مالى يا حبيبي لازم لا يستعدى

وكان هذا التصنع وما يماثله قد أخذ يشيع في زمنه ، ومما لا شك فيه أن البُستى كان من عوامل إذاعته وانتشاره في الأوساط الأدبية الإيرانية . على أنه ينبغي أن لا نحمل على تصنع أبى الفتح لهذه المصطلحات ولأنواع الجناس بصوره التامة والناقصة ، فقد كان ينفذ في أحيان كثيرة إلى استخدام رشيقي للمصطلحات والجناسات كقوله يهجو بعض خصومه ، وكان يدعى سعة الفكر والمنطق العميق :

يبنى على الفكرة أعماله وذاك في التحقيق أعمى له
فقيض الرحمن أفعى له تزيه في الخلوة أفعاله

(١) البنية ٣٣٧/٤ واسم الشاعر شعبة بن عبد الملك (٢) البنية ١٥١/٤ .

وواضح جناسه التام بين « أعماله » و « أعمى له » في البيت الأول ، وبين « أفعى له » و « أفعاله » في البيت الثاني . ولم نتحدث حتى الآن عن الحكم والأمثال في أشعاره ، وكان يعرف كيف يصوغها صياغة محكمة ، ومن أروع ماله في هذا الجانب نوبته ، وهي طويلة ، وفيها يقول :

زيادةُ المرءِ في دنياه نُقْصَانُ	وربَّه غيرَ مَحْضِ الخَيْرِ حُسْرَانُ
ياعامراً لخرابِ الدَّارِ مجتهداً	بالله هل لخرابِ العُمَرِ عُمْرَانُ
وياحريصاً على الأموالِ يَجْمَعُهَا	أَقْصِرُ فَإِنَّ سرورَ المالِ أْحْزَانُ
أَحْسِنُ إلى الناسِ تستعبدُ قلوبَهُمْ	فظالما استعبدَ الإنسانَ إْحْسَانُ
وكنُ على الدهرِ معواناً لذي أَمَلٍ	يرجو نَدَاكَ فَإِنَّ الحَرَّْ مَعْوَانُ
واشدُّ يَدَيْكَ بحبْلِ اللهِ معتصماً	فإنه الرُّكْنُ إِنْ خانتك أركانُ
مَنْ جادَ بالمالِ مالَ الناسِ قاطبةً	إليه والمالُ للإنسانِ قَتَانُ
والناسُ أعوانُ مَنْ واثته دولتهُ	وهم عليه إذا عادته أعوانُ

واشتهرت له هذه القصيدة الحكيمة منذ حياته وانتشرت في العالم العربي ، وأخذت الاجيال العربية ترددها في كل بلد ، حتى لتصبح قصيدة شعبية ، ينشدها الناس في كل مكان ، وإلى زمن قريب كان المنشدون يستدونها في مقاهي القاهرة . ولعل في هذا ما يدل - من بعض الوجوه - على ما يمتاز به الشعر العربي الفصيح من شعبيته ، فقصيدة تنظم في أقصى بيئاته في الشرق في « بُسْت » بأفغانستان الحالية تُنشد في قلب العالم العربي بالقاهرة ، ويحفظها الشباب ويستظفرونها في المغرب كما يستظفرونها في المشرق . ويعتقد النعالي فصلا طويلا لحكم البُسْتِي ، ووراءها حكم وأمثال كثيرة في ديوانه ، ومن طرائفه الحكيمة قوله :

لا تَحْقِرِ المرءَ إِنْ رأيتَ به	دِمامَةً أو رِثاءَةَ الحُللِ
فالتَّحَلُّ شَيْءٌ عَلى ضَوْولِهِ	يَشْتَارُ مِنْهُ الفَقيرُ جِنا العَسَلِ (١)

وقوله :

لا يَسْتَحْفِظُنَّ الفَقيرُ بَعْدَهُ	أبداً وَإِنْ كانَ العَدُوُّ ضَيِّلا
إِنْ القَدَى يُؤدِي العيونَ قَلْبُهُ	ولربما حَرَحَ البَعوضُ القَيْلا

وقوله :

لَمْ تَرَ أَنَّ المرءَ طَوَلَ حَيَاتَهُ	مُعنى بأمرٍ لا يزالُ يَعالجُهُ
---	--------------------------------

(١) يشتر . يجنى

يدور كدودِ القَزِّ يَنسِجُ دائماً ويهلكَ عَمَّا وَسَطَ ما هو ناسِجُهُ
وعلى هذا النحو لا نزال نقرأ عند أبي الفتح البُسْتِي حكماً طريفة . مما يدل على بعد نظره
واتساع خبرته . وكان يخلجها من الجناس عادة ، حتى تخفُّ على ألسنة الناس وتدور في
أفواههم ، ومن الحق أنه كان شاعراً خصب القريحة ، مما جعل شعره يحفل بمعان وصيغ
بدیعة .

٥

شعراء شعبيون

لا يستطيع أحد أن يزعم أن الشعر العربي انفصل في عصر من عصوره عن شعوبه ، إذ
كان دائماً ترجاناً عن عواطفها ومشاعرها ، حتى في المديح ، فإن الشعراء كانوا يمدحون
الحكام بالمثل العليا التي تتطلبها شعوبهم فيهم ، ولم يتركوا لهم عملاً قدّموه لشعوبهم دون أن
يحمدوه لهم حمداً كثيراً ، سواء أكان في الداخل مما يتصل بنشر الأمن والعدل أم في
الخارج مما يتصل بانتصاراتهم على أعداء شعوبهم وخصومها . وكثرة الشعراء كانت من
عامّة الشعوب العربية ، فكان طبيعياً أن تتضح في أشعارهم روحها ومشاعرها وكل
ما يجري في خواطرها . وقد تحدثنا عن أغراض تتضح صلتها القوية بالشعوب مثل الزهد
الذي يلتحم مباشرة بالجماعة الكبيرة فيها . وكانت تعيش كادحة كدحا مريراً ، لكي تثرى
وتنعم بثمار عملها جماعة محدودة من الحكام وكبار التجار والإقطاعيين . ولم يكن أمام هذه
الجماعة الكبيرة إلا الانصراف عن متاع الحياة وطبائنها ، وهي لذلك تقبل على شعر الزهد ،
ويصبح هذا الشعر غذاءها . ولا شك في أن شعبية هذا الشعر هي التي جعلته يسهُلُ في لغته
سهولة شديدة ، لأن العامة لا تحب الإغراب اللغوي ، بل تحب الأساليب السهلة المبسطة
الخفيفة التي تفهمها بمجرد أن تقرأ أسماعها . وبذلك كان الزهد طوال هذا العصر شعبياً في
لغته الشعرية ، وكان مما أكد شعبيته ذبوعه على ألسنة الزهاد والعباد والمتصوفة والقُصَّاص
والفقهَاء وأصحاب الحديث ، فكان الناس يسمعونه في كل مكان بالإضافة إلى ما كانوا
يسمعون منه على ألسنة الشعراء ، وحتى شعر المخون مع أنه خاس ببطقة معينة من الشعب
ونقصد أصحاب الثراء واللّهو نجد فيه أوبعبارة أدق في بعض منه آثاراً شعبية ، غير أنها
هذه المرة لا تأتي من سهولة الألفاظ وإنما تأتي مما كان يقترن به أحياناً من دعاية ، مما يجعله
أقرب إلى النوادر المضحكة ، وتأتي أيضاً من استظهار طائفة من أصحابه للكلمات الفارسية
التي تشيع على ألسنة العامة ، وبلغنا منهم كثيرون في اليهيمّة وتعمتها وفي دمية القصر

والخزيدة . وطبيعي أن يشيع شعر شعبي كثير على ألسنة الشيعة ، يرويه خالف لهم عن سالف وخاصة ما يتصل بمراثي الحسين ، وبالمثل كان يشيع لأهل السنة كثير من الأشعار المصورة لعقيدتهم السنية ، مما تزخر به كتب الطبقات .

ونجد في البيعة شاعرا من الأهواز يسمى محمد^(١) بن عبد العزيز السوسى ، يقول فيه الشعالي إنه كان أحد شياطين الإنس ، ويذكر أن له قصيدة كانت تُرسي على أربعمائة بيت في وصف حاله وتقله في الأديان والمذاهب والصناعات ، أولها :

الحمد لله ليس لي بَحْتُ ولا ثيابُ يضمُّها تَخْتُ^(٢)
سِيَّانِ بَيْتِي لمن تَأَمَّلَهُ والمَهْمَةُ الصَّحْصَحَانِ والمَرَّتُ^(٣)
أَمَنْتُ في بَيْتِي اللُّصُوصَ فما لِلصَّ فِيهِ فَوْقُ وَلَا تَحْتُ

فهو عديم الحظ وليس له ثياب يضمها صوان ، فكل ما يملكه فوق جلده ، وبيته فارغ من الأثاث ومن أى شيء يكون في البيوت عادة ، وكأنه فلاة مقفرة ، وطبيعي أن يأمن للصوص ، فليس في بيته ما يسرقونه ، وكأنه سجن ولا حرس له . ويمضى فيما رواه الشعالي من القصيدة ، فيذكر أنه اضطرَّ إلى أن يتخذ مظهرَ مُتَسَوِّلةِ الصوفية فقصرَ ثيابه ، وأحنى شاربه مستقصياً ، وحَمَلَ سَجَّادَةً ، وذهب إلى الحجِّ دون أن ينويه ، ودخل المسجد الحرام وصلَّى في مقام الخليل ليوم الناس أنه صوفى حقاً ، حتى يعطفوا عليه ويمسحوا إليه . والقصيدة كانت كلها هزلاً على هذا النمط .

واشتهرت منذ أوائل العصر جماعة من الشعراء الرحالة المتسولين المعروفين باسم شعراء الكُذْبِيَّةِ أو التسول الأدينى ، ويعرفون أيضاً باسم الساسانيين نسبة إلى أمير فارسى يسمى ساسان حرمة أبوه من الملك ، فهام على وجهه محترفاً للكُذْبِيَّةِ ، وتُشَبِّه هذه الجماعة طائفة الأدبانية التي كانت معروفة بمصر في أواخر القرن الماضى والتي كانت تظهر في موالد الأولياء متخذة من أشعارها وسيلة لاكتساب المال وابتزازه . ونجد مقدمات هذه الجماعة الساسانية في أوائل كتاب البخلاء للجاحظ إذ يعرض طائفة من جيلها وخُدَعِها ، ويتلوه البيهقي فيصور في كتابه المحاسن والمساوى ألواناً من هذه الخدع والحيل . وحرى بنا أن نقف عند أهم شعرائها في العصر : أبى دلف الخزرجي .

(١) البيعة ٤٢٦/٣ . المهمة : الفلاة . الصحصحان : المستوى

(٢) التخت : الصوان . الواسع . المَرَّتُ : القفرلابات فيه .

(٣) التخت : الصوان .

أبو دُلف الخنزرجي : مِسْر بن مُهْلِل^(١)

شيخ هذه الجماعة بإيران في العصر ومقدمها وزعيمها من شعراء القرن الرابع الهجري وقد عاش في بلاط نصر بن أحمد الساماني (٣٠١-٣٣١ هـ) ورافق بناء على أمره مجموعة صينية في عودتها إلى الصين ، وفي عودته طاف بالهند . وعاش حتى اتصل بالصاحب بن عباد الوزير البويهي كما يوضح ذلك الثعالبي ونراه يعقد له ترجمة طويلة في اليتيمة ، ويعرف به على هذا النحو : « شاعر كثير المَلَحِ والطرف ، مشحوذ المُدية في الكُدية ، حَنَقَ التسعين في الإطراب والاعتراب وركوب الأسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالجراب ، في خدمة العلوم والآداب . . وكان يتاب حضرة الصاحب [بن عباد] ويكثر المقام عنده ، ويكثر سوادغاشيته وحاشيته ، ويرتفق بخدمته ، ويرتزق في جملته ، ويتزود كسبه (رسائله إلى الولاة برعايته) في أسفاره فتجري مجرى السقّاتج (الحوالات المالية) في قضاء أوطاره . وكان الصاحب يحفظ منّاكاة (كلام ومصطلحات) بني ساسان حفظا عجيبا ، ويُعجبه من أبي دلف وفور حظه منها ، وكانا يتجاذبان أهدابها ، ومن قول أبي دُلف :

وَيَحْكُ هَذَا الزَّمَانُ زَوْرُ فَلَا يَغْفِرَنَّكَ الْغَرُورُ^(٢)
 زَوْقٌ وَمَحْرِقٌ وَكُلٌّ وَأَطِيقٌ وَاسْرِقٌ وَطَلِيقٌ نَنْ يَزُورُ
 لَا تَلْتَزِمُ حَالَةً وَلَكِنْ دُرٌّ بِاللَّيَالِي كَمَا تَدُورُ

والآيات تصور حياة أبي دلف وأنها تقوم على المحرقة والتحامق والخطف والسلب والنهب . وله قصيدة طويلة سماها القصيدة الساسانية ، أو هكذا أسماها الثعالبي ، وهي في ذكر المُكْدِينِ وبيان فنون حرفهم وأنواع رسومهم ، استلهاها بالتعريف ببني ساسان الأدبانية وكيف يعيشون على الغربة والترحال واليسر تارة والعُسْر وربط البطون على الجوع والمسغبة تارات ، ثم يقول :

فَنَحْنُ النَّاسُ كُلُّ النَّاسِ فِي الْبَرِّ وَفِي الْبَحْرِ
 أَخَذْنَا جِزْيَةَ الْخَلْقِ مِنَ الصَّيْنِ إِلَى مِصْرٍ

(١) ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسى (نشر عالم الكتب بالقاهرة).

(٢) الغرور : كل ماغرّ الإنسان من شيطان أوحاه أومال أومناع .

(١) انظر أبا دلف في اليتيمة ٣/٣٥٢ وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ١٨٨/١ وفي دائرة المعارف الإسلامية وانظر الرسالة الثانية لأبي دلف نشر مينورسكي بالقاهرة وكذلك الشرة الثانية للرسالة لمشتشرقين روسيين

إلى طَنْجَةَ بِل في ك ل أرضِ حَيْثُنَا تَنْرى
 إذا ضاق بنا قُطْرُ نَزَلُ عنه إلى قُطْرِ
 لنا الدنيا بما فيها من الإسلام والكُفْر
 فنَضْطافُ على الثَّلجِ ونَشْتُو بِلْدَ التَّنيرِ

وطريف أن يعدَّ أبودلف ما يأخذه الساسانيون من الناس بتفاصحهم وخذعهم وحيلهم الأدبية جزية . ويصوِّر الأرض كلها من مشارقها إلى مغاربها دارا لهم من الصين على المحيط الهادى إلى طنجة والمحيط الأطلسى ، وكأن الدنيا كلها ملكهم ولا حواجز تحجزهم من نهر أو جبل أو بلد مسلم أو بلد كافر ، فالدنيا كلها مسرح لأقدامهم ، بصطافون في أقاليمها الباردة ، وبشتون في أقاليمها الحارة الدافئة . ثم يأخذ أبودلف في وصف حيلهم وصفا مسهبا ، وكيف أنهم كانوا يختالون على النساء بما يكتبون لهم من تعاويد وأحراز ، وكيف أن القاصَّ منهم كان يتفق مع صاحب له ، ليفد على مجلس قصصه ، فيأمر السامعين بإعطائه ما يمجودون به ، ثم إذا نفرَّقا عنه تقاسما ما أعطوه . ويصورهم يتباكون في البرد القارس خداعا للناس ، حتى تلين لهم قلوبهم ويعطوهم دراهمهم وكيف أنهم حين يلمون بجوانيت الباعة يحفظون جوزة من هنا وتمرَّة أوتينة من هناك ، وكيف يدهنون وجوههم بماء البَيْض الأصفر ، لتبدو شديدة الصفرة ، وكيف يعصبون جباههم ليوهوا الناس أنهم مرَّضى ، وكيف يعفرون أو يجرحون أنفسهم بالأمواس ، وكيف يظنون أجسادهم بالزيت حتى تسودَّ جلودهم ، وكيف يدارون ألسنتهم موهين الناس أن الروم قطعوها في جهادهم ، محاولين أن يبتزوا منهم الثياب والسلاح للغزو ، وكيف يحملون البخور وأدواته للسؤال به ، وكيف يختالون على مرضى الأسنان بوضع دود العجين بين أسنانهم ثم استخراجها ، وكيف يروون للناس كذبا الحديث عن الأنبياء والحكايات القصار ، وكيف يلبسون ثياب المتصوفة والرهبان احتيالا ، وكيف يوهمون الناس أنهم يجمعون الأموال لأقربائهم الأسرى في ديار الروم فداء لهم ، وكيف يخفون إحدى أيديهم إياها بأنها مقطوعة . وكيف يجلبون للناس أنهم كانوا يهوداً أو نصارى وأسلموا ، وكيف يوهمونهم بأنهم عمى لا يبصرون ، وكيف يدورون بين العشائين منادين : رحم الله من عشى الغريب الخانع ، آخذين من كل دار كيسة ، وكيف يختالون على الناس بمعرفة طوالعهم ونجومهم ، وكيف يختالون على الشيعة خاضعين لحاهم بالحناء مع حملهم الألواح والسُّبع من الطين زاعمين أنها من قبر الحسين ، مع نواحيهم عليه ورواية الأشعار في فضائله ومقتله ، وكيف أنهم يختالون لذرف الدموع بعمس قطعة في الزيت وإمرارها على عيونهم ، وكيف يستأجرون

الصبيان والنساء ويكفون أو يشحدون عليهم ، وكيف يطرحون على أبواب الحوانيت
السُّبُحات وأقراص الحلوى ، وكيف يرقون المجانين وأصحاب العاهات ، وكيف يمؤون
بأنهم صائمون وأنهم سيحجون عن الناس ، وكيف يعبرون للناس رؤاهم ، وكيف
يستأجرون الصبيان ، وكيف يحملون السلال فيها الحيات وقد قلعوا أنيابها ، وكيف يدعون
الطبَّ ومداداة المرضى ، وكيف يشحدون أو يكفون على الدببة والسباع والقردة ، وكيف
يرعدون رعدات شديدة تهتر لها مفاصلهم وتصطك أسنانهم ، وكيف أنهم يشدون أيديهم
مجموعة الأصابع حتى يُظنَّ أنها مقطوعة ، وكيف يأوون إلى المساجد عليهم المرقعات حتى
يُظنَّ أنهم من الصوفية . وما يزال أبردلف في وصف خُدع القوم وحيلهم ، حتى يُوفى على
نهاية القصيدة قائلا :

رَ من شَطْرٍ إلى شَطْرٍ	ألا إني حَلَبْتُ الدَّهْرَ
تُ في التُّطُوفِ كَالخَضِرِ	وَجَبْتُ الأَرْضَ حَتَّى صرَ
تَشَفَّتْ غَلَّةُ الصَّدْرِ	فإنَّ أَظْفَرَ بِأَمَالِي
قَوِيَّ النَّهْيِ والأَمْرِ	وَأَلَمْتُ بِأَوْطَانِي
رِزَّةُ أَلْوَبَةِ النَّصْرِ	وقد تَخَفَقَ فَوْقَ عِ
وَعِزُّ جَانِزِ الكَسْرِ	وإِما تَكُنِ الأُخْرَى
غَدَاً في أَوْبَةِ السَّفْرِ	فلا أُبْتُ مَعَ السَّفْرِ
بِلا عِزٍّ ولا وَفْرِ	ولا عُدْتُ مَنِي عُدَّتْ

ويقول إن له أسوة في غربته بالسادة الطَّهْرَ آل البيت كما تشهد قبورهم في الكوفة
وكربلاء وبعداد وسامراً وطوس وباخرا بالقرب من الكوفة . وفي ذلك ما يدل على أنه
كان شيعياً ، وأكبر الظن أنه كان إمامياً مثل صاحب بن عباد . وقد صوّر في قصيدته كل
أفانين المكدين وحيلهم مستخدماً مصطلحاتهم في هذه الحيل ، مما جعله يُعنى بشرح
القصيدة بيتاً بيتاً ، وعنه نقل الثعالبي الشرح ، ولخصناه في إيجاز . والمصطلحات كلها
شيعية ، ومن المؤكد أن جماعة الكدية كلها كانت جماعة شيعية ، ولاشك في أن أبادلف
بعده خير شاعر في عصره عبّر عن نفسه وعن هذه الجماعة .

ولأبي دلف رحلات إلى الصين وأواسط آسيا دون اقتباسات كثيرة منها ياقوت في
« معجم البلدان » والقزويني في كتابه « آثار البلاد » ووجدت له رسالتان حلل أولاهما
المستشرق الألماني رور صوير موضحاً أنه يتحدث فيها عن رحلته إلى الصين . ونشر الرسالة
الثانية المستشرق مينورسكي (طبع وزارة التربية والتطعيم بالقاهرة) كما نشرها مستشرقان

روسيان وعنى الدكتور محمد منير مرمى بترجمة ما بذلاه فى نشرتها والتعليق على الرسالة تعليقات علمية نافعة ، تدلل صعوباتها وتجعلها ميسرة للقارىء . وفيها يصف أبو دلف رحلته فى أواسط آسيا من جنوبى أذربيجان إلى مدينة باكو فتغليس فأردبيل فهمذان فالرى فطيرستان فقومس فطومس فنيسابور ، فهرة ، فأصفهان ، فدن خوزستان . ويعنى بوصف المدن والقلاع التى شاهدها وصفا دقيقا ذاكراً معادنها وثمارها وأسواقها وأسوارها وسكانها من الشيعة وغيرهم وآثارها القديمة .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

تنوع الكتابة

رأينا في العصور : العباسي الأول والعباسي الثاني كيف تطور النثر العربي حتى وعى الثقافات الأجنبية العلمية والفلسفية ، وكيف تحول العرب من دور النقل والترجمة إلى دور التصنيف والمشاركة العقلية المختصة الثمرة في عبادين العلم والفلسفة ونحن لا نصل إلى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، حتى يصبح في أغلب الأمر عصر تهنيف ومشاركة حية في الفلسفة وعلوم الأوائل ، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضوع . وقد أصبح للعرب نوعان متكاملان من النثر : نوع علمي ونوع فلسفي ، ونفذوا خلال ذلك إلى وضع كتب في مصطلحات العلوم ، كما أسلفنا ، وكل ذلك أحدثوه بدون ضجة . ولم يتركوا علما دون أن يتعمقوا فيه ودون أن يكتبوا فيه المجلدات الضخام ، ومحدثنا المطهر المقدس المتوفى سنة ٣٥٥ عن سلوك معاصريه العلمي وما يبذلون من عناء ليس وراءه عناء قائلا^(١) :

« يأبى العلم أن يضع كفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه إلا لتجرد له بكليته ، ومتوفر عليه بأنيته ، مُعانٍ له بالقرينة الناقية ، والرؤية الصافية ، مقترن به التأيد والتسديد ، قد شمر ذيله ، وأسهر ليله ، حليف النصب ، ضجيج التعب ، يأخذ مأخذه متدرجا ، ويتلقاه متطرفا ، لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام ، ولا يخبط فيه خبط العشواء في الظلام ، ومع هجران عادة الشر ، والتزوع عن نزاع الطبع ، ومجانبة الإلف ، وتبذ المماحكة واللجاجة ، وإجالة الرأي عند غموض الحق ، والتأني بلطيف المأني . وتوفية النظر حقه من التمييز بين المشتبه والمتضح ، والتفريق بين التويه والتحقيق ، والوقوف عند مبلغ العقول ، فعند ذلك إصابة المراد ، ومصادفة المرتاد . »

ومهذا العناء البالغ والجهد الشاق تمثل المثقفون العلوم والفلسفة تمثلا رائعا ، وكان

(١) كتاب بدء الخلق والتاريخ للمقدسي ٤/١

لذلك آثار كثيرة في تنوع فنون الكتابة والنثر، مما نراه واضحا لا في الكتابات العلمية والفلسفية فحسب، بل أيضا في الكتابات الأدبية، ولنأخذ جانبا واحدا هو جانب القصص، فقد أخذ يوجد بجانب القصص الأدبي الخالص قصص صوفى وقصص فلسفى. ومعروف أن المترجمين عُنوا في القرنين الثاني والثالث للهجرة بنقل كثير من القصص الفارسية والهندي وكان بين ما نقلوه كتاب ألف ليلة وليلة. ومحاكاة له ألف محمد بن عبدوس الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتابا قصصيا مماثلا يشتمل على ألف حكاية من حكايات العرب وغيرهم. ومنذ هذا الحين يكثر تأليف كتب السمر حتى يذكر حمزة الأصفهاني المتوفى قبل سنة ٣٦٠ أن كتب السمر المتداولة في أيامه بلغت سبعين كتابا^(١)، وكانت العامة تلهف منها على ما يدور حول الحب وحكاياته أو حول الجن. وطبيعي أن تكثر كتب النوادر، وخاصة ما اتصل منها بالحمقى أو بالمغفلين، وتكثر أيضا كتب الندماء وأخبارهم.

ومرّ بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أنه أخذت تتكوّن منذ القرن الثالث حول المتصوفة حكايات كثيرة: تصوّر جهادهم في نسكهم جهادا مضنيا، وحكايات أخرى يجانبها تصور كراماتهم. وكانت العامة تقبل على هذه الحكايات الصوفية، مما جعلها تطبع بطوايع الأدب الشعبي وألفاظه ولغته^(٢). وكلما مضينا في عصر الدول والإمارات كثرت الحكايات والأفصيص عن المتصوفة، لما كانت تلقى من رواج عند العامة، ويكفي أن نعرض أطرافا من هذه الحكايات عند القشيري مؤسس التصوف السني، فقد فتح في رسالته بابا لكرامات الأولياء، وقصص حكايات منها تنسب إلى الصحابة والتابعين وكبار المتصوفة في إيران والعراق ومصر والحضر عليه السلام. ومما حكاها أنه كان في قصر سهل التستري المتصوف بيت يسمى بيت السباع، يقول: فسألنا عن ذلك؟ فقالوا كانت السباع تجمىء إلى سهل، وكان يُدخلهم هذا البيت ويُضيفهم ويُطعمهم اللحم ثم يجلهم! وحكى عمن يسمى ابن سالم أنه لما مات إسحق بن أحمد دخل سهل التستري صومعته، فوجد فيها سَقَطًا (وعاء) فيه قارورتان، في واحدة منها شيء أحمر، وفي الأخرى شيء أبيض، ووجد شوشقة (قطعة) ذهب وشوشقة فضة، فرمى بالشوشقتين في دجلة، وخلط ما في القارورتين بالتراب! وكان على إسحق دين. قال ابن سالم: قلت لسهل إيش كان في القارورتين، قال: إحداهما لو طُرح منها وزن درهم على مثاقيل من النحاس

(١) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة (٢) انظر العصر العباسي الثاني (طبع دار المعارف) ص الأصفهاني (نشر دار مكتبة الحياة بيروت) ص ٤٠ . ٢٥٩ .

صارت ذهباً ، والأخرى لو طُرح منها مثقال على مثاقيل من الرصاص صارت فضة . فقال
 سامع لابن سالم : وإيش عليه لو قضى منه دين إسحق؟ فقال له : إى دوست
 (يا صاحبي) خاف على إيمانه . وحكى عن الخواص أنه قال : كنت في البادية مرة ،
 فسرت في وسط النهار ، فوصلت إلى شجرة وبالقرب منها ماء ، فنزلت ، فإذا أنا بسبع
 عظيم أقبل ، فاستسلمت ، فلما قرب منى ، إذا هو يعرج ، فحمّحم وبرك بين يدي ،
 ووضع يده في حجرى ، فنظرت ، فإذا يده منتفخة ، فيها قيح ودم ، فأخذت خشبة
 وشققت الموضع الذى فيه القيح ، وشددت على يده خرقة ، ومضى ، وإذا أنا به بعد
 ساعة ومعه شبلان يبصبصان لى وحملا إلى رغيغا ! . وحكى عن ذى النون في رواية أبى
 بكر بن عبد الرحمن قال : كنا مع ذى النون المصرى في البادية ، فنزلنا تحت شجرة أم
 غيلان ، فقلنا : ما أطيب هذا الموضع لو كان فيه رُطب ، فتبسم ذو النون ، وقال :
 أتشتهون الرطب ، وحرّك الشجرة ، وقال : أقسمت عليك بالذى ابتدأك وخلقك شجرة
 إلا نثرت علينا رُطباً جَنِيّاً ، ثم حرّكها ، فنثرت رطباً جَنِيّاً ، فأكلنا وشبعنا . ثم نمنا ،
 وانتبهنا وحررنا الشجرة ، فنثرت علينا شوكا ! . ومما حكاها عن الخضر في رواية أبى عمران
 الواسطى قال : انكسرت السفينة ، وبقيت أنا وامرأتى على لوح وقد ولدت في تلك الحالة
 صبية ، فصاحت لى ، وقالت لى : يقتلنى العطش ، فقلت : هو ذا يرى حالنا ، ورفعت
 رأسى ، فإذا رجل في الهواء ومعه كوز ، فأخذت الكوز وشربنا منه ، وإذا هو أطيب من
 المسك وأبرد من الثلج وأحلى من العسل ، فقلت : من أنت ؟ رحمك الله ، فقال :
 عبدالمولك ، فقلت : بم وصلت إلى هذا ؟ فقال : تركت عوارى الدنيا لمرضاته ،
 فأجلسنى في الهواء ، ثم غاب عنى ولم أره :

وتكثر أمثال هذه الحكايات في كتب المتصوفة ، وواضح ما فيها من إبطال قانون
 السببية ، وإنما رويتها لندل على ذبوع حكايات وأقاصيص صوفية شعبية بين العامة ،
 وكانت تُروى بلغة وسطى بين الفصحى والعامية أو قل بلغة فصحي قريبة من أفهام
 العامة ، وبذلك كانوا يتداولونها وكانت تشيع في أوساطهم وتنتشر . عاملة - إلى حد -
 في الإبقاء على الفصحى ، لغةً متداولة على ألسنة الإيرانيين في ذلك العصر ، خاصة أنهم
 كانوا يُشعّقون بالتصوف وكل ما يتصل به من أقاصيص ، لا تتناول الكرامات فحسب ،
 بل أيضاً تتناول جوانب أخرى كرؤيا الرسول ﷺ في الحلم ورؤيا الصحابة والصوفية ورؤيا
 الحور العين . وفي رسالة القشبرى من ذلك حكايات مختلفة ، وبالمثل في كتب المتصوفة
 ككتاب قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبى الليث السمرقندى المطبوع على هامش

الروض الفائق في المواعظ والرقائق .

ويلقانا بجانب القصص الصوفي قصص فلسفي رمزي عند ابن سينا ومحيي السهروردي ، أما ابن سينا فله ثلاث أقاصيص ، هي حي بن يقظان وسلامان وأبسال ، ورسالة الطير . وتسهل أقصوصة حي بن يقظان بأن رقاء (هي شهوات الإنسان وغرائزه) خرجوا يتزهون ، فيبهاهم يطوفون إذ رأوا شيخاً بهياً هو حي بن يقظان وقد رمز به ابن سينا إلى العقل الفعال . ويدور حوار بين حي بن يقظان والرفقاء نعرف منه خطورة علم المنطق وبسميه علم الفراسة ، كما نعرف أن الرفقاء رقاء سوء وأن هناك شاهد زور هو قوة التخيل التي توقع الإنسان في الشر ، وأن الإنسان تحفه من يمين القوة الغضبية ومن يسار القوة الشهوانية القدرة ولا نجاة منها إلا بالموت ، مثلها في ذلك مثل الرفقاء سوء من الغرائز ، وأن على الإنسان أن يجمعها بالمجاهدة . ويقول حي بن يقظان إن حدود الأرض ثلاثة ، حد يحوزه الخاقان ، ويقصد به المركبات المحسوسة ، وحد المغرب ويقصد به الهوى ، وحد المشرق ويقصد به الصورة . وبين هذين الحدين وبين عالم البشر سور مضروب لن يتجاوزها إلا الخواص المغتسلون في عين قوارة لعلها علم المنطق تظهرهم وتركيهم ، إذ تضيئ لهم الحقائق . وبشير إلى المملكة المعدنية والنباتية والحيوانية ويقول إن إقليم الإنسان تقابله أقاليم المملكة السماوية وما بها من الأفلاك التسعة أو العقول التسعة التي تتسلط على الأرض والكون ، ثم العلة الأولى أو علة العلل وهي الذات الإلهية . ويتحدث عن عالم الأرض ويقول إنه رتب على سلك حمس كسلك البريد ، ويريد بها الخواص الخمس ، ويقول إن في الأرض أمة بررة رامزا بها إلى القوى العاقلة . وبذلك تنهى الأقصوصة .

وأقصوصة سلامان وأبسال لها أصول يونانية ، وهما أخوان كان أبسال أصغرهما سناً وترى في كنف أخيه ، ونشأ جميلاً عفيفاً ، شجاعاً عالماً أدبياً . وسلامان في الأقصوصة هو النفس الناطقة ، وأبسال هو العقل أو درجة العرفان . وكانت لسلامان زوجة رمزت بها الأقصوصة إلى القوة البدنية الأمارة بالشهوة ، عشقت أبسال ، فقالت لزوجها أخلصه بأسرتك . ولما خلت به أظهرت له عشقها ، فأبى الانصياع لها أو قل أبى العقل الانصياع إلى القوة البدنية . ومكرت به فزوجته بأختها ، وقالت لها إنني لم أزوجك بأبسال ليكون لك وحدك ، وإنما ليكون لنا معا . وفي ليلة الزفاف جاءت بدلا من أختها وأخذت تعانقه وتضمه إلى صدرها ، فلاح برق في السماء أبصر على ضوءه وجه زوجة أخيه فتخلص منها . ويرمز البرق إلى جذبة من جذبات الحق ، وينكشف الشرك لعين أبسال ، ويتخلص

من عالم الشهوات الحسية إلى عالم العقل المحض . ويتنظم جنديا في الجيش ويفتح كثيرا من البلاد رمزا إلى الاطلاع على الملكوت الأعلى . وتتفق زوجة سلامان مع الطابخ والطاعم فيدسّان لأسبال السم ويموت . ويثأر الأخ لأخيه ، فيقتل الزوجة والطاعم (رمزي القوة الشهوانية) والطابخ (رمز القوة الغضبية) . وسلامان نفسه في قتله الثلاثة رمز لغلبة العقل على القوى البدنية .

وأقصوصة الطير يتخذ ابن سينا الطير فيها رمزا للحرية ، ويستهلها بدعوة إخوانه الفلاسفة الى الصفاء والإخلاص والسمو إلى الكمال ، ويتصور نفسه طائرا مع طائفة من الطير تنبه لها الصيادون ، فصبوا لها الشباك ، وسرعان ما وقع فيها الطير وتشبث بأجنحته وأرجله ، فاستسلم للهلاك ، وشغل كل طائر عن أخيه بأمره وكرّبه ناسيا حرته الضائعة كما نسيت الأرواح الإنسانية عالمها الذي هبطت منه ، وأصبحت سجينه البدن . وتخلص بعض الطيور روعها وأجنحتها من الشباك ، ولكن تظل أرجلها متعثرة فيها . ويجمع الطير قوته والشباك عاقلة به ، وييمم جبل الملك رجاء أن يفكها عنه . ويرى من دونه سبعة جبال مايزال يقطع وديانها حتى يصل إلى الجبل الثامن ويعرف أن الملك في مدينة وراءه فيفقد إليه ويهره جماله ، ويتضرع إليه أن يفك عنه الشباك . ويقول له لا يستطيع فكها إلا عاقدوها ، ويرسل إليهم رسولا معه ليفكوها عنه . وانصرف الطير مسرورا . وواضح أن كل هذا الجهاد من جبل إلى جبل إنما كان في سبيل تخلص الأرواح من أجسادها ، وترمز الجبال إلى مقامات السلوك إلى محبة الله المعروفة في بيئات المتصوفة ، بينما يرمز الرسول الذي يفك الشباك عن الطير إلى ملك الموت .

ويُعبد يحيى بن حبش السهروردي كتابة أقصوصة حتى بن يقظان متخذا لها اسما جديدا هو الغربية الغربية ، وحى بن يقظان فيها لا يرمز إلى العقل الفعال أو العقل الإنساني كما رأينا عند ابن سينا ، وإنما يرمز إلى المتصوف وجهاده ومقاماته حتى يتصل بربه محبوبه . ويستهل الأقصوصة السهروردي بأنه سافر مع أخيه عاصم من ديار ماوراء النهر إلى مدينة القيروان حيث أسيرا وقيدا في السلاسل وألقى بهم في بئر عميقة . ويبدو أنه يرمز بالمغرب والبئر إلى الشهوات التي تحول بين الإنسان وبين حياة الإشراف . ورأى هو وأخوه (رمز العقل كما يتضح من اسمه عاصم) هدهدا في ليلة قراء في مقاره كتاب صدر من شاطئ الوادي الأيمن من البقعة المباركة . وهو كتاب حمل إليهما من الذات العلية يدعوها إلى السفر (رمز الجهاد الصوفي) بغية الوصول ، وبأمرهما بركوب سفينة تجرى بها في موج كالجبال صاعدة بها إلى طور سيناء ، ليريا صومعة (الله) . ولعله رمز بالموج إلى

الشهوات . ورأيا في الطريق جهاجم عاد وثمود (رمز الضالين) وصعدا الجبل ورأيا أباهما شيخا كبيرا تكاد السموات والأرض تنشق لجماله وجلاله . وكأنه يرمز بذلك إلى وصوله . ويطلب إلى ربه أن يخلصه من سجن القيروان غير أنه يأمره بالعودة إليه قائلا إنه يمكنه الجئي إليه كلما شاء . وهو بالعودة إلى سجن القيروان يرمز إلى أن الصوفي لا يستطيع التخلص نهائيا من علائق الأرض . ويقول الله إنك ستخلص يوما (يوم الموت) من سجن القيروان ولا تعود إليه . ويلقاه في الرحلة أسد هو رمز القوة الغضبية وحيثان ربما كانت رمزا للشهوات . وكانت الرحلة شاقا . واتخذ السهروردي من مشاقها رمزا للعناء الصوفي في الوصول إلى المعرفة الإلهية والمحبة الربانية ، وقد ختمها بقوله « نجّانا الله من قيد الهيوكلى والطبيعة » .

وإذا كان القصص نما في العصر هذا النمو على أيدي الفلاسفة والمتصوفة فإن ضروب النثر الأخرى نمت بدورها ، وفي مقدمتها المناظرات وخطابة الوعظ . أما المناظرات فكثرت كثرة مفرطة بين أصحاب المذاهب الفقهية ، وكذلك بين أصحاب المذاهب الكلامية ، وهي أكثر وأوسع من أن نقف عندها ، وخاصة أنها كانت علمية الطابع . وأما خطابة الوعظ فتجرد لها كثيرون من الفقهاء والمحدثين والمتصوفة والزهاد وكانوا يعظون الناس في المساجد بعد صلاة الجمعة وطوال شهر رمضان . ويصور السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣ ما ينبغي أن يكون عليه الواعظ والمستمعون إليه ، فيقول (١) : إن أول ما يحتاج إليه الواعظ أن يكون صالحا في نفسه ورعا متواضعا ، وأن لا يكون متكبرا ولا فظا غليظا ، وأن يكون عالما بتفسير القرآن والأحاديث وأقاويل الفقهاء ، وأن لا يحدث الناس إلا بما صحَّ عنده من الأحاديث النبوية والأخبار ، وأن لا يسأل إنسانا هدية ، أما إذا أهدى إليه إنسان من غير مسألة فلا بأس من أن يقبل هديته ، وينبغي أن يمزج في مجلسه بين الخوف والرجاء ، فلا يجعله كله خوفا ولا كله رجاء ، وإن كان الواعظ محتاجا إلى تطويل مجلسه تخلله بكلام يستظرفه السامعون حتى يزيدهم نشاطا وإقبالا على سماعه . ومن آداب المستمعين أن يصلوا على الرسول ﷺ عند سماع اسمه وأن لا يناموا في أثناء الوعظ ، بل يظلوا ناشطين متنبهين

ونلمَّ على سبيل المثال بطائفة من كبار الوعاظ ، فمنهم أبو عثمان الصابوني شيخ الإسلام بخراسان ويقال إنه ظل - كما مرَّ بنا - يعظ الناس في مجالس تذكيره ستين سنة . وإنه كان

(١) بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين للسمرقندي ص ٢٥ وما بعدها .

يعظمهم بالعربية والفارسية^(١) ، ومنهم إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٧٨ ، ومن أجله بنيت المدرسة النظامية بنيسابور - كما أسلفنا - وكان يجلس للوعظ والمناظرة ورزق من التوسع في العبارة ما لم يعهد من غيره ، وكان لا يتلعم في كلمة^(٢) . ومنهم القشيري الإمام الصوفي الكبير المتوفى بنيسابور سنة ٤٦٥ ومربنا ما قيل في وعظه من أنه « لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب ، ولو ربط إبليس في مجلسه لتاب » . ومنهم الغزالي الإمام المشهور وأخوه أحمد الذي قيل فيه : « كان واعظا تنفلق الصخور الصم عند سماع تحذيره ، وترعد فرائص الحاضرين في مجالس تذكيره^(٣) » . ومنهم فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ وكان واعظا كبيرا وكان يعظ باللسانين العربي والعجمي وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء . وحضر مجلس وعظه ذات يوم السلطان أبو المظفر الغزنوي ، فصاح به وهو على المنبر ، ياسلطان العالم ! لا سلطانك يبق ، ولا تليس الرازي يبق ، وإن مردنا إلى الله^(٤) .

وكانت كثرة الدول والإمارات الفارسية في العصر عاملا مها في كثرة الرسائل الديوانية ، فقد كان لكل دولة ولكل إمارة ديوان رسائل تصدره ككتاب اشتهروا بحسن البيان ، وليس ذلك فحسب فإنهم مضوا يتأنقون في كتاباتهم صورا من التألق حتى يرضوا أمراءهم ، وكانت كتبهم لا تخلو من حلية السجع ، فهي حلية مشتركة في الرسائل جميعها وتضاف لها حلي مختلفة من الجناس والطباق والأخيلة ، حتى لتغدو بعض الرسائل طائفة من الحليات والتنميقات . وكان الشبان يغدون على هذه الدواوين ابتغاء العمل فيحسبون ، ومن تتضح عنده الملكة الأدبية يوظف فيها ، وحينئذ يلزم كاتبها من كتابها ، يعمل بين يديه ، حتى يخرجه كاتبها ماهرا . وكان بعضهم يظل في حضرة الدولة أوعاصمتها ، وبعضهم يرسل إلى الولايات للعمل بين أيدي الولاة . وكل ذلك كان يدفع شباب الكتاب إلى التنافس بينهم ، تنافسا أداهم إلى التثقف الواسع بألوان الثقافات المختلفة من لغوية وغير لغوية . وكان من يظهر منهم نبوغا يرتقي سريعا وقد يصبح رئيسا للديوان ، وقد يصبح وزيرا يدير أمور الدولة كلها ، وربما أصبح واليا لمدينة كبيرة . وكل ذلك دفع إلى النهوض بالكتابة الديوانية ، وخاصة في القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة ، حين كانت العربية لا تزال هالبة ولا يزال سلطانها نافذا في الأعمال الرسمية . وبالمثل ظلت في

(٤) السبكي ٨٩/٨ ومابعدها وابن خلكان

٢٤٩/٤

(١) السبكي ٢٧١/٤

(٢) ابن خلكان ١٦٨/٣

(٣) السبكي ١٩١/٦

تلك القرون الكتابة الإخوانية مزدهرة ، فالأدباء يصورون في رسائلهم الشخصية عواطفهم في التهادى والاستمناح والثناء والذم والتهانى والعتاب والاستعطاف والتعزية ، مظهرين في هذا المجال براعة في طرافة التفكير وجمال التعبير ، وسعتى في الصحف التالية بالحديث عن كتاب الرسائل الديوانية والشخصية ، ونقف قليلا عند قابوس بن وشمكير ومحمد بن عبد الجبار العتقى ورشيد الدين الطواط من كُتَّاب الدول والإمارات ثم نلمُّ بآبِن العميد واضع طريقة كتابة الرسائل في العصر وتلميذه صاحب بن عباد وبديع الزمان وما أنشأ من مقاماته الرائعة .

٢

كُتَّاب الرسائل

من أهم ما يلاحظ في مطالع هذا العصر بإيران ازدهار الحياة الأدبية ، فإن أصحاب الدول والإمارات الإيرانية تنافسوا في جَمْع الأدباء من حولهم ، واتخذوا لذلك كل ما استطاعوا من تشجيع مادمى مما جعل حواضرهم تتحول إلى مراكز أدبية كبيرة ، ولعلنا لم ننسَ مامرِّبنا من كثرة الإمارات الفارسية في القرن الرابع الهجرى . فقد كان السامانيون في بُخارى بخراسان والبويهيون بالرِّى والزياريون في طَبْر سْتان وجرْجان ، ولم يلبث الفزنويون أن ظهروا في هراة بأفغانستان . وكان كل حاكم يسعى إلى أن تحفل عاصمته بكبار الكتاب والشعراء ، وكانوا دائما يختارون كاتباً كبيراً ليتولى شؤون دواوينهم ، وكان بدوره يختار طائفة من الكتاب البلغاء لمعاونتته ، فلا تعجب إذا نشطت الكتابة حينئذ وكثر الكتاب بإيران كثرة مفرطة . ولم يكن أصحاب الإمارة الكبيرة أو الدولة فقط هم الذين يجذبون الكتاب البلغاء إلى دواوينهم ، بل كان أيضا يصنع صنيعهم حكام البلدان والإمارات الصغيرة ، ولذلك تعددت مراكز الأدب في الإمارة الواحدة على نحو ما يرى القارئ للثعالبي في كتابه البيئمة ، فإنه عرض في حديثه عن الدولة السامانية وحاضرتها بخارى بخراسان لنيسابور وما كان بها من نشاط أدبى واسع ، وبالمثل عرض في حديثه عن الدولة البويهية وحاضرتها النكبرى في الرِّى لأصبهان والجليل وفارس والأهواز .

ولن نستطيع أن نتعقب جميع كتاب الدول والإمارات الإيرانية في القرن الرابع فضلا عما وراءه من قرون ، ولذلك سنكتفى ببعض المشهورين متخذين منهم أمثلة لازدهار كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية قبل الغزو المغولى أو التارى في القرن السابع الهجرى . وأول من نقف عندهم كتاب الدولة السامانية ومن كبار كتابها العميد والد أبى الفضل بن العميد

كبير كتاب القرن الرابع وعلى بن محمد^(١) الإسكافي النيسابوري وأسرة بني ميكال من أهل نيسابور وفي مقدمتهم أبو الفضل الميكالي الذي ترجمنا له بين شعراء الغزل ، ويقتطف الثعالبي فصولا لطيفة من رسائله . وأكثر المجلد الرابع من البيمة إنما هو في الترجمة لأدباء بخارى ونيسابور ومن طرأ عليها من كبار الأدباء مثل بديع الزمان ، وسنفرده له حديثا ، ومثل أبي بكر الخوارزمي ، وقد ترجمنا له في شعراء الهجاء ، وهو أكبر كتاب الرسائل الشخصية أو الإخوانية في العصر ورسائله مطبوعة ، وقد تحدثنا عن فنه الكتابي وبراعته الأدبية في كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » .

ويُفيض المجلد الثالث من كتاب البيمة في ذكر كتاب الدولة البويهية في الري وأصحابها والجيل وفارس والأهواز وفي مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد ، وسنخص كلامهما بحديث ، ويشيد الثعالبي بأبي العباس^(٢) الضبي المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول إنه خليفة الصاحب وجذوة من ناره ، ويمجى في طريقه ، ترسما وترسلا . وكان لجرجان وطبرستان حظهما من الكتاب والشعراء ، ولعل كاتبها فيها لم ينبغ نبوغ قابوس بن وشمكير في الترميل والكتابة ، وسنلم به وبكتابه عما قليل . وولتقي في الدولة الغزنوية بكثيرين من الكتاب وفي مقدمتهم أبو الفتح البستي ، وقد ترجمنا له بين شعراء الحكمة والفلسفة ، وكان يعاونه في الكتابة أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتيبي ، وسنقف عنده بعد قليل . ومن كتاب الدولة الغزنوية أبو بكر القهستاني الذي ترجمنا له بين شعراء اللهو والمجون وكان على رأس كتاب الأمير محمد بن محمود الغزنوي . ويذكر الثعالبي في تمة البيمة بعض أسجاعة في رسائله . ومن كتاب هذه الدولة أيضا القاضي أبو أحمد منصور^(٣) بن محمد الأزدي الهروي المتوفى سنة ٤٤٠ وأشاد بكتابات وأشعاره كل من ترجموا له من القدماء .

ونعني إلى الدولة السلجوقية في القرن الخامس الهجري ونجد على رأس كتابها أول وزير لها عميد الملك منصور بن محمد الكندري المازي ذكره المتوفى سنة ٤٥٦ للهجرة وفيه يقول صاحب الدمية : « لعميد الملك الكندري طريقة في الترسل محمودة ، وموافقة في البلاغة مشهودة »^(٤) ويذكر نموذجاً من كتاباته . ومن كتاب هذه الدولة أبو الحسن^(٥) الحسيني

(١) انظر في الإسكافي البيمة ٩٥/٤ ومعجم الأدباء ١٩١/١٩ وبروكلمان ١٢٢/٢ .

(٢) راجع الكندري في الدمية ٢٣٠/٢ وابن خلكان ١٥٧/١٤ .

(٣) راجع في الضبي البيمة ٢٨٧/٣ ومعجم الأدباء ١٠٥/٢ .

(٤) انظر القاضي منصور الهروي في تمة البيمة ٤٦/٢ والدمية ١٥٣/٢ والسبكي ٣٤٦/٥ ومعجم الأدباء ١٧٧/٢ .

(٥) انظر في الدمية ١٣٨/٥ والشذرات ٣٠١/٣ وابن الأثير في مواضع متفرقة .

البلخي ، وكان ألب أرسلان يرسله في مهامه إلى بغداد ، ويسوق البخارزي في الدمية نموذجاً من سلطانياته . ومن كتاب هذه الدولة أيضاً البخارزي صاحب الدمية ، ومرت ترجمته بين شعراء اللهو والمجون ، والطغرائي ومرت ترجمته بين شعراء المديح ، والأبيوردى وعمل في دواوين السلاجقة ببغداد وأصفهان وغيرهما من البلدان ، ومرت ترجمته بين شعراء الفخر والمجاء والشكوى .

وكانت الدولة الخوارزمية تفقد بدورها نشاطاً أدبياً وعلمياً عظيماً استمر حتى قضاء التتار عليها سنة ٦٢٩ للهجرة ، ويكفي أن هذا النشاط أنتج العالم المعترلي الكبير الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ كما أنتج كاتباً كبيراً يُعدُّ آخر كتاب الدواوين الناهيين في إيران ، وهو رشيد الدين الوطواط ، وسنخصه بكلمة ، بعد إلامنا بقابوس بن وشمكير وأبي النصر العنبي .

قابوس^(١) بن وشمكير

هو أحد أمراء الدولة الزيارية في طبرستان وخرجان وبلاد الجبل ، ويرجع نسبه هو وأسرته إلى « آل قارن » إحدى الأسر السبع الرفيعة - فيما يُقال - لعهد الساسانيين . وينسبه البيروني هو وأسرته إلى « قباد » الملك الساساني . ولى الحكم في إمارته بعد أبيه وشمكير ابن زيار سنة ٣٦٧ ولقبه الخليفة العباسي بلقب « شمس المعالي » واشتبك مع البويهيين في سلسلة حروب انتهت بفراره من إمارته إلى السامانيين سنة ٣٧١ وظل عندهم مكرماً ، حتى استرد ملكه سنة ٣٨٨ . وكان أميراً جليل القدر بعيد المهمة ، غير انه كان - كما يقول ابن خلكان - على ما خصَّ به من المناقب ، والرأي البصير بالعواقب ، مرَّ السياسة لا يساغ كأسه ، ولا تُؤمَّنُ بحال سطوته وأسه ، يقابل زلَّة القدم ، بإراقة الدم ، لا يذكر العفو عند الغضب ، فما زال على هذا الخلق ، حتى استوحشت النفوس منه وانقلبت القلوب عليه ، فأجمع أعيان دولته وعسكره على خلعه ونزع أيديهم من طاعته ، وحاصروه بإحدى القلاع في جرجان . وكان ابنه منوچهر بطبرستان فاستحثَّوه على السير إليهم لعقد البيعة له ، فأسرع في الحضور وبايعوه على أن يخلع أباه ، ونزل على إرادتهم ، وألزم أباه المكث بإحدى القلاع ، ولم يزل في سجنه حتى توفي سنة ٤٠٣ على نحو ما مرَّ بنا في غير هذا الموضع .

والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٤ وابن الأثير في مواضع متفرقة وديوان المعاني للعسكري ٨٦/١ والفن ومذاهبه في التثر العربي (الطبعة الثامنة) ص ٢٥٥ .

(١) راجع ترجمة قابوس في البيعة ٥٩/٤ والبيهي للغنى مع شرح المنيني (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) .
١٧ - ١٤/٢ ، ١٧٢/٢ - ١٧٨ ومعجم الأدباء
٢١٩/١٦ وابن خلكان ٧٩/٤ والمتنظم ٢٦٤/٧

وكان قابوس مكرما للعلماء والشعراء يجزل الصلوات لهم ، وقدم له البيروني كتابه « الآثار الباقية » وقدم له الثعالبي كتابيه : « المبهج » و« التمثل والمحاضرة » . وكان مثقفا ثقافة واسعة شملت علوم الأوائل ، ويقال إنه كتب في الإسطرلاب كتابا كان يعجب به صاحب . وكان أدبيا بارعا ، وهو يعد من كبار الكتاب في عصره ، وفيه يقول الثعالبي :

« جمع الله سبحانه له إلى عزة العلم بسطة القلم ، وإلى فصل الحكمة نفاذ الحكم ، وإلى أتوج هذا الكتاب (اليتيمة) بلمع من ثمار بلاغته . . وأكتب فصولا من على نثره » .

ويقول العتبي في كتابه اليميني : « إن رسائله موجودة في البلاد عند الأفراد ، لكنني أكتفي منها بلمعة من بوارق بيانه ، وزهرة من حدائق إحسانه » . ويعلق أبو هلال العسكري على رسالة له اقتبسها في كتابه « ديوان المعاني » بأنها لانظير لها في الافتخار والعتاب . وقد جمع رسائله في عصر قريب منه عبدالرحمن بن علي الزيدادي باسم « كمال البلاغة » ونشرت في القاهرة ، ونراه مجلل في مقدمته لها بلاغته ، وقد ردّها إلى أربعة عشر نوعا في طريقة التسجيع واستخدام قابوس اللوازم المتصلة به ، مما يصور بوضوح تعقد السجع عند قابوس تعقدا شديدا ، وهو تعقد مرجعه فيما يظهر سعة وقته ، وكأنه اتخذ منه أداة للهو وتسلية على نحو ما يتضح في المطلع التالي لإحدى رسائله :

« الإنسان خلق ألوفا ، وطبع عطوفا ، فما لسيدى لأبْحَنِي عودَه ، ولا يُرْجِي عودَه ، ولا يُخال لفَيْتَه مَخِيلَه ، ولا يُحال تنكره بِحِيلَه ، أَمِنْ صَحْرٍ تَدْمُرُ قلبه ، فليس يُلينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فليس يميله الإعتاب » .

وواضح تصنعه المعقد للجناس في سجعانه إذ يجانس بين « عوده » و« عوده » ملتصقا جناسه في اختلاف حركة العين في الكلمتين ، وقد يلتمس الجناس عن طريق الاشتقاق كما في « بحال » و« مخيلة » وفي « بحال » و« بحيلة » . وقد يلتمسه في تغاير بعض الحروف في الكلمة كما في « مخيلة » و« بحيلة » . وكل ذلك ليظهر مهارته في تضييق ممراته إلى أسجاعه . وفي كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » بيان واف لهذا الجانب عنده .

أبو النصر^(١) العتبي

هو محمد بن عبد الجبار العتبي ، مولده ومرباه في الرّي ، وقد فارقتها في شبابه ، وقدم خراسان على خاله أبي نصر العتبي وكان من وجوه العمال بها ، فلم يزل يرعاه كالولد العزيز

(١) انظر في ترجمة العتبي اليتيمة ٤/٣٩٧ والسبكي في (الترجمة العربية) ١/٦ .

ترجمة محمود بن مسككين الغزنوي ٤/٣١٩ وبروكلمان

عند الوالد الخاني إلى أن وافاه القدر . وتقلب بمحمد أحوال وأسفار وأعمال في الدواوين إلى أن استقر أمره في العمل مع أبي الفتح البستي في ديوان أبي منصور سُبُكْتِكِين مؤسس الدولة الغزنوية ، وظل يعمل بعد وفاة سُبُكْتِكِين مع ابنه محمود حين استولى على صولجان الحكم ، وكان محمود يعترف - كما مرينا - بالسلطة الروحية للخليفة العباسي ، فخلع عليه لقب يمين الدولة وأمين الملة . واتسع ملكه - كما أسلفنا - حتى شمل خوارزم وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية وكشمير والبُنجَاب في الهند . وعُي أبو النصر العتبي بكتابة تاريخ هذا الفاتح العظيم وسمى كتابه اليميني نسبة إلى لقب محمود الذي خلعه عليه الخليفة : « يمين الدولة » وقد انتهى به عند سنة ٤٠٩ مع أنه عاش حتى سنة ٤٢٧ . وربما كان في ذلك ما يدل على أنه صنفه في وقت متأخر . وأنه لم تتح له الفرصة لتكتمه . ويقول السبكي : « وأهل خوارزم وما والاها يعنون بهذا الكتاب ، ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريري » وهو مطبوع في القاهرة مع شرح اليميني له في القرن الماضي ، ونسوق القطعة التالية منه مع ما سجله من ألقاب محمود الغزنوي ، يقول :

« الأمير السيد ، الملك المؤيد ، يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود بن ناصر الدين أبي منصور سُبُكْتِكِين ، ملك الشرقِ بِجَنَبِيهِ ، والصدر من العالم وبديه ، لانتظام الإقليم الرابع بما يليه من الثالث والخامس في حوزة ملكه ، وحصول ممالكها الفسيحة وولاياتها العريضة في قبضته ، ومصير أمرائها وذوى الألقاب المملوكية من عظامها تحت حمايته . وجبايته ، واستدراهمهم « دفعهم » من آفات الزمان بظل ولايته ، ورعايته ، وإذعان ملوك الأرض لعزته ، وارتياحهم بفائض هيئته : واحتراسهم - على تقاذف الديار ، وتحاجز الأنجاد والأغوار - من فاجئ ركضته » .

والعتبي بكتابته تاريخ محمود الغزنوي بهذه اللغة المسجوعة يحاكي الصائفي في كتابه « التاجي في ملوك بني بويه » الذي كتبه قبله بنفس اللغة ، وقد سقط « التاجي » من يد الزمن بحيث لا نستطيع المقارنة بين العملين . ويبدو أن كتاب العتبي كان أخف ، فتعلقت به القلوب والأفئدة ، حتى قالوا إن من جاءوا بعده كانوا يتحفظونه ويتدارسونه ويتخذونه قدوة لهم في البلاغة . وعلى شاكلة في خفة السجع وعذوبته رسائله ، فإن الفصول التي حكاها الثعالبي منها تتخذ نفس الأسلوب فلا تكلف ولا تصنع ولا تعمل من مثل قوله في رقعة كتبها في الإنكار على من يذم الدهر :

« عَتَبَكَ عَلَى الدَّهْرِ دَاعٍ إِلَى العَتَبِ عَلَيْكَ ، واستبطاؤك إياه صارفُ عِنَانِ اللَّوْمِ إِلَيْكَ ، فالدَّهْرُ سَهْمٌ مِنْ سَهَامِ اللَّهِ مَرَعَهُ عَنْ مَقَابِضِ أَحْكَامِهِ ، ومطلعه من جانب

ما حرّره مجارى أقالمه ، والوقية فيه ، تمرد بحكم خالقه وباريه ، ومجارى الأشياء على قدر طباعها ، وبحسب ما فى قواها وأوضاعها ، ومن ذا الذى يلوم الأرقام على التهنس بالأتياب ، والعقارب على اللسع بالأذنان ، وأنى لها أن تُدَمِّمَ ، وقد أُشْرِبَتْ خِلْقَتها السم وحكم الله فى كل حال مطاع ، وبأمره رِضاً واقتناع .

ولغة العتبي سهلة ليس فيها ألفاظ غريبة ، وسجعه ينزلق عن الألسنة فى يسر ، وليس فى الكلام ما يعوق جريانه من عقد الجناس وما يتصل بالجناس ، مما يتعترّ فى الأفواه .

رشيد الدين^(١) الوطواط

هو محمد بن محمد بن عبد الجليل العُمَرى الملقب برشيد الدين المعروف بالوطواط لضالة جسمه . من سلالة عمر بن الخطاب ، وأُلد بيلُخ وبها نشأ وترى فى المدرسة النظامية ، وكان شاعرا كما كان كاتباً ، وله مصنفات عدة ، منها : « غرر الخصائص الواضحة » وهو من كتب الأدب التهذيبي ، ومنها : « حدائق السحر فى دقائق الشعر » وهو فى علم البديع والمصنعة الشعرية ، وضعه بالفارسية ، وأمثله فيه موزعة . بين الفارسية والعربية ، وقد نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين . ونرى رشيد الدين يغادر موطنه ويلتحق فى سنة ٥٢٢ للهجرة بدواوين الدولة الخوارزمية فى عهد أميرها الطموح الباسل أئسىز (٥٢١ - ٥٥١ هـ) ويظل بعد وفاته يعمل فى دواوين الدولة ، إلى أن يبلغ من الكبر عتياً ويهين عظمه ، يدل على ذلك أن سلطان شاه محمود حفيد أئسىز حين تولى مقاليد الأمور فى خوارزم سنة ٥٦٨ أراد أن يرى هذا الشاعر الهرم المريض فحملوه إليه فى محفة ، فلما مثل بين يديه نظم رباعية فى مديحه ومديح أبيه وحده باللغة الفارسية . وعاش الوطواط بعد ذلك سنوات ، واختلف مؤرخوه ، فقيل توفى سنة ٥٧٣ وقيل بل سنة ٥٧٨ .

ويشيد ياقوت بأدبه وبلاغته قائلاً : « كان من نوادر الزمان وعجائبه ، وأفراد الدهر وغرائبه ، أفضل زمانه فى النظم والنثر ، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب . وأسرار النحو والأدب ، طار فى الآفاق صيته ، وسار فى الأقاليم ذكره ، وكان ينشئ فى حالة واحدة بيتاً بالعربية من بحر وبيتاً بالفارسية من بحر آخر ويمليها معا » ويقول ياقوت : من مؤلفاته

(١) راجع فى الوطواط وترجمته معجم الأدباء ٢٩/١٩ وروضات الجنات ٧٧ وبقية الوعاة للسيوطى ومقدمة الدكتور إبراهيم أمين لتعريبه لكاتب حدائق السحر فى دقائق الشعر ، وقد ضمنها ترجمة واسعة له مع ذكر مراجعه فى الفارسية . وانظر بروكلمان ١٤٢/٥ ورشيد الدين الوطواط (مقالة مستلة من مجلة الجامعة المستنصرية) العدد الأول سنة ١٩٧٠ .

تحفة الصديق من كلام أبي بكر الصديق ، وفصل الخطاب من كلام عمر بن الخطاب ، وأنس اللهفان من كلام عثمان بن عفان ، ومطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طالب . ويقول أيضا : له ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية وديوان رسائل بالفارسية ، وشعره دون نثره جودة . ورسائله العربية مطبوعة بمصر في جزءين ، وهي موزعة بين رسائل شخصية أو إخوانية ورسائل سلطانية أو ديوانية . ونسوق له قطعة من تقليد حسبة صدر عن ديوان خوارزم ، وفيه يقول :

« أن أولى الأمور بأن تُصَرَّفَ أَعِنَّةُ العناية إلى ترتيب نظامه ، وتُقَصَّرَ المهم على مهمة إتمامه ، أمرٌ يتعلَّق به ثباتُ الدين ، ويتوقف عليه صلاح المسلمين ، وهو أمر الاحتساب فإنَّ فيه تثبيت الزائغين عن الحق ، وتأديب المهملين في الفسق ، وتقوية أعضاد أرباب الشرع وسواعدها ، وإجراء معاملات الدين على قوانينها وقواعدها . وينبغي أن يكون متقلداً لهذا الأمر موصوفاً بالديانة ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مراصد (أماكن) الربِّ (التهمة) بعيداً عن مواقف التَّهم والعيب ، لابساً مدارع السَّداد ، سالكاً مناهج الرشاد . والشيخ الإمام - أدام الله فضله - متحلٌّ بهذه الخصائص المذكورة ، والفضائل المشهورة ، ومستظهر في دولتنا للحقوق الفرضية ، ومستشعر للصفات المرضية ، فقلدناه هذا الأمر . وأمرناه أولاً أن يجعل التقوى شعاره ، والرُّهد دثاره ، والعلم معلّمه والدين مناره . ثم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقم حدود الشرع على وفق النصوص والأخبار ، ومقتضى السنن والآثار . وأمرناه أن يبالغ في تعديل المكاييل والموازين ، على وفق أحكام الشرع والدين ، فإن وجد تفاوتاً في شيء منها سواه وعدلّه ، وغيره وبدلّه ، وأدب صاحبه على رموس الأشهاد ، ليتزجر عن مثله أهل الحياة والفساد .

والتقليد مهم لأنه يطلعنا على وظيفة الحسبة ، وأن الحاسب لم يكن فقط يراقب الأسواق كما يراقبها الشرطي ، بل كان أيضاً ينظر في كل ما يقع بها من الجنايات والخصومات كما ينظر القاضي ، وكأنه كان يقوم بوظيفة الشرطي والقاضي في وقت معاً ، فهو ينظر في الجرائم وما يقع من خصومات وفق ما جاءت به الشريعة من الحدود والأحكام . وهو لذلك كان يختار من الفقهاء أو من الشيوخ كما جاء في التقليد ، إذ لا بد أن يكون عالماً بالكتاب والسنة وما جاء عن الأئمة في الحدود وغيرها من أحكام . وهو مع ذلك يقوم بأعمال الشرطي ، فيراقب المكاييل والموازين ، فإن وجد في مكيال أو ميزان تفاوتاً أو نقصاً بدله على رموس الأشهاد ، حتى يفتضح الخائنون فلا يعودوا إلى خيانة أبداً ، وحتى يتزجر غيرهم فلا تحذتهم نفوسهم بخيانة في ميزان أو مكيال أو ما يشبه الخيانة .

والتقليد جميعه مسجوع ، وليس فيه ألفاظ غريبة ، فالوطواط ينطلق في سجعه ، وكأنه ينساب من معين زاخر دون أى عائق أو حائل . وبمثل هذه الصورة من السجع رسائله الإخوانية أو الشخصية فهي تجرى سائغة سهلة خفيفة على الأسماع والأفواه كقوله من رسالة وجه بها إلى الزمخشري يستأذنه في حضور دروسه وبجالسه :

«أنا منذ لفظتني الأقدار من أوطاني ، ومعاهد أهلي وجيراني ، إلى هذه الخطة (خوارزم) التي هي اليوم بمكان جار الله - أدام الله دولته - جنة للكرام ، وجنة (سيرا) من نكبات الأيام ، كانت قصوى مُنيبي ، وقُصارى بُغيبي ، أن أكون أحد الملازمين لسُدته الشريفة التي هي مخيم السيادة ، ومقبل أفواه السادة ، من ألقى فيها عصاه ، حاز في الدارين مُناه ، ونال في المحلّين مبتغاه ، ولكن سوء التقصير ، أو مانع التقدير ، حرمني تلك الخدمة ، وحرّم عليّ هذه النعمة . والآن أظن - وظنّ المؤمن لا يخطئ - أن آفل جدّي (حظي) همّ بالإشراق ، وذابل إقبالي أقبل على الإبراق ، فقد أجد في نفسي نوراً مجدداً يهديني إلى جنّته ، ومن شوق داعياً موقفاً يدعوني إلى حضرته » .

وتمضي الرسالة على هذا النمط من السجع الطبيعي . وكان يفسح في شعره لكل صور البديع المتكلفة ولكل ضروب المحسنات من ترصيع وغير ترصيع . وتركه للحديث عن ثلاثة هم في الذروة من أدياء العصر في مختلف حقبة الماضية : ابن العميد والصاحب بن عباد وبديع الزمان .

٣

ابن العميد^(١)

هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، فارسي الأصل ، من مدينة قم الشيعة الإمامية ، فيها منشؤه ومرياه ، مما أعدّه ليكون شيعياً إمامياً مثل أمرائه البويهيين . وكان أبوه كاتباً فذاً ، كتب لما كان بن كاكى ثم للسامانيين ، وهم الذين لقبوه بلقبه العميد كعادتهم فيمن يتقلد لهم ديوان الرسائل . ولم يلحق ابنه معه بديوانهم ، بل ألحقه بدواوين البويهيين . وخدم ركن الدولة الحسن بن بويه صاحب الرى ، ولم يزل يترقى عنده ، حتى أصبح وزيره منذ سنة ٣٢٨ حتى وفاته سنة ٣٦٠ .

(١) انظر في ابن العميد وترجمته البيهقي ١٥٤/٣ وما بعدها ونجاشي الأئم لاين مسكويه في مواضع متفرقة وابن لأثير ٥١١/٨ ، ٥١٦ ، ٦٠٦ ، وابن خلكان ١٠٣/٥ الفن ومذاهبه في التثر العربي ص ٢٠٥ .

وكان ابن العميد مثقفاً ثقافة واسعة بجميع علوم عصره حتى ليقول ابن مسكويه مؤرخ البويهيين المشهور: «كان أجمع أهل عصره لآلات الكتابة، حفظاً للغة والغريب، وتوسعاً في النحو والعروض، واهتداءً إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام. فأما القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار. فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة. أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرة إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلم». ويقول ابن الأثير: «كان عالماً في عدة فنون، منها الأدب، فإنه كان من العلماء به، ومنها حفظ أشعار العرب فإنه حفظ منها ما لم يحفظ غيره مثله، ومنها علوم الأوائل فإنه كان ماهراً فيها، مع سلامة اعتقاد إلى غير ذلك من الفضائل. ومع حسن خلق ولين عشرة مع أصحابه وجلسائه، وشجاعة تامة، ومعرفة بأمر الحرب والمحاصرات، وبه تخرج عضد الدولة، ومنه تعلم سياسة الملك ومحبة العلم والعلماء». ويقول ابن خلكان: «كان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم».

وكان - كما لاحظ ابن الأثير - يحسن قيادة الجيوش، وحقق للدولة انتصارات عظيمة، من ذلك انتصاره على محمد بن ماكان قائد الجيش الخراساني سنة ٣٤٤هـ بما أخذه لأصبهان واستيلائه على خزائنها، فقد اعترضه في طريقه إلى الري وهزمه هزيمة ساحقة. ومن ذلك انتصاره على ابن بلكا بشر سنة ٣٤٥هـ. وخرج في سنة ٣٦٠هـ لقتال حسويه الكردي، ولكن المنية أدركته دون غايته، وكان عمره يزيد قليلاً على ستين عاماً. وظل وزيراً ثلاثاً وثلاثين سنة. وكان مقصد الشعراء والأدباء يجزل لهم الصلوات، وقصده أبو الطيب المنيني بأرجان. فاستقبله استقبالاً حافلاً، وفيه يقول:

عريٌّ لسانه فلسفيٌّ رأيه فارسيٌّ أعيادهُ

ويشيد كل من ترجموا له ببلاغته، وفي ذلك يقول الثعالبي: «أوجد العصر في الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة، والضارب في الآداب بالسهم الفائزة، والآخذ من العلوم بالأطراف القوية، يُدعى الجاحظ الأخير والأستاذ والرئيس. يُضرب به المثل في البلاغة، ويُنتهى إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها إلى براعة المعاني ونفاسها. وكان يقال: بُدئت الكتابة بعبد الحميد، وخُتمت بابن العميد». ومن يقرأ ما اقتبسه الثعالبي من كتاباته يؤمن بأنه هو الذي أعطى الكتابة في عصر الدول والإمارات صيغتها التي ظلت الأجيال المتوالية تستخدمها، وهي صيغة قامت على أساسين كبيرين: أولهما السجع، وكان السجع معروفاً من قبله في

الدواوين العباسية منذ أول القرن الرابع الهجري ، على نحو ما مرّ بنا ذلك في كتاب العصر العباسي الثاني ، وسرّاه يُدخل عليه ضرورياً من الموازنة في السجعتين المتواليتين ، بحيث تصبح هذه الضروب ضرورة أو لازمة فيه . والأساس الثاني لم يكن متبعاً قبله ، وهو استخدام المحسنات البديعية مع السجع ، فالسجع وحده لا يكفي ، بل لابد أن تُضاف إليه الاستعارة أو الجناس أو الطباق وما إلى ذلك من محسنات البديع وتلاوينه . ونسوق مثلاً لذلك من كتاب كتب به عن ركن الدولة بن بويه إلى ابن بلكا عند عصيانه عليه ، مفتتحاً كتابه بقوله :

« كتابي إليك . وأنا مُتأرجح بين طمع فيك ، وبأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تُدِلُّ بسابق حرّمه ، وتُمتُّ بسالف خدمه ، أيسرها يوجب حقاً ورعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعها بحادث غُلُولٍ^(١) وخيانة ، وتتبعها بِآئِفٍ^(٢) خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يُحْبِطُ أعمالك ، ويُسْقِطُ كُلَّ ما يُرعى لك . »

وهذه النعمات الأولى في الكتاب ترينا بوضوح أساس المنهج الذي التزمه ابن العميد في كتابته . فهو يلتزم السجع ، وليس ذلك فحسب ، بل هو يوازن بين السجعات ، فيجعلها قصيرة تتكون من كلمتين ، وإن طالت السجعة الأولى قليلاً أطال السجعة الثانية وجعلها موازنة لها أدق موازنة ، فسجعة « تدلُّ بسابق حرّمة » توازنها في دقة السجعة التالية لها : « تمتَّ بسالف خدمه » . ومثلها السجعتان : « ثم تشفعها بحادث غلُولٍ وخيانة ، وتتبعها بِآئِفٍ خلاف ومعصية » . وهو لا يلتزم السجع فحسب ، بل يكثر من الطباق مثل « طمع وبأس » و « إقبال وإعراض » كما يكثر من الجناس مثل سابق وسالف ، والكتاب زاخر به وبالطباق وبتصاوير كثيرة كقوله فيه معاتباً صاحبه :

« ألم تكن في ظلِّ ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء عَدِيٍّ^(٣) وماء رَوِيٍّ ، ومهادٍ وَطِيٍّ (لين) وكنٍّ^(٤) كَنِينٍ^(٥) ، ومكان مكين ، وحِصْنٍ حصين . »

وكل هذه كنيات واستعارات لما كان فيه هذا العاصي لركن الدولة حين كان يضع يده في يده ، فقد كان في سعادة ما وراءها سعادة ، فإذا كل نعم كان فيه يتحول بؤساً وشقاء . وله فصل من رسالة كتب بها إلى عضد الدولة يشيد فيها برعايته للعلم والعلماء قائلاً :

« قد يعدُّ أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مُدْدها ، وانتقاض مِرْرها

(١) غلُول : خيانة

(٢) آئِف : أئد

(٣) عَدِي : خالص

(٤) الكن : ما يرذ الحر والبرد من الأبنية .

(٥) كَنِين : مستور

(قواها) . . الطوفان بالنار والماء، والموتان العارض من عموم الأوباء، وتسلب المخالفين في المذاهب والآراء . . وليس عندى الحَظْبُ في جميع ذلك يقارب ما يؤلده تسلط ملك جاهل تطول مدته، وتسع قدرته. وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته، والبلوى بمن هذه صورته، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذي أحله الله من الفضائل بملتقى طرفها، ومجتمع فرقها، وهي نور^(١) نوافر من لاقت حتى تصير إليه، وشرد نوازح حيث حلت حتى تقع عليه، تلتفت إليه تلتفت الوامق، وتشوف نحوه تشوف الصب العاشق . .

والفصل طريف في دلالة على عناية عضد الدولة بالعلم وأهله، وكان دائماً يعقد لهم المناظرات بين يديه. والفصل صورة أخرى لعناية ابن العميد بالسجع وتقصيره، وإحداث الموازنات بين السجعات حين تطول. وفي أثناء كل ما قدمنا له تتضح عنايته بحسنات البديع وسلاسة اللفظ وجمال السبك ووضوح المعنى. وهي كلها جوانب أساسية في بلاغته وبيانه.

٤

الصاحب^(٢) بن عباد

هو كافي الكفاة إسماعيل بن عباد، من أهل الطالقان: ولاية بين قزوين وأبهر. وُلد عام ٣٢٦ لأبيه عباد بن العباس الطالقاني. وكان يعمل مع ابن العميد في ديوان ركن الدولة بالرى، وعُني به، فوصله منذ نعومة أظفاره بأحمد بن فارس اللغوي، حتى إذا اتضحت فيه مخايل الأدب ألحقه بابن العميد. فكان يصحبه دائماً، مما جعل الناس يطلقون عليه لقب صاحب ابن العميد، وظل هذا اللقب علماً عليه، وقيل بل صحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة منذ الصبا وسماه الصاحب، فاستمر عليه اللقب واشتهر به.

يريد ابن العميد والصاحب وقد بالغ في الغص منها كما أشرنا إلى ذلك. ورسائل الصاحب مشورة في دار الفكر العربي بالقاهرة بتحقيق وتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام. وجمع أشعاره محمد آل ياسين ونشرها في النصف باسم ديوان الصاحب وله عنه كتاب، وكذلك للدكتور بدوي طبانة (طبع القاهرة). وانظر المدخل بين يدي الرسائل وكنا نحن ومداهم في التر العربي ص ١١٢ وما بعدها.

(١) نور: جمع نوار: شاردة
(٢) انظر في الصاحب وترجمته وأشعاره ورسائله البيهية ١٨٨/٣ والمتنظم ١٧٩/٧ ومعجم الأدياء ١٦٨/٦ وابن خلكان ٢٢٨/١ وإنباه الرواة ٢٠١/١ وروضات الحنات ١٠٤ ونزهة الألباء ٣٢٥ ومرآة الجنان ٤٢١/٢ والشذرات ١١٣/٤ ولسان الميزان ٤١٣/١ وابن الأثير في مواضع متفرقة وفي سنة ٣٨٥ وكذلك النجوم الزاهرة ١٦٩. ٤. ومثالب النوريرين لأبي حيان.

ومنذ فتك مؤيد الدولة بأبي الفتح علي بن أبي الفضل بن العميد سنة ٣٦٦ ولاه وزارته وظل وزيراً له حتى إذا توفى سنة ٣٧٣ وخلفه أخوه فخر الدولة أقرّة على وزارته ، وكان مبعجلاً عندهما ومعظماً نافذ الأمر . وكان حسن السياسة مدبراً للملك كما كان قائداً شجاعاً مما رفع منزلته عندهما إلى أقصى حد ، حتى قيل : كان « مَنْ يُؤَدِّنُ له في الدخول عليه بظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة ، فرحاً ومسرّة ، وشرفاً وتعظيماً ، فإذا حصل في الدار وأذن له في الدخول إلى مجلسه قبل الأرض عند وقوع بصره عليه . . ولم يكن يقوم لأحد من الناس ، ولا يشير إلى القيام ، ولا يطعم أحد منه في ذلك » . ومازال وزيراً لفخر الدولة حتى توفى سنة ٣٨٥ ويقال أنه لما توفى أغلقت له مدينة الري ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته ، وحضر فخر الدولة وسائر القواد وقد غيروا لباسهم . ومشي فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس ، وقعد للعزاء أياماً . وفيه يقول الثعالبي : « ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب وجلالة شأنه في الجود والكرم ، وتقدره بغايات المحاسن ، وجمعه أشنات المفاسر ، لأن همة قوى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ؛ وجهد وصنى يقصر عن أيسر فواضله ومساغيه ولكنى أقول : هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان . . وكانت أيامه للعلوية والعلماء . والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومرتع آمالهم ، وأمواله مصروقة إليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمة في مجد يشيده ، وإنعام يجده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . . وكانت حضرته مشرعاً لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه جمعاً لصبوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح . . واحتفّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يُرَبِّي عددهم على شعراء الرشيد ؛ ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، ومِلِّك رِقِّ المعاني » . ويذكر ياقوت أن عطاياه للأدباء والشعراء والعلماء والأشراف كانت تزيد على مائة ألف دينار في العام الواحد . وكان يقول : مُدحت بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية ، وفي هذا ما يدل على أنه كان يعرف الفارسية ، بل ربما كان يتقنها إذ روى أنه اختبر قدرة بديع الزمان الهمداني ، حين مرّ ببابه ، في الترجمة من الفارسية إلى العربية .

وكان شاعراً مجيداً ، كما كان كاتباً مجيداً ، وقد أنشد الثعالبي طائفة كبيرة من أشعاره أخلاها من شعره العقيدى الشيعى والمعتزلى ، فقد كان شيعياً إمامياً كما مر بنا في حديثنا عن شعراء المديح وكان يدين بمذهب المعتزلة ومبادئهم المعروفة ، وقد نشر محمد حسن آل ياسين

ديوانه كما مرّ بنا ، وهو يموج بأشعاره الشيعية وبتصويره لمبادئه الاعتزالية من مثل قوله :
 قالت : فما اخترت من دينٍ تفوز به فقلت إنّي شيعيٌّ ومُعترليٌّ
 وقوله :

ومن كان بالتَّشبيه والَجبرِ دائناً فإني في التوحيد والعدل أوحداً
 وهو يحمل على المشبهة والمجبرة حملات شعواء ، كما يحمل نفس الحملات على من
 يقولون بأن القرآن قديم وغير مخلوق يقول :

وإن قال أقوامٌ قديمٌ لأنه كلامٌ له فانظر إلى أين صعّدوا
 وله وراء شيعياته واعتزالياته أشعار طريفة أنشدنا منها - فيما مرّ - أطرافاً . وصنّف في
 اللغة معجماً سماه المحيط كما صنف كتباً ورسائل مختلفة في الإمامة وفي فضائل علي
 ابن أبي طالب وفي أسماء الله وصفاته وله رسالة في الكشف عن مساوي المتنبّي وكتاب في
 المقصور والمحدود . وكانت له مكتبة ضخمة ويقال إن فهرست كتبها كان يقع في عشر
 مجلدات ، وأنها كانت جملاً أربعائة بعير .

ورسائله منشورة ، وهي في عشرين باباً وكل باب يشتمل على عشر رسائل ما عدا
 البابين السابع عشر والثامن عشر ، وأولها في الآداب والمواعظ وبه أربع رسائل ، والثاني
 فصول قصيرة وتوقعات موجزة . وقد ذُكرت في مدخل الرسائل القيمة التاريخية لها .
 وجميعها ديوانية ، أو الكثرة الكثيرة منها ، ولذلك كانت تُعدُّ وثائق قيمة عن الدولة
 البويهية ، وخاصة أن صاحب يعرض فيها حروبهم وأسماء قوادهم وقضاتهم كما يعرض
 معاهداتهم وإدارتهم لشئون الرعية مما يجعل لها قيمة سياسية واجتماعية بعيدة . والباب
 الأول منها خاص بفتوح عضد الدولة وحروبه مع أخيه فخر الدولة وقابوس بن وشمكير
 ومع الروم ومع ابن حمدان ومع وهسودان . وفي كل ذلك تفاصيل جديدة تضيفها
 الرسائل إلى ابن الأثير وغيره من المؤرخين . وبالمثل تضيف جديداً إلى ما تذكره كتب
 التاريخ عن معاهدات البويهيين على نحو ما جاء في معاهدة لهم مع السامانيين من أنه
 « لا يُقبَلُ في جهة من الجهتين أباق العساكر ، ولا يمهّد في جنبه من الجنبين للخالغ
 والنافر ، ولا يُحَامَى على مَنْ عصا فشرد ، وشق العصا وانفرد » . ومن الطريف أن نتعقب
 ما جاء في الباب الثاني من العهود للقضاة والولاة والمحتسين ، وخاصة عهود القضاة ،
 لنرى هل كانوا يرجعون إلى مصادر الفقه المعروفة العامة ، وهي الكتاب والسنة والإجماع
 والقياس ، وكأن لا فرق بين الشيعة وأهل السنة حينئذ في القضاء ومصادره ؟ . وفعلاً
 يؤكد ذلك ما جاء في الرسالة الأولى من الباب الثاني الخاصة بعهد القاضي عبد الجبار .

وفيها أيضا أن التركة لا تُردُّ إلى بيت المال بل يأخذها الأبعد من ذوى الأرحام ، وهو ما أشار إليه المقدسى في كتابه أحسن التقاسيم من أن البويهيين لم يكونوا يتعرضون للتركات . وبلغنا عهد في الحِسْبَة نطلع منه على صفات المحتسب وواجباته ومسئوليته . وتلقانا عهد في معاملة الرعية وفي قسمة الماء في بعض الأودية ، كما بلغنا باب عن الحجيج والمصالح والثغور . وفي الباب السادس رسالتان هما الخامسة والسادسة كُتبتا بمناسبة نشوب ثورة في قزوين بين الشيعة والسنة ، ونرى الصاحب يدعو فيها إلى أن تحل الألفة والوثام بين الطائفتين دون نصرة إحداهما على الأخرى . وفي ذلك ما يدل على أن البويهيين لم يتحيزوا إلى مذهبهم الشيعي في أنحاء دولتهم حفظاً للأمن وصيانة له . وطبيعي أن نحسَّ في بعض الرسائل بأن كاتبها من المعتزلة ، فقد كان الصاحب كما قدمنا معتزلياً ، وفي الباب السابع عشر رسالتان صريحتان في أن الصاحب كان يبعث دعاة له أحياناً يدعون الناس إلى الدخول في نحلة الاعتزال . ومن قوله في إحداهما : « كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على أهل عدل الله وتوحيده ، والتصديق بوعدته ووعيده ، هذا وفي فقهاه وفور ، وفي الفضل به ظهور ، وقد أعان الله على بثِّ كلمة الحق . وسمع الأكثرُ على لين ورفق » . وربما رأى أن الاعتزال باب للتشيع ، وكانا متأخين حينئذ ، فعمل على نشره ليشتر من ورائه التشيع مبتغاه . وفي الرسائل - من حين إلى آخر - ما يدل على نزعة الشيعة وخاصة حين يكتب برسائله إلى بعض الأشراف العلويين . وتلقانا في الباب التاسع عشر رسالة هي عهد لعلوى ولى النقابة بين الذرية الطيبة ، وفيها ما يدل على أن النقيب هو الذى كان يحكم بين العلويين ، وأنه كان لهم قضاء مستقل في الدولة ، وأنه كان يتسب إليهم دخلاء يتحلون النسبة ، ويأمر النقيب بتعقبهم وإشهار أمرهم ، وفي الرسالة أيضاً ما يدل على كثرة الأموال التى كان يقدمها البويهيون للعلويين .

وعلى هذا النحو لرسائل الصاحب المنشورة قيمة تاريخية كبيرة ، وأيضاً لها قيمة أدبية كبيرة ، لأنها المجموعة الوحيدة التى وصلتنا عن كتاب البويهيين في القرن الرابع الهجرى ، وهى دائماً تبتدىء بالتحميد والتمجيد للنبي ﷺ أو بالدعاء . ويُعقب الصاحب هذا البدء بذكر أميره الذى يكتب عنه مكفياً بلقبه المشهور الذى خلعه عليه الخليفة ، وقد يذكر كلمة الحضرة السامية أو الحضرة الشريفة . وإذا كانت الرسالة في فتح عظيم أطلال في الدعاء تنويها بالفتح . والرسائل كلها مكتوبة بأسلوب ابن العميد الذى يقوم على السجع والبديع ، ويروى معاصروه طرفاً كثيرة عن ميله للسجع وإيثاره ، حتى زعموا أن ابن العميد قال : خرج ابن عباد من عندنا من الرى متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين :

فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشيء إلا ليكتب إلينا : « كتابي هذا من التَّوْبَار ، يوم السبت في نصف النهار » . وقالوا إن سجة اضطرته إلى عزّل قاضي مدينة قُم ، فقد كان في حضرته ، فقال له : أيها القاضي بقم ، وأراد أن يكمل السجة ، فأعياه إكمالها ، فقال : قد عزلناك قُم . ولعل هاتين النادرتين جميعاً من وضع خصمه أبي حيان ، وفي تكلفه للسجع يقول : « كان كلفه بالسجع في الكلام والقول عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد . . قلت لابن المسيبي : أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجة تنحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبّل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غُرم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخفّ عليه أن يُفْرَج عنها ويُخْلِيا ، بل يأتي بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها » . وكل هذه مبالغات فإن من يرجع إلى الرسائل المنشورة يجد صاحب يترك نفسه على سجيّتها ، فإن واثه السجع مضى فيه ، وإن لم يواته استخدم أسلوب الازدواج ، وإن كان ذلك لا يأتي إلا نادراً ، فالصورة العامة لرسائله هي السجع والبديع والتفنن في استخدامها تفننا يدل على مهارة واسعة ، حتى غدا ذلك كأنه طبع من طباعه وسجية من سجاياه . وأول ما يلقانا في رسائله رسالته التي وصف فيها انتصار جيوش مؤيد الدولة على جيوش أخيه فخر الدولة وحليفه قابوس بن وشمكير ، ومقطعها الأول يجرى على هذا النمط :

« أحسنُ نعم الله تعالى غُرراً وأَوْضاحاً ، وأَبْيُنُها فَلَقاً وصباحاً ، وأوْلاها إذا تُصَفَّحَتْ المواهب أخذنا بحظ السابق ، وأوْلاها إذا اتَّبَعَتِ المنائح فوزاً بالعرز الشاهق ، وأحراها بأن تُثْنى عليها ألسنة الأيام والليالي ، وتُثْنى إليها أعناق المحامد والمعالي ، نعمة صادفتُ حمداً وشكراً . وجمعت فتحاً ونصراً ، ونظمت نُجْحاً وقهراً ، واستندتُ ممتطياً للوجود لاهياً عن غوره ، مُسْتَشْرِياً في الغموط عادياً لَطُوره . وتلك النعمة عند مولانا الملك السيد إذ عَضَدَ الدولة ، وتَوَجَّحَ الملة ، وحرس الأمة ، وزحزح العُمة ، ورَفَدَ الخلافة ، وبَسَطَ العدل والرأفة ، وطهَّرَ البلاد ، وعمر الحج والجهاد ، وساس الجمهور ، وسدَّ الثغور ، فشهدتُ فتوحه بأنه مؤيدٌ من عند الله ، ومحوِّطُ الملك بيد الله ، لا ينازع رأيه منازعُ إلا تُلَّ لجينته ^(١) ، وعوجل بقطع وتينه ^(٢) . ولا يمانع رأيته ممانع إلا غَلَّتْ يده دون مطلبه ، واقْتَطَعَ أمده عن مهربه ، ولم يَعِزَّ بالتحصن عليه مارق ، والتمنَّع دونه مشاقُّ مفارق ،

(١) تلّ لجينه : صرع على وجهه

(٢) الوتين : الشريان الرئيسي للقلب

إلا استولى عفواً على غايات احتياله وأقاصيه ، ومكّن منه القضاء سمحاً فاستنزل عن معاقله وصياصيه (١) .

وواضح أنه تمثّل طريقة أستاذه ابن العميد ، فهو يُعنى أشد العناية بانتخاب ألفاظه ، حتى يكون بناء رسالته في هذا الفتح قوياً سامقاً . ويُعنى بأسجاعه ، فهي تتقابل وتوازن معها طالت ، كقوله : « وأولاهها إذا تُصَفِّحت المواهب أخذاً بحظ السابق ، وأولاهها إذا تُتَبَّعت المنائح فوزاً بالعز الشاهق » وكل كلمة في العبارة الثانية تكاد تشابك بالأيدى مع قرينتها في العبارة الأولى . ومثلها السجعة التالية : « وأحراها بأن تُثني عليها السنة الأيام والليالي ، وتُثني إليها أعناق المحامد والمعالي » وكان الكليات في العبارتين تتعاقب . واستمر في قراءة الأسجاع الطويلة في هذا الفصل وفي رسائل الصاحب ، فستجد دائماً هذا التعاقب والتشابك بين كلمات السجعات ، وحقاً ابن العميد بدأ ذلك ولكن الصاحب اتسع فيه سعة شديدة . ولا بد أن القارئ لاحظ كثرة استخدامه للتصوير منذ فاتحة المطع . فالنعم ذات غرر وأوضاع كتحليل الحرب الظافرة - بل هي كالصباح الجميل البهيج - وتتوالى الأخيلة والصور في المقطع . ويكثر فيه الجناس مثل غوره وطوره ، والأمة والعمة ، وينازع ومنازع ، ويمانع وممانع . ويحاول أن يأتي بغرائب في الجناس تحلب أبواب السامعين ، فيعمد إلى المغايرة بين كلمتين لا في بعض الحروف ولكن في بعض الحركات كما في « أولاهها ، وأولاهها » و « تُثني وتُثني » . وجعلته قدرته على حشد السجعات يُكثر من الجمل الاعتراضية في رسائله على نحو ما يتضح في مطع هذا المقطع ، فقد بدأه بمبتدأ هو « أحسن نعم الله » وفصل بينه وبين خبره ، وهو « نعمة صادفت حمداً وشكراً » بنحو ثلاثة أسطر ، ونقده أبوحيان ، وقال إن هذا يُحدث تعاضلاً في أساليبه (٢) . وفي رأينا أنه مقبول ما لم يطل الاعتراض طويلاً شديداً ، وهو نادر عنده . على أن هذا الجانب في أساليبه شاع فيما بعد بين كتّاب العصور التالية وخاصة عند العاد الأصفهاني والقاضي الفاضل . وليس معنى ذلك أن الصاحب وضع مبدأ طول عبارات السجع ، بل هي تقول أحياناً ، وأحياناً تقصر كما في هذا المقطع نفسه إذ يقول : « نعمة صادفت حمداً وشكراً ، وجمعت فتحاً ونصراً ، ونظمت نُجْحاً وقهراً » . وتكثر هذه السجعات القصيرة في رسائله الإخوانية ، كقوله في عزاء ابن عن أبيه ، وكان عالماً بخريراً : « للفقاع اختلاف مواقع ، وللمصائب تباين مراتب ، ومن أشدها للدعأ ، وأعظمها

وقعاً ، فجيعة أخرجت صدور قومٍ مؤمنين ، ومصيبة خصت العلم والدين ، لفقد الشيخ المنقطع القرين ، أبي عثمان - رحمه الله ، وأكرم مأواه ، ومثواه فقد كان للإسلام جمالاً ممتداً ، وللدين إرکناً مشتداً ، وللعلم شهاباً لا يخبو ، وللأدب سهماً لا يتبو ، يذبُّ عن حق الله القائم ، ولا تأخذه في الله لومةُ لائم ، عاشَ عظيمَ الخطر ، ومات جميل الأثر ، التقوى شعاره ، واليقين إثاره ، وحجج الله مفرغه ، وآياتُ الله مرجعه ، فياله مصاباً ما أعظمه على الموحدین ، وأسره إلى الملحدین ، أذكرنا فقد الأئمة الأبرار ، وأعلام الأمة الأخيار .

ويميضي في مثل هذا السجع القصير موشياً له بالجناس ، أهم لون من ألوان البديع كان يستخدمه ، كما نرى في مثل «مأواه ومثواه» ، و«ممتداً ومشتداً» و«لا يخبو ولا يتبو» و«لومة لائم» . وكان يستخدم معه الطباق من حين إلى حين كما نرى في مثل «الموحدین والملحدین» . وله تهته طريفة بينت ولدت لبعض أصحابه تمضي على هذه الشاكلة :

«أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء ، وأمّ الأبناء ، وجالبة الأضهار ، والأولاد الأطهار ، والمبشرة بإخوة يتناسقون ، نجباء يتلاحقون :

فلو كان النساء كمثل هدى لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيتُ لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهِلالِ^(١)

فادِرْعُ ياسيدي اغتباطاً ، واستأنف نشاطاً ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها . والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية . والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب ، وحلّت بالنجم الثاقب . والنفس مؤنثة وبها قوام الأبدان ، وملاك الحيوان . والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عرف الأنام . والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ، ولها بعث المرسلون . فهنيئاً هنيئاً ما أوليت ، وأوزعك الله شكر ما أعطيت ، وأطال بقاءك ما عرف النسل والولد ، وما بقي الأمد ، وكما عمرُ لُبْدِ^(٢) .

والرسالة مؤلفة من السجع القصير ، ومجلبها الصاحب بالجناس من مثل «الأضهار والأطهار» وهو قليل فيها ، وكأنه لم يكن يتأنق في الرسائل الإخوانية تأنقه في الرسائل الديوانية الطويلة . وفي الرسالة ظاهرة يتبعى الالتفات إليها ، وتقصد ظاهرة الاحتجاج ، فقد احتج للتهته بالبنت - وكان الأسلاف يفضلون الابن عليها - بست

(١) البيان للمعنى . (٢) لبْد : نسر ، وفي الأساطير العربية أنه عمر أربعين عاماً

حجج أوستة أدلة ، وكل دليل لا يقل قوة عن سابقه ، فالدنيا مؤنثة والناس يخدومونها والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية كما جاء في القرآن «ومنها خلقناكم» والسماء مؤنثة وروعها في كواكبها ونجومها فوق التصوير ، والنفس مؤنثة وهي قوام الإنسان ، والحياة مؤنثة وبدونها يموت الإنسان وتبطل حركته ، والجنة مؤنثة ولها بعت المرسلون وبها وعد المتقون . أدلة لأنتفض . وكأننا يازاء مناظرة كلامية في تفضيل البنت الأنثى على الابن الذكر . يستعين فيها على رأيه بكل ما يستطيع من أدلة وبراهين ، ولا شك أن ذلك جاءه من اعتزله وعكوفه على كتب المعتزلة يقرأ في أدلتهم وحوارهم وكيف ينفذون إلى البراهين الساطعة ، مما جعل كتابته تشع بطرائقهم وجدالهم وتفنهم في التعليل والتدليل . وهي تتضح في جدال المنحرفين عن الدولة وفي تعليه العام لأفكاره وتدليله عليها بالأدلة البينة . ومن قوله في إهداء أترجة :

«ما زلت يا سيدى أفكر في تحفة تجمع أوصاف معشوق وعاشق ، وتُنظّم نعوت مشوق وشائق ، حتى ظفرت بأترجة كأن لونها لوني وقد مُنيت ببعدهك ، وبليت بصدك ، وكان عرفها^(١) مستعار من عرفك ، وظرفها مشتق من ظرفك ، فكأنها بعض من لا أسميه ، وأنا أفديه ، فأنفذتها وقلت :

مولاي قد جاءتك أترجة من بعض أخلاقك مخلوقة
ألبسها صانعها حلة من سرق أصفر مسروقه^(٢)

والرسالة تصور أناقته في اختيار سجعاته وتوشيتها بالجناس والطباق مجتمعين في قوله : «معشوق وعاشق» و«مشوق وشائق». وهي تصور ظرفه ورقة مشاعره . ولم تتوقف عند تصاويره وهي كثيرة في رسائله الإخوانية والديوانية كقوله في وصف الورود السوداء في احمرار ، المعروفة باسم الشقائق ، ووصف الأشجار الخضراء والنارجات الصفراء :
«قابلتني شقائق كالزئوج تجارحت فسالت دماؤها ، وضعفت فبني دماؤها^(٣) ، وسامتنى أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها ، وكسها أبرادها ، وحضرتني نارجات ككُرات دهبت أو تُدبى أبكار خلقت^(٤) .»

وله رسالة لم يُعن فيها بالسجع ، وإنما عنى بالتصوير وحده ، وهي في استدعاء صديق لبعض مجالس أسنه ، وتطرّد على هذا النمط :

«نحن يا سيدى في مجلس غنى إلا عنك ، شاكر إلا منك ، قد تفتحت فيه عيون

(٣) الدماء : بقية الروح .

(١) العرف : الرائحة الطيبة .

(٤) خلقت : طُيبت .

(٢) السرق : شق الحرير .

الرجس ، وتوردت فيه خدود البنفسج ، وفاحت بجامر الأترج ، وفُتقت فأرات (١)
النارنج ، وأنطقت ألسنة العيدان ، وقام خطباء الأوتار ، وهبَّت رياح الأقداح ، ونفقت (٢)
سوق الأنس ، وقام منادى الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء الندد (٣)
فبحياتي لما حضرت لتحصل بك في جنة الخلد ، وتتصل الواسطة بالعقد .

والرسالة مغموسة غمماً في صور وأخيلة متعاقبة ، وكأنما ترك المصاحب نفسه على
سجيتها ، فلم يعمد فيها إلى سجع . ولعل في ذلك ما يرد على من اتهموه بتكلفه للسجع
وغرامه به ، حتى لو كلفه ذلك خللاً في الملك والدولة أو لو كلفه أهوالاً ثقلاً ما بعدها
أهوال . فقد كان يلجأ إلى الازدواج أحياناً ، بل ربما تخفف من الازدواج والسجع جميعاً
كما في هذه الرسالة . وله رسائل ملؤها المزاح والدعابة . وكانت بديته حاضرة ، مما جعله
يمتاز بحسن الأجوبة وسرعتها فن ذلك أن ضراًين للنقود من دار الضرب رفعوا إليه رقعة
في مظلمة ووقعوا عليها باسمهم : الضراًين ، فوقَّع تحتها « في حديد بارد » . واستمع إلى
ابن سمعون الواعظ ببغداد في أثناء درس له فسأله متخابئاً عن قدِّ سكونيات العلم إذا وقعت
قبل التوهم . يظن أنه بذلك يقطعه عن الكلام . ولم ينقطع فلما سكت قال له
المصاحب : « هذا الذي تقوله بعد التوهم ، وإنما سألتك قبله ! »

٥

بديع (٤) الزمان ومقاماته

هو أحمد بن الحسين وُلد سنة ٣٥٨ بهمدان . ولذلك يقال له الحمداني ، ولقبه
معاصروه باسم بديع الزمان إعجاباً بأدبه . وهو من أسرة عربية ، نزلت مسقط رأسه ،
وهي أسرة تغلبية مصرية ، ومن قوله في بعض رسائله : « همدان المولد ، وتغلب المورد ،
ومُصر المحدث » فهو ليس فارسي الأصل ، بل هو عربي مصري تغلبي . وعنى به أبوه ،
فأخذه بالعلم والتعلم منذ نعومة أظفاره ، وألحقه بحلقات العلماء ، وخاصة حلقة أبي الحسين
أحمد بن فارس اللغوي المشهور صاحب كتاب المجل ، وله يقول في بعض رسائله
متلظفاً :

- (١) قارة المسك : وعأوه .
(٢) نفقت : راجت .
(٣) ندد : الطيب .
(٤) نظر في بديع الزمان وترجمته وأخباره البيهية
٢٥٦ : ٤ ومعجم الأدباء ١٦١/٢ ودمية القصر ٣٤٦ : ٤
- وابن حلكان ١٢٧/١ ورسائله مطبوعة قديماً ببيروت
ومقاماته طبعت مرارا . وديوانه مطبوع نصر قديماً
وانظر فيه كتابنا الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٣٨
وأيضاً كتابنا (المقامة) طبع دارالمعارف ص ١٣ وما بعدها

لا تَلْمُنِي عَلَى رِكَائِكَ عَقْلِي أَنْ تَيْقُنْتَ أَنَّي هَمْدَانِي

وكان محباً للرحلة ، فلم يكذب يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، حتى فارق موطنه إلى حضرة الصاحب بن عباد ، وكان - كما مر بنا في ترجمته - راعياً كبيراً من رعاة الأدب في عصره ، بل كان أكبر رعاته ، فانتجعه الشاب بديع الزمان سنة ٣٨٠ ومدحه ببعض أشعاره ، وأعجب به الصاحب لبراعته الأدبية ، وأحضره مجالسه ، ويقال إنه كان يلقي عليه بعض الأبيات الفارسية ويطلب إليه نقلها إلى العربية ، فينقلها في سرعة عجيبة . ويرحل عن حضرة الصاحب مولياً وجهه شطراً جرجان ، وينزل بأسرة معروفة بالثراء وتشجيع العلماء والأدباء ، وهي أسرة الإسماعيلية ، ويرعاه منها خاصة أبو سعيد ابن منصور الإسماعيلي ، وظن بعض المعاصرين أنها كانت تعتنق المذهب الإسماعيلي الشيعي ، وهو اتفاق في الاسم جرّ إلى هذا الخطأ^(١) . ويؤكد ذلك أن ياقوت في ترجمته له يقول : « إنه كان شديد التعصب لأهل الحديث والسنة » فلم يكن إسماعيلياً ، ولا كان أيضاً إمامياً شيعياً ، بل كان سنياً أشعرياً .

ولا يمكث في جرجان طويلاً ، بل يتركها إلى نيسابور موطن أهل السنة عام ٣٨٢ وهناك يصطدم بأبي بكر الخوارزمي ، وهو اصطدام طبيعي ، فقد كان الخوارزمي شيعياً إمامياً ، وكان يدعو لبني بويه الشيعة الإماميين في نيسابور معقل الدولة السامانية السنية ، فانتهز الأدباء فيها فرصة نزول بديع الزمان ببلدتهم ، وعقدوا مناظرة بينه وبين الخوارزمي انتصروا فيها لبديع . فعلاصيته - وتألق نجمه ، إذ كان الخوارزمي يعدّ في الذروة من الكتاب والشعراء لعصره . وتصادف أن توفي سريعاً ، فخلا الجو للبديع ، وطارقت شهرته ، ورعاه حينئذ بنوميكال أعيان نيسابور وأدباؤها النابون . وسرعان ما فارقتها سنة ٣٨٣ راحلاً من بلد إلى بلد في خراسان بينا الجوائز والمكافآت تُغدق عليه ، حتى إذا بدأت المعارك بين الغزنويين والسامانيين ولّى وجهه نحو سيستان وأميرها خلف بن أحمد (٣٤٤ - ٣٩٩ هـ) . وكان أديباً فأعجب ببديع الزمان ، ويقول البخارزي إنه وصله بألف دينار . وذكر ذلك في إحدى رسائله . وله فيه خمس مقامات أنشأها في مديحه وقصائده ورسائل مختلفة .

ويترك سيستان إلى هراة بأفغانستان ، ممثياً نفسه أن يصبح من حاشية محمود الغزنوي ويلقاه ، وقد أنشدنا له قصيدة في مديحه على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ،

(١) راجع كتاب بديع الزمان الهمداني للمارون عبود وعروبه دون دليل .

(طبع دار المعارف) ص ١٦ وهو يشك في اسمه واسم أبيه

ويُضهر إلى سَرِيٍّ من سَرَاةِ هَرَاةِ يَسْمَى الخُشْنَامِي ، وينجب أولاداً ، ويقبني عَقَاراً وِضْبَاعاً . ويكتب إلى أبيه رسالة يستدعيه فيها هو وإخوته وعمه مما يدل على ما صار إليه من ثراء . ويبدو أنه غدت له مكانة كبيرة ، فكان الكبراء يقصدونه لطلب شفاعته عند أولى الأمر ، يقول في بعض رسائله : «وهؤلاء الصدور ، يرون أن الشمس من قبلي تدور» غير أنه لم يلبث أن توفي وهو لا يزال في الأربعين من عمره سنة ٣٩٨ للهجرة . وللبديع رسائل كثيرة ، وهي رسائل إخوانية تتناول المديح والاستعطاف والشكر والاعتذار والعزاء والاستمناح وطلب الشراب والمجاء والتفريح ، ومنها ما هو موجه إلى الأمراء أو الوزراء أو كبار الموظفين أو شيوخه أو إلى نظرائه من الأدباء أو إلى أهله أو إلى ذوى الوجاهة واليسار . وله من كتاب إلى الأمير أبي نصر الميكالي النيسابوري :

«كاتبى أطال الله بقاء الأمير - وبودى أن أكونه ، فأستعد به دونه ، ولكن الحريص محروم لو بلغ الرزق فاه . لولاه قفاه . وبعد فإني في مفتاحته بين ثقة تعيد . ويد ترتعد ، ولم لا يكون ذلك والبحر وإن لم أره . فقد سمعت خبره ؟ ومن رأى من السيف أثره ؛ فقد رأى أكثره ، وإذ لم ألقه ، فلم أجهل إلا خلقه . وما وراء ذلك من نالِد أصلٍ ونَسَبٍ ، وطارف فضلٍ وأدبٍ ، فمعلومٌ تشيد به الدفاتر ، والخبر المتواتر ، وتنطق به الأشعار ، كما تختلف عليه الآثار ، والعين أقل الحواس إدراكاً ، والآذان أكثرها استمساكاً» .

وفي هذه الرسالة القصيرة ما يوضح بعض خصائص سجعها ، وأنه يُعنى فيه بتقصير العبارات ، نواتيه في ذلك ملكة فياضة ، فلا يكاد يمسك بالقلم ويكتب ، حتى تتثال عليه العبارات ، وحتى يجئ إلى الإنسان كأن سيلاً متصلاً من الكلام يجري ولا ينقطع إلا أن يتوقف البديع عامداً لينهى الكلام . وتأمل في سجع هذه الرسالة فستجدّه موشى بالجناس الناقص في مثل : «تعد وترتعد» و«أره وخبره» و«أثره وأكثره» و«ألقه وخلقته» . وهو دائماً يغمس رسائله في الجناس غمماً ، تارة يأتي به كاملاً ، وتارة يأتي به ناقصاً ، وهو الأغلب الأكثر ، كقوله في الأمير خلف بن أحمد في إحدى رسائله : «لو أن البحر عدده ، والسحاب يده ، والجبال ذهبه ، لقصرت عما يهبه . بينا المرء في سنة من نومه ، وقصاراه قوت يومه . إذ يُقرعُ الباب عليه قرعاً حقيقاً ، ويُسأل به سؤالاً حقيقاً ، ويُعطى ألفاً خلفياً» . والجناس الناقص واضح في هذه العبارات المتعاقبة ، وهو يشفعه بكثير من التشبيهات والاستعارات ، ضامناً دائماً النظر في الألفاظ إلى نظيره ، وهو ما يسميه البلاغيون بمراعاة النظر كقوله من فصل في إحدى رسائله :

«أراني أذكر الشيخ كلما طلعت الشمس أو هبت الريح أو نجم النجم أولع البرق

أوعرض الغيث أوضحك الروض . إن للشمس محيآه ، وللريح ربيآه ، وللنجم حلاه
وعُلاه ، وللبرق سناؤه وسناه ، وللغيث يده ونَداه ، وللروض سجاياه» .

وواضح أنه لما ذكر عنصرأ من الطبيعة وهو الشمس أرفده بالريح والنجم والبرق
والغيث والروض . والجناسات كثيرة في القطعة . وبجانب ذلك نراه يكثر من الاقتباس من
القرآن ، كما يكثر من نسج الأبيات والشطور في تضاعيف رسائله . ونراه يمنح كثيراً إلى
سرد بعض القصص والحكايات القصيرة ضرباً للأمثال كقوله من رسالة :

« فيما يقول الناس من حكاياتهم أن أعرابياً نام ليلأ عن جملة فقده ، فلما طلع القمر
وجده ، فرفع إلى الله يده ، فقال : أشهد لقد أعليته ، وجعلت السماء بيته . ثم نظر إلى
القمر فقال : إن الله صورك ونورك ، وعلى البروج دورك ، . . . ولئن أهديت إلى قلبي
سروراً ، لقد أهدى إليك نورأ . والشيخ ذلك القمر المنير لقد أعلى الله قدره ، وأنفذ بين
الجلود واللحوم أمره . ونظر إليه وإلى الذين يحسدونه ، فجعله فوقهم وجعلهم دونه » .
ويضرب مثلاً لمن يذهب في البحث بعيدأ عن أمنيته ، وهي مد يده ، بالبخارى الذى
ضاع حماره فذهب يبحث عنه في البلاد النائية . بينما هو في مربيضه ، يقول :

« لم يكن مثلى معه إلا مثل البخارى الذى ضاع حماره وخرج في طلبه ، حتى عبر نهر
جبحون بسببه ، يطلبه في كل منتهلة ، وينشده في كل مرحلة ، وهو لا يجده حتى جاوز
خراسان ، وانتهى إلى طبرستان ، وأتى العراق ، وطاف الأسواق ، فلما لم يجده وأيس عاد
وقد طالت أسفاره ، ولم يحصل حماره ، حتى إذا وصل إلى بلده . بين أهله وولده ، أحب
الله أن يلفظ به لطفأ ليعتبر به ، فنظر ذات يوم إلى إصطبله ، فإذا الحمار بسرجه
ولجامه ، وحزامه ، قائماً على المعلق ينش » .

ورسائل البديع خفيفة ورشيقة . بل لعلها أخف وأرشق رسائل وصلتنا عن عصره
وبعد عصره . وجعلته موهبة القصصية التى رأيناها في رسائله يتتبع فناً جديداً ، هو فن
المقامة ، وهى حكاية قصيرة تقوم على الحوار بين بطل مقاماته : أبى الفتح الإسكندرى
ورواية حكاياته وأقاصيصه عيسى بن هشام . والمعروف أنه أملك أربعين مقامة في أثناء
مقامه بنيسابور ، وأضاف إليها خمسأ ، كما أسلفنا ، عند نزوله بخلف بن أحمد أمير
سجستان ، ثم أضاف إليها ستا أخرى . والمظنون أنه عرض بنيسابور على طلابه أولاً
أحاديث ابن دُرَيْد الأربعين التى احتفظ بها كتاب الأمالى لأبى على القالى ، وهى
حكايات قصيرة مليئة بالسجع والغريب ، وبعد أن أنهاها رأى أن يعرض على طلابه ثانياً
أربعين مقامة له . ومعنى كلمة مقامة حديث . ولم يجعل مقاماته حكايات متنوعة

الموضوعات ، بل جعلها تدور على موضوع واحد ، هو الكُدَيَّة أو الشحاذة الأدبية ، وكأنه استلهم فيها حديث الجاحظ عن المُكْدِين في أوائل كتابه «البخلاء» وكذلك حديث البيهقي عنهم في كتابه «الحاسن والمساوي» ويعرض الجاحظ والبيهقي لأساليبهم وجيلهم في استخلاص الطعام والدراهم والدنانير من الناس . وكان هؤلاء الأدباء الشحاذون قد لمعت أسماءهم في عصر بديع الزمان ، ومرَّ بنا حديث مفصل عنهم وعن شعرائهم في هذا القسم الخاص بإيران وأيضاً في القسم الخاص بالعراق . وكل ذلك ألهم بديع الزمان صنع مقاماته ، ونراه في أولها يتمثل بأبيات كبير المُكْدِين أبي دلف الخزرجي ، وقد أنشدناها في حديثنا السابق عنه ، إذ يقول :

وَيَحْكُ هذا الزمانُ زورُ فلا يغرَنَّكَ العَرورُ

ويسمى إحدى مقاماته المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة من المكدين أو الأدباء الشحاذين ، إذ كانوا يسمون بالساسانيين نسبة إلى ساسان ، وهو - كما أسلفنا - أمير فارسي هجر إمارته وهام على وجهه محترفاً للكُدَيَّة .

وتتقلَّب بديع الزمان بأبي الفتح الإسكندري بطل مقاماته في بلدان مختلفة مما دفعه إلى أن يسمى أكثر المقامات بأسماء البلدان التي ألمَّ بها وأكثرها بلدان فارسية . وفي أحوال قليلة تسمى باسم الحيوان الذي وصفه فيها مثل المقامة الأُسْديَّة نسبة إلى الأسد ، أو باسم الأكلة التي طعمها أبو الفتح مثل المقامة المَصِيرِيَّة نسبة إلى طعام المَصِيرَة ، وهي لحم يطبخ باللبن المصير أي الحامض . وقد تسمى باسم موضوعها مثل الوعظية نسبة إلى الوعظ والإبليسية نسبة إلى إبليس والقريضية نسبة إلى ما فيها من أحكام أدبية على الشعر والشعراء . وسمى مقامة باسم المقامة الجاحظية نسبة إلى الجاحظ ، وهو يقول عنه إنه قليل الاستعارات وينفر من الغريب والكلام المصنوع ، ولعله يقصد الكلام المسجوع المليء بالجناس وما إليه من المحسنات البديعية . وتخلو المقامات الخمس المتصلة بخلف بن أحمد من الكُدَيَّة ، إذ هي مديح خالص له . أما بقية المقامات فكما قدسنا تدور على الكدبية أو الشحاذة الأدبية عن طريق إلتفاح البياني وما ينصبه أبو الفتح من حيل وشباك لسلب أموال الناس . وفي تضاعيف ذلك يعرض البديع مجتمعه بكل ما فيه من مساجد وحامات ومارستانات وحوانيت ومطاعم وحانات وموائد وما يتصل بها من الأواني في بيوت الأغنياء والفقراء . ويعرض في المقامة النيسابورية صورة لفساد القضاة والقضاء في بعض البلدان . وقد حمل في المقامة المارستانية حملة عنيفة على المعتزلة ، لأنه كما قدمنا كان أشعرياً ، وكانت

الخصومة مستعرة في زمنه بين الأشعرية والمعتزلة . ونحن نسوق له إحدى مقاماته ، ولتكن المقامة البصرية نسبة إلى البصرة في العراق ، وهي تجرى على هذا النبط :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : دخلت البصرة وأنا من سِنِّي في فتاء (شباب) ومن الزَّيِّ في حَيْرٍ وِوِشَاء (ثوب مطرز) ومن الغِنَى في بَقَرٍ وِشَاء (غنم) فَأَتَيْت المِرْبَدَ (سوق البصرة) في رِفْقَةٍ تَأْخِذُهُم العيون ومشيئا غير بعيد إلى بعض تلك المتزَّهات ، في تلك المتوجَّهات ، وملكتنا أرضٌ فحلَّلناها ، وعمدنا لِقْدَاحِ اللُّهُو فأجلَّناها ، مطرِّحين للحشمة إذ لم يكن فينا ، إلا مِثًّا ، فما كان بأسرع من ارتداد الطَّرْفِ ، حتَّى عنَّ (ظهر) لنا سواد (رجل) تَحْفُضُهُ وِهاد ، وترفعه نِجاد (مرتفعات) وعلمنا أنه يهْمُ بنا ، فَأَتَلَعْنَا (مددنا أعناقنا) له حتَّى أَدَاهُ إلينا سيره ولَقِينَا بتحية الإسلام ، ورددنا عليه مقتضى السلام ، ثم أجال طَرْفَهُ فينا وقال : يا قوم ما منكم إلا مَنْ يَلْحَظُنِي شَرًّا (بمؤخر عينه) ويوسعني حَزْرًا (تخمينا) وما ينبئكم عنى ، أصدق منى . أنا رجل من أهل الإسكندرية ، من الثغور الأموية ، قد وطأ (مهد) لى الفضل كَنَفَهُ ، ورَحَّبَ لى عَيْشِ ، ونماني بيت ثم جمع بي (أهاننى) الدهر ، وأتلانى (أتبعنى) زغاليل حُمُرِ الحواصل . . . ونشَرْتُ عَلَيْنَا البِيضَ (الدراهم) وشَمَسْتُ (نفرت) منا الصُّفْرُ (الدنانير) وأكلتنا السود (الليالي) وحطمتنا الحُمُرَ (السنوات المجذبة) . . . وهذه البصرة ماؤها هُضُوم (مهضم) وفقيرها مهضوم : فكيف بمن :

يَطُوفُ ما يَطُوفُ ثم ياوى إلى زُغْبٍ محدِّدة العيون^(١)

كسَاهُنَّ اللَّيْلِ شُعْنًا فُتْمَسِي جِيعَ النَّابِ ضامرة البطون^(٢)

ولقد أصبحن اليوم وسرحن (أجلن) الطَّرْفِ في حَيِّ كَمَيْتٍ (يقصد نفسه) وبيت
كلا بيت ، وقَلْبِنِ الأَكْفَ على لبت ، فقَضَضْنَ عَقْدَ الضلوع ، وأقضن ماء الدموع ،
وتداعين باسم الجوع :

والفَقْرُ في زمن اللثا م لكل ذى كرم علامة

رَغِبَ الكرامُ إلى اللثا م وتلك أشرطُ القيامة^(٣)

ولقد اخترتكم يا سادة ، ودللتنى عليكم السعادة ، وقتت : قَسَمًا ، إن فيهم لئسًا ،
فهل من فتى يُعْشِين ، أو يُعْشِين (يكسوهن) وهل من حر يُعَدِّين أو يردِّين (يلبسهن)

(١) زغب : من الزعب : صغار الريش والشعر (٢) شعنا : مغبرة ، كناية عن أن أحدا لا يراهما

والكتابة واضحة . (٣) أشرط : علامات

ثياباً). قال عيسى بن هشام : فوالله ما استأذن على حجاب سمعي كلامٌ رائعٌ أبرع ، وأرفع ، وأبدع ، مما سمعت منه . لا جرم أنا استمحننا الأوساط (يريد الأحرمة وما فيها من نقد) ونفضنا الأكام ، ونحّينا الجيوب ونُلتّه (أعطيته) أنا مطرفي (ثوبى) وأخذت الجماعة إخذى ، وقلنا له : الحقُّ بأطفالك ، فأعرض عنا بعد شكر وفاء ، ونشّر (ثناء) ملاً به فاه . وواضح ما يمتاز به البديع في مقاماته من خفة روح وميل إلى الدعابة . حتى يدخل السرور على سامعيه وترسم البسمات على شفاههم . ويكثر من إنشاد الشعر في المقامات ، ومن حلّ بعض الأبيات المشهورة ، على نحو ما صنع بقوله : « وأتلافى زغاليل حمر الحواصل » يريد أولاده وأنهم مثل زغاليل قرية عهد بالولادة ، فحواصلها لا تزال حمراء خالية من الريش ، والصورة استعارها من الخطيئة حين حبسه عمر بن الخطاب ، فتوجه إليه يستعطفه لأولاده قائلاً :

ماذا تقول لأفراخٍ يذى مرخ زُغِبِ الحواصل لا ماء ولا شجر^(١)

وكانت للبديع موهبة قصصية رائعة ، غير أنه لم يستغلها في مقاماته بالمقدار الذي كان يُظنّ ، إذ لم يضع في ذهنه صنع قصص وحكايات ، إنما الذى وضعه وجعله نصب عينيه أن يتخذ من حوار المقامة القصير بين عيسى بن هشام وأبى الفتح وسيلة لحشد عبارات مسجوعة طريفة تحتفظها الناشئة . وجاراه الحريرى وغيره في صنع هذه الأفاصيص القصيرة البلاغية ، وعدّوها أروع صور النثر وأبلغه ، غير حافلين بعمل قصص طويلة أوحى قصص قصيرة متنوعة . وبدأ البديع فوضع هذه الأفاصيص القصيرة أو هذه المقامات في إطار السجع ، وتبعه خالفوه . وهو يضيف إلى السجع - كما رأينا في رسائله - ألوان البديع من الأخيلة والتصاویر ومن الجناس ومراعاة النظير ، وألهاه الحوار القصصى عن المبالغة في ذلك . ولا ريب في أن سجعه في مقاماته - كرسائله - سجع رشيق ، لما يمتاز به من قصر ومن حسن انتخاب لألفاظه . وقد يتخلل بعض مقاماته بالشعر ، كما قد يحشد فيها بعض ألفاظ غريبة ، على نحو ما نقرأ في المقامات : الحمدانية والموصلية والقردية . وربما دفعه إلى ذلك مقصد تعليمي ، وهو مقصد تأثر فيه بأحاديث ابن دريد المفرطة في الغرابة . غير أن ذلك إنما يأتى في المقامات التى سميناها وفي الحين البعيد بعد الحين ، بحيث لا تُعدُّ عيباً في أساليبه التى تطبعها - كما قلنا - الرشاقة ، وأيضاً الخفة والعذوبة وروح الفكاهة المرححة المحببة لكل إنسان .

وحري بنا أن نشير إلى ما ذكرناه في كتابنا المقامة من أن المقامة الإبلية لبديع الزمان هي التي أوحى لابن شهيد الأندلسي وأبي العلاء المعري رحلتها فيما وراء الطبيعة ، فإن بديع الزمان تصور في مقامته عيسى بن هشام يلتقي بإبليس في واد من وديان الجن ، إذ ضلّت منه إبل فخرج يطلبها ، حتى نزل في واد حافل بالأشجار والأنهار ، وبينما هو ينظر من حواله إذ رأى شيخاً جالساً فسلم عليه وردّ السلام ، وسأله ابن هشام هل تروى من أشعار العرب شيئاً ؟ قال نعم وأنشده بعض أشعارهم ، وعرض عليه أن ينشده من شعره وهشّ له ابن هشام ، فأنشده قصيدة لجرير ، وعجب ابن هشام من انتحاله لها ، وبدور بينهما حوار يقول له فيه إبليس « ما أحدٌ من الشعراء إلا ومعه معين منا ، وأنا أملت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبو مرّة » . ويغيب عنه ، ويجد عيسى بن هشام نفسه وحيداً . وقد استوحى ابن شهيد هذه المقامة في رسالته « التوايع والزوايع » أي الجن والشياطين ، وهو فيها يلتقي شياطين الشعراء في وادي الجن ، وكلما لقي شيطاناً لشاعر أنشده من شعر صاحبه ، ثم أنشده من شعره ، فيبدى إعجابه به ويمجيزه اعترافاً بروعة شعره ، ولقى شياطين الكتاب كما لقي شياطين الشعراء ، وعرض عليهم بعض رسائله . ولقى شيطان بديع الزمان الذي سمّاه « زبدة الحقب » ، ويحاول أن يعرض عليه بعض عباراته النثرية التي يحاكيه فيها ، ويعترف له زبدة الحقب بحسن بلاغته ، ويمجيزه على إبداعه . والصلة قوية بين هذا العمل لابن شهيد وبين المقامة الإبلية ، فهما جميعاً يتخذان لقاء شياطين الشعراء في وادي الجن موضوعاً لهما ، ويلتقي ابن شهيد شيطان بديع الزمان مما يؤكد صلته بآثاره ، وأنه يعارض مقامته الإبلية بتوايعه وزوايعه . وتجادل الباحثون طويلاً هل ابن شهيد هو الذي ألهم أبا العلاء رسالة الغفران وما صوّر فيها من رحلة وراء الطبيعة يوم البعث وعلى الصراط وفي الجنة ، أو أن أبا العلاء هو الذي ألهم ابن شهيد رحلته وراء الطبيعة في وادي الجن ؟ . ولعل فيما ذكرناه ما يبطل هذا النزاع والجدال ، فإن بديع الزمان هو الذي استغلّ لأول مرة الحديث عن وديان الجن وشياطين الشعراء في مقامته الإبلية ، ثم جاء بعده ابن شهيد وأبو العلاء المعري في القرن الخامس الهجري ، فألف كل منهما رحلة فيما وراء الطبيعة . ويتضح أثر البديع بقوة في ابن شهيد لأنه التقى مباشرة مع البديع في وادي الجن ، أما أبو العلاء فاستقل برحلته عن هذا الوادي ، واتخذ لها مضموناً أشمل وأبعد وأوسع .

خاتمة

١

تحدثنا عن الجزيرة العربية في القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربي فيها وفي العراق وإيران في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث ، وبدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض التاريخ السياسي لأقاليمها حينئذ ، وهي الحجاز ونجد واليمن وحضرموت وظفار وعمان والبحرين ، وفصلنا القول في إمارتي مكة والمدينة وما كان من دخول الحجاز في حكم الدولة العثمانية . وصورنا تحركات القبائل في نجد وتكوينها لإمارات متعددة في شرق الجزيرة وظهور آل فضل وآل مرا في بوادي الشام ثم ظهور آل سعود في نجد . وعرضنا دول اليمن المتعاصرة في زبيد وصنعاء وصعدة وعدن ودخولها في حكم الأيوبيين ثم الرسولين فالطاهريين ، فغلبة الدولة الزيدية عليها . وتداول الدول اليمنية حضرموت ، وكذلك ظفار إلى أن تبعث عمان نهائيا . وكان الخوارج في عمان يتخذون « نزوى » في الداخل حاضرة لهم بينما استقلت عنهم عمان والثغور على الخليج العربي قرونا متطاولة حتى غلبوا عليها في القرن العاشر الهجري . وسيطر القرامطة على البحرين في أوائل العصر ، وخلفتهم عليها دول متعاقبة أهمها الدولتان العبسية ودولة بني عصفور ، واستقلت عن البحرين قطر وجزيرة أوال (البحرين الحالية) وضمت الدولة السعودية إليها الأحساء والقطيف منذ أكثر من قرن .

وكان مجتمع الجزيرة طوال العصر يتألف من بدو وحضر ، وظلت نجد بدوية إلا قليلا في بعض القرى وبعض العواصم التي اتخذتها إماراتهم . وكان يتزل اليمن أحباش كثيرون ، بينما نزل في مدن الخليج وثغوره كثير من أهل إيران والهند وسواحل إفريقيا . وعرفت اليمن وعمان والبحرين الزراعة واعتمدت عليها مما أهل لشئ بها من الحضارة ، واشتهرت اليمن بكثرة الجوارى والغناء . وعرفت الجزيرة بجانب المذاهب السنية الأربعة المشهورة : مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل مذاهب الشيعة : الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية وكانت « نزوى » بعمان مركزا للخوارج الإباضية من قديم ومنها شاع مذهبهم في حضرموت . وما يتصف القرن الثاني عشر الهجري حتى يعتنق محمد بن سعود أمير الدرعية

الدعوة الوهابية السلفية ويضع يده في يد محمد ابن عبد الوهاب لنشرها في الجزيرة ، وهي نداء يدعو إلى اتباع الختابلة من أهل السنة . ويلقانا كثير من كبار المتصوفة في مكة واليمن وحضرموت ، وكان النساك متشردين في كل مكان .

وكان يجرى في كل بلاد الجزيرة جدول كبير من جداول الثقافة العربية بجميع علومها وفنونها ، حتى في قرى نجد وقد تحولت - منذ ظهور محمد بن عبد الوهاب - إلى دار كبيرة لدراسة كتبه وكتب إماميه : أحمد بن حنبل وابن تيمية . وكانت مكة والمدينة أشبه بجامعتين كبيرتين ، بما كان فيها من العلماء والأدباء ، وبما كان يفد عليهما سنويا من أدباء العالم العربي وعلمائه ، وخاصة من كان يقيم بهما منهم مجاوراً سنوات طوالا . وكانت الحركة العلمية والأدبية ناشطة طوال العصر في اليمن وحضرموت وعمان والبحرين ، ونشط معها البحث في علوم الأوائل وعلم الملاحة البحرية خاصة على نحو ما هو معروف عن ابن ماجد العماني . وفي كل أقاليم الجزيرة ومدنها نشطت علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد ، وكثر تأليف المعاجم والكتب والدراسات البلاغية والنقدية ، وبالمثل نشطت علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام وكثر العلماء في كل الأقاليم ، وكثر ما أنتجوه من الكتب والمصنفات .

وكان الشعر يجرى على كل لسان في أقاليم الجزيرة ، وأخذت العامة تراجم الفصحى في نجد واليمن وحضرموت وعمان والبحرين منذ القرن السادس الهجري ، ومع مرور الزمن شاع معها شعر حُمَيّتي في اليمن وحضرموت وشعر نبطي في بقية الأقاليم ، غير أن سيل الشعر الفصيح ظل قويا فيها جميعا ، وقد ترجم الباخريزي لمجموعة كبيرة من شعراء نجد والحجاز واليمن في القرن الخامس الهجري وترجم العماد الأصهباني لطائفة من شعراء بني عَقْبِل في الموصل وشعراء بني مَزِيد في الحِجْلَة وأيضاً لطائفة من شعراء الحجاز واليمن في القرن السادس . وتلقانا بعده في كتب مختلفة تراجم لشعر الجزيرة في حقب العصر التالية ، غير ما طُبِع ونشر من دواوين النابيين من الشعراء . ويكثر شعراء المديح وفي مقدمتهم القاسم بن هَتَيْمَل اليمني وأحمد بن سعيد الخروصي السَّئالي العماني وعلى بن مقرب العُيُوفِي البَحْرَانِي وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الحَضْرَمِي . كما يكثر شعراء المراثي من أمثال التهامي المكِّي وجعفر الخطي البَحْرَانِي . وشعراء الفجر والهجاء من أمثال نشوان بن سعيد الحميري اليمني وسليمان النهباني العماني .

وتتكاثر في الجزيرة طوائف الشعراء ، وولتقى منهم بشعراء الدعوة الإسماعيلية وفي طليعتهم ابن القمّ والسلطان الخطّاب وعمارة اليمني ، وبشعراء الدعوة الزيدية من أمثال يحيى

ابن يوسف النشو بمكة وموسى بن يحيى بَهران وعلى بن محمد العنسى في اليمن ، وبشعراء الخوارج من أمثال أبي إسحق الحضرمي الإباضي وابن الهيثمي اليمني . وولتقى بشعراء الدعوة الوهابية السلفية ، وفي مقدمتهم محمد بن إسماعيل الحسني الصنعاني اليمني وابن مشرف الأحسائي ، وبشعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال عبد الرحيم البرعي اليمني وعبد الرحمن العبدروس الحضرمي . وجميعهم رُسمت شخصياتهم وأنجاهاتهم الشعرية . ولم تكن نجد تعنى بالكتابة قبل ظهور محمد بن عبد الوهاب ، أما بعد ظهوره فقد أخذت الكتابة تنمو مع الدعوة نموا واسعا . وكان في مكة والمدينة كتاب إنشاء من قديم ، وكثرت بهما الإجازات العلمية وتقاريط الكتب . وكانت الكتابة مزدهرة في اليمن طوال العصر ، وظلت ناشطة في حضرموت وعمان والبحرين . وتحفظ الكتب برسائل متبادلة بين أمراء مكة وسلاطين مصر المماليك . وكانت الرسائل الدبوانية ناشطة في اليمن منذ زمن الدولة الصليحية في القرن الخامس . وتحفظ الكتب التاريخية ببعض رسائل متبادلة بين الدولة الرسولية وسلاطين المماليك في مصر ، وكذلك برسائل متبادلة بين الأئمة الزيديين المتأخرين وبين أئمة الخوارج في عمان ، وبالمثل بين الأئمة الأخيرين وعالمهم . وتكثر الرسائل الشخصية ويتحول بعضها إلى رسائل أدبية جيدة . ويكثر الوعظ . وتالفنا محاورات ورسائل فكاهية ومقامات أدبية متنوعة .

٢

وفي القسم الثاني من هذا الجزء تحدثنا عن العراق . وبدأنا حديثنا عنه بتاريخه السياسي وبيان الدول التي تعاقبت على حكمه ، وهي الدولة البويهية . ويلها الدولة السنجوقية ، ويسترد الخلفاء منها في منتصف القرن السادس الهجري صولجان الحكم ، ويقضى التتار بقيادة هولاكو على حكمهم وخلافتهم في منتصف القرن السابع . وتعاقب على العراق وبغداد دولتان تاريخيتان : دولة الأيلخانيين ودولة التيموريين ثم دولة التركان ، ويظل العراق في قبضتها إلى أن استولت عليه الدولة الصفوية الإيرانية ، وسرعان ما استخلصته منها الدولة العثمانية . وكان المجتمع في بغداد يتألف من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية مترفة . وطبقة وسطى تحظى بشيء من سعة العيش . وطبقة دنيا هي طبقة العامة . وكانت تتجرع الضنك والبؤس ، فتحوّل كثيرون منها إلى عيارين ولصوص ينهبون بغداد من سنة إلى أخرى مستشعرين - فيما يبدو - فكرة العدالة الاجتماعية . وشاع في العراق المذهب الشيعي الإمامي الاثنا عشرى ، وكان بجواره مذهب شعبي مازق هو مذهب النصيرية ،

ومذهب شيعى معتدل هو مذهب الزيدية . وكانت موجة الزهد والتصوف حادة طوال العصر ، وتزخر كتب التراجم بأسماء الزهاد والمتصوفة وطرقهم وخاصة طريقتى الجيلاني والرفاعي وما شاع بعدهما من طريقتى التقشبية والبكطاشية .

وظلت الحركة العلمية في بغداد ناشطة وكذلك الشأن في العراق عامة إذ عُني بها البويهيون والسلاجقة ، وخاصة وزيرهم نظام الملك مؤسس جامعة النظامية ببغداد ، وتكاثر المدارس ، ويؤسس الخليفة المستنصر ببغداد جامعته المستنصرية . وكانت المساجد مدارس كبرى يستمع فيها الناس للعلماء في كل فن بحيث تصبح الثقافة غذاء شعبيا عاما ، مما أحدث رواجاً هائلاً في الوراقة ونشر الكتب على نحو ما يصور ذلك ابن النديم في كتابه « الفهرست » . وتظل هناك بقية لحركة الترجمة ، وتنشط الحركة الفلسفية والعلمية حتى لتصبح الفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل من مدارك العامة ، كما تدل على ذلك رسائل إخوان الصفا . وتكاثر الندوات الفكرية في بغداد وتكاثر المتفلسفة ، وخاصة قبل الغزو التتاري ، وتظل منهم بقية في الحقب التالية . وتنشط في العصر الكتابات الفلسفية والطبية والعلمية والجغرافية . كما تنشط البحوث اللغوية وشروح الشعر ، وتنفذ ببغداد في النحو إلى مدرسة جديدة هي المدرسة البغدادية . ويتسع النشاط في الدراسات البلاغية وما يتصل بها من البديعيات ، وبالمثل في الدراسات النقدية وخاصة حول المتنبي وشعره . ويُعنى صفي الدين الحلي بدراسة الموشحات والأشكال الشعرية المستحدثة والشعر العامي . وتنشط ببغداد والعراق في دراسات القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه وعلم الكلام ، كما تنشط الكتابة في التاريخ العام والخاص وفي تراجم العلماء من كل صنف . وتكاثر الشعراء في العراق وتوالي موجاتهم على نحو ما يلقانا في البيعة وتمنيتها والدمية والخريدة وما تلاها من كتب التراجم ، وينظمون في الرباعيات والمرشحات . ويفسحون في أشعارهم لصور كثيرة من التعقيدات حتى في المحسنات البديعية . ويلقانا مع كل دولة بل في كل مكان شعراء المديح ومن أعلامهم الأفياذ المتنبي أكبر شعراء العصر ، وسبط ابن التعاويذي ، وصفي الدين الحلي . وملتقى بكثيرين من شعراء المرائي والهجاء والشكوى من أمثال السري الرفاء ، وابن القطان . ويكثر شعراء الشيعة ، وفي مقدمتهم الشريف الرضي ، ومهيار ، وابن أبي الحديد .

ونلتقى بطوائف كثيرة من الشعراء ، وأول من نلتقى بهم شعراء الغزل ، وقد أذاعوا فيه حيننا وشوقاً وظماً للقاء محبوباتهم لا ينتهي ، مما أعدّ لظهور ضرب من الشعر الوجداني عند ابن المعلم والحاجري والتلعفري . ويتغنى للطبقة المترفة شعراء اللهو والمجون من أمثال

ابن سُكْرَةَ ، وابن الحجاج ، بينما يتغنى للشعب ومشاعره الدينية شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال ابن السراج البغدادي ، والمرضى الشَّهْرَزُورِيّ ، والصَّرَصَرِيّ .
ويلقانا أصحاب الشعر الفلسفي والتعلمي من أمثال ابن الشَّيْبَلِ البغدادي وابن الهَبَّارِيَّة ، كما يلقانا شعر شعبي عامي كثير وقفنا عند فنونه ، وأيضا شعراء شعبيون من أمثال أبي الأحنف العُكْبَرِيّ .

ويتنوع النثر في العصر ، فكان هناك النثر الفلسفي والنثر العلمي والمناظرات وخطابة الوعظ والقصص وكتب الأدب التهذيبي والرسائل الشخصية . وتكثر الكتابات الديوانية وتلتقى بأبي إسحق الصائغ والعلاء بن الموصلايا وصياف الدين بن الأثير . ويلقانا من أعلام النثر أبو حيان التوحيدى بأسلوبه المتموج بطرائف الفكر ، وابن مسكويه بنظرياته الأخلاقية الملتحم فيها الفكر الأجنبي بالفكر الإسلامي العربي مع حسن الأداء ، والحريري بمقاماته الرائعة التي خلبت ألباب معاصريه وخالفه حتى العصر الحديث .

٣

وفي القسم الثالث من هذا الجزء تحدثنا عن إيران ، وبدأنا حديثنا ببيان الدول المتعاقبة بها ، وهي الدولة السامانية ، والدولة البويهية ، والدولة الزيارية ، والدولة الغزنوية ، ثم تحدثنا عن الدول التي تعاقبت عليها منذ أواسط القرن الخامس الهجري . وهي دولة السلاجقة ، والدولة الخوارزمية ، والدولة التتارية الإيلخانية ، والدولة التيمورية ، والدولة الصفوية ، وما تلاها من الدول . وكان مجتمع إيران يتكون من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية مترفة ، وطبقة متوسطة تعيش في غير قليل من اليسار ، وطبقة دنيا هي طبقة العامة . ونشط الشيعة في نشر عقيدتهم ، وفي مقدمتهم الزيدية الذين أقاموا لهم في القرن الثالث دولة في طبرستان غير أنها لم تمكث طويلا . ومنذ قبض البويهيون على زمام الأمور بإيران نشط الإماميون في نشر عقيدتهم ، وما زالوا ناشطين حتى تولى الصفويون مقاليد الحكم في أواخر القرن التاسع الهجري فجعلوا المذهب الإمامي المذهب الرسمي لإيران . وكان نشاط الإسماعيليين كبيرا طوال القرنين الخامس والسادس الهجريين إلى أن قضى عليهم التتار نهائيا في منتصف القرن السابع الهجري . وكانت تعم في إيران موجة زهد وتصوف ، وحدث انفصام بين الصوفية والفقهاء ، وسرعان ما رآب الصدع أبو نصر السراج ، والتشيري ، والغزالي .

وظلت الحركة العلمية طوال العصر ناشطة ، وخاصة في القرون الأولى ، بفضل رعاية الحكام والأمراء لها ، فكانوا يبنون المدارس ويرصدون الرواتب للعلماء والطلاب ، وعُتوا بالمكتبات . وأقبل جميع أفراد الشعب على العلوم ، حتى النساء ، وأخذوا ينفردون كتباً لشرح المصطلحات في العلوم والفنون . ونشطت نشاطاً عظيماً دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل ، ويكفي مثلاً لهذا النشاط جهود ابن سينا والبيروني ، مما أهل لهضة العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والجغرافية . وتكاثر وضع المعاجم ، وازدهرت المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية . ونشط التأليف في التفسير كما نشط التأليف في الحديث النبوي ، وفي الفقه ، وفي علم الكلام وخاصة في المذهبين : الأشعري والماتريدي . وتنوعت الكتابة التاريخية بين كتب تتناول التاريخ العام أو تاريخ بعض البلدان وكتب تتناول التراجم : تراجم الشعراء والعلماء في كل فن .

ويزدهر الشعر العربي بإيران في القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة ، بدليل المجلدات الضخمة التي شغلها في اليتيمة وتمتها وفي الدمية والخريدة . ومعروف أن أول كتاب صنف عن الشعر الفارسي وشعرائه كتاب عوفى في القرن السابع الهجري . ونفس الشعر الإيراني صيغ صياغة على أنماط الشعر العربي ، وتناول نفس موضوعاته ، وشاع فيه مثله زخرف البديع ومحسناته . وقد ظل الشعر العربي حياً في إيران حتى القرن التاسع على الأقل . ويتكاثر شعراء المديح وفي مقدمتهم علي بن عبد العزيز الجرجاني والظفراني والأرجاني ، وبالمثل شعراء المراثي من أمثال أبي الحسن علي بن أحمد الجوهري الجرجاني ، وشعراء الفخر والمهجاء والشكوى من أمثال أبي بكر الخوارزمي ، والأبيوردي .

وتلقانا بإيران طوائف كثيرة من الشعراء ، وأول من تلقاهم شعراء الغزل وفي مقدمتهم أبو الفرج بن هندو ، وأبو الفضل الميكالي . ويليهم شعراء اللهو والمجون عن أمثال أبي بكر القهستاني ، وأبي الحسن الباخريزي . وشعراء الزهد والتصوف من أمثال القشيري ، ويحيى الشهروردي ، وشعراء الفلسفة والحكمة والأمثال وفي مقدمتهم أبو الفضل السكري المرورزي ، وأبو الفتح البستي ، وشعراء شعبيون مختلفون من أمثال أبي دلف الخزرجي .

وينشط النثر ، ويظهر فيه قصص صوفي كثير وقصص فلسفي بديع ، ويتكاثر كتاب الرسائل إذ تكثر الدول والإمارات ويصبح لكل إمارة ولكل دولة ديوان ، ويشتهر في كل دولة كاتب مجيد من أمثال قابوس بن وشمكير والعنبي ورشيد الدين الوطواط ، ومن أنه كتاب إيران في العصر على توالي حقبة ابن العميد الذي أرسى قواعد الكتابة على ركنين

أساسيين من السجع والمحسنات البديعية ، وأوفى الصاحب بن عباد بالكتابة بعده على الغاية التي كانت تنتظرها من التجويد والتنميق . وينشئ بديع الزمان الهمداني لأول مرة في تاريخ الأدب العربي مقاماته المشهورة . وهو بحق يُعدُّ أروع كتاب إيران الذين ظهوروا في عصر الدول والإمارات غير منازع ولا مدافع .